



جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم التاريخ

دمشق

دراسة عمرانية اقتصادية اجتماعية
من خلال وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق

١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م

مشروع بحث أعدّ لنيل درجة الدكتوراه
في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

إشراف

أ. د. محمود عامر

إعداد الطالب

يوسف كوريه

٢٠١٠ م

إلهـمـاء

إلى :

- ذكرى والدي الراحل لحدو ميرزا كورية الحبيب
- التي هزت العالم بيمينها، وحملتني على يديها
مريم لحدو أمي الغالية
- التي جاهدت وحملت همي وهم أولادي
الفاضلة روز مقدسي الياس
زوجتي الغالية
- عهد ، عهد الله إليّ فحافظت على العهد
عهد كورية حبيب قلبي
- شعلة حياتي وبسمة مستقبلي
تمارا كورية
- ينبوع البراءة - حفيدتي الصغيرة
إلّسي لبّيب العسّاف
- إليهم حبي وتقديري وكل ما أملك
يوسف كوريه

N

الصفحة

- المقدمة ٦

الفصل الأول

المظاهر العمرانية لمدينة دمشق

- ١ - لمحة تاريخية عن مدينة دمشق ١٦
- ٢ - الأزقة وتسمياتها ٣٨
- ٣ - قرى دمشق ٤٠
- ٤ - نماذج وثائقية مع جدول بالسجلات ووثائقها ٥٥
- ٥ - عقود البيع والشراء والاستئجار ٦٢
- ٦ - الدور المشتركة ٦٦
- ٧ - الشهود في الوثائق ٦٧

الفصل الثاني

الحياة الإدارية في دمشق

- ١ - لمحة عن السلطان ووظيفته ٨١
- الصدر العظام ٨٢
- ١ - أحمد باشا كوبرولوزاده ٨٢

- ٢ - قره مصطفى ٨٣
- ٣ - إبراهيم عمر باشا ٨٣
- ٤ - بكري مصطفى باشا تكيرواغلي ٨٤
- ٥ - مصطفى فاضل كوبرولو ٨٤
- ٦ - ألماس محمد باشا ٨٤
- ٧ - حسين باشا كوبريللي ٨٥

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في دمشق

- أ - الصناعة ١٥٦
- ١ - صناعة الحرير ١٦٤
- ٢ - صناعة الغزل والنسيج ١٦٧
- ب - الزراعة ١٧٨
- ج - الواقع الاقتصادي لدمشق ١٨٣

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في دمشق

- ١ - المظاهر الدينية الثقافية والخدمية ٢٤٢
- ٢ - الواقع الاجتماعي ٢٧٩

- ٣ - أهل الذمة ٢٨٦
- الخاتمة ٣٠٨
- المصادر والمراجع ٣١٠
- الملاحق ٣١٧

المقدمة

لم يكن من باب المصادفة إعداد موضوع بحث وثائقي عن دمشق، فلقد كان شبيه متمم لموضوع الماجستير الذي تناول الوقف في دمشق، وإذا كانت دراسة الوقف قد غطت العقدين الأولين من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أي معظم فترة حكم أسعد باشا، وكان الهدف الأول من دراستي هذه المعنونة، إعطاء صورة عن دمشق خلال فترة امتازت بالقوة وعرفت تاريخياً بطفرة الصدور العظام من آل كوبريلي، فإن هذه الدراسة لم يكن فيها أي نفوذ للقوى اليرلية التي تزامن وجودها مع بروز النفوذ المحلي من آل العظم ولا سيما فترة أسعد باشا^(١).

ولإيفاء البحث حقه من الدراسة الوثائقية، اضطررنا إلى العودة إلى البدايات الأولى في استخدام سجلات المحاكم الشرعية بدمشق، وقد لمسنا وثائقاً أنه في هذه الفترة تأكدت وتجسدت مظاهر الضعف العثماني، ولا سيما بعدما تخلصت الإنكشارية من طفرة القوة التي مثلها أحمد باشا كوبريلي وابنه محمد باشا (١٦٥٦-١٦٧٦م) وقد حاولنا الدفع بالبحث إلى فترتهم، لكن الضعف الذي تأصل في الدولة العثمانية كان أكبر من إمكانيات الدولة وصدورها العظام، فاضطر سلاطين تلك المرحلة إلى التسلل سراً لتوقيع معاهدات الإذعان، ومن ثم بدأت الإمبراطورية الجرمانية تشدد الخناق على الدولة العثمانية وسلاطينها الذين لم يكونوا أسعد حالاً من عساكرهم الذين يشكون الضعف، وهذا الحال

(١) اليرلية، المحلية أو المتطوع المحلي، وقد ترأس هذا التنظيم آغا، أطلق عليه آغا اليرلية أو آغا المتطوعة، وقد أقيم هذا التنظيم في مصر، بغداد، الموصل، ديار بكر، بوسنة، الشام، حلب، قارص، وتعدّ دمشق من أكثر المدن التي أدى فيها هذا التنظيم دوراً شعبياً مميزاً. للمزيد، مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، استانبول ١٩٨٣م ص ١١٧.

المتجه إلى الترهل حتم على الدولة العثمانية التخلي عن بعض مناطق البلقان ولا سيما هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا.

إن فترة الدراسة توضح الصراع المتنامي في دمشق ما بين القوتين العسكريتين فئة أوجاق القابي قول Kapı Kul^(١)، وبين القوى المحلية Yerliye، وإذا كان أوجاق Ocak القابي قول ومقرهم قلعة دمشق يدينون بالولاء إلى السلطان الجالس في استانبول، فإن القوى اليرلية، خرج زمام ولائها من الوالي والسلطان ليرتبط بالأهالي، ولتغدو تلك القوة تتولى مسؤولية الدفاع عن الأهالي من أية قوة كانت رسمية أو غير رسمية^(٢).

صعب إجراء دراسة تفصيلية من خلال الوثائق التي تزداد حجماً، وبما أن هذه المرحلة لم تدرس، فإن مسألة البحث في جزئياتها غير سهلة، لأن الأمر يقتضي قراءة فرمانات السلطانية التي صدرت إلى دمشق، وما هو رد الوالي العثماني على الفرمان، وكم كانت الصدمة قاسية عندما وجد أن وثائق السجلات بمعظمها تخص العسكريين^(٣)، وصدرت بتوقيع القسام العسكري فيها قضايا دعاوى بين العسكريين والمدنيين الملحقين بهم، ومما زاد في صعوبة البحث وجود نقص قرابة خمس سنوات، هذا النقص زاد من عبء البحث، فضلاً عن وجود نقص في السجلات أو بالأحرى (فقدان) وما قام به والي دمشق نصوح باشا ابن عثمان المنفصل عن منطقة أيدين سنة ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨-١٧٠٩م الذي أمر بإلغاء وثائق شرعية كثيرة، كما بعثر إن لم نقل أُلّف سجلات كثيرة من سجلات محاكم دمشق، ولكثرة تجاوزاته عزل بأمر سلطاني وأعدم، ولم يفده تدخل شيخ الإسلام لتخفيف العقوبة من الإعدام إلى السجن^(٤).

(٢) قابي قول Kapı Kul، عبيد الباب، وقد شكل هذا التنظيم جوهر الإنكشارية، وكانوا في بادئ الأمر حراساً للسلطان، ولكنهم، أفرزهم إلى التشكيلات العسكرية العثمانية، أوغلو، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(٢) عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية اجتماعية في بلاد الشام، دمشق ٢٠٠٢، ص ١٠٨.

(٣) Ismail Hakı, şam vilayet, istanbul. 1981. s. 167 وأيضاً ابن جمعة، ولاية دمشق في العهد العثماني، جمعها صلاح المنجد، دمشق ١٩٤٩ ص ٥٢.

(٤) الأوامر الهمايونية، رقم ٣١١، صادر عن السلطان أحمد الثاني، الذي أمر بإعدام نصوح باشا بدعوى أنه تجاوز الشرع الشريف.

إن البحث المتواصل أسهم في العثور على بعض السجلات المسماة تصنيفاً مشوش دفترى، وهذه السجلات قسمت البحث إلى فترتين: الأولى شكلت بداية البحث، والثانية نهايته، وفي الفترة الأولى لم يعثر على السنوات الخمس من البحث فأقمنا موازنة وثائقية اعتمدنا فيها على القياس، وبالرجوع إلى المصادر العثمانية لتغطيتها تاريخياً، وقد أسعف البحث بالسجلات المشوشة، لكن اضطراب الوثائق ومحتوياتها، حتم علينا عدم الاطلاع على الأحداث المهمة المتعلقة بالوالي وهيئته الإدارية، فضلاً عن ذلك، فإن هذه السنوات الخمس لم تحدث فيها أحداث مرعبة، لأن مرحلة السلطان سليمان الثاني ١٦٨٧-١٦٩١ وأحمد الثاني ١٦٩١-١٦٩٥ كانا في حلٍ من الإدارة لأن نساءهم مع الصدر الأعظم أداروا السلطنة فعدت سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠م ممثلة لسنوات ١٠٩٠ و ١٠٨٩ و ١٠٨٨ و ١٠٨٧ و ١٠٨٦ هـ، أما الفترة الثانية للبحث فتمتد من ١١٠٧-١١١٢ هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م^(١).

ومن الملاحظ أن الفوضى ظاهرة في أحيان كثيرة، ولا سيما في ترتيب الوثائق في السجل الواحد^(٢). فنرى وثيقة ما تُسجل في بداية سجل عام ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣م في حين نلاحظ في آخر السجل وثيقة أخرى، تسجل في عام ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢م وهكذا.

وقد لاحظنا ظاهرة أخرى في تسجيل الوثائق، إذ يبدو تاريخ تسجيل هذه الوثائق يوم الجمعة^(٣)، ولم نفهم ما المقصود من تسجيل هذه الوثائق يوم الجمعة، فوقفنا أمام احتمالين، إما أن تكون المحاكم تُفتح يوم جمعة ويداوم القضاة والكتبة، وهذا احتمال غير وارد، لأن الدولة العثمانية دولة إسلامية وسلطانها أمير المؤمنين وحامي ديار المسلمين، وإما أن يكون الأذنة يأخذون هذه السجلات إلى منازل الكتبة فيقوم الكاتب بتدوين أو تسجيل الوثائق، وهذا يعني أن العقلاء كانوا يسعون للتلاعب بالأحكام الصادرة، وإذا لم يكن لا

(١) سجلات المحكمة الشرعية بدمشق، من رقم ٥-١١، وفيها أحداث تاريخية مهمة.

(٢) السجل ١٢ وثيقة ٨ ص ٣، تاريخ ٢٠ محرم ١٠٩٤ هـ الثلاثاء ١٩ كانون الثاني ١٦٨٣، وأيضاً السجل نفسه وثيقة ٨٠، ٥ ذي الحجة ١٠٩٣ هـ السبت ٥ كانون الأول ١٦٨٢م ص ٣٤.

(٣) سجل رقم ١٣ وثيقة ٨٧ ص ٢١٢.

هذا ولا ذاك فإن الكتب وبأمر من القضاة يسجلون جلسات المحاكم في يوم الجمعة، وقد أكد خليل ساحلي أوغلو اتجاه تسجيل أو التبييض يوم الجمعة^(١).

ولتأكيد الأحداث، فإننا سنقدم جدولاً بالسجلات التي تم الاعتماد عليها، فضلاً عن التأكيد على أن قسماً من هذه السجلات تآكلت في معظم صفحاتها، وبعضها الآخر ممزق بسبب كثرة الاستعمال من قبل الباحثين ورواد العلم، ولم يكن الخط سيء القراءة، ولكن الأمر يحتاج إلى مثابرة وممارسة مستمرة، ومن الجدير بالذكر فإن الكتب لم يكونوا على علم بالعربية فتري العجب في الكتابة، وليس هناك مراعاة لا للتذكير ولا التأنيث وغيرها من الأصول القواعدية، كما أن العفن في الأقبية أكل منها حيزاً لا بأس به، فآثرنا قبول الواقع كما هو، ولهذا فإن قراءتنا للوثائق لم تبيح لنا التدخل في تصحيح الأخطاء اللغوية الواردة في ثنايا الوثيقة، فتركناها كما هي، ولربما يمكن للمتخصصين منهم الأخطاء وتقييم الأحداث من خلالها للحكم على عدم اهتمام ولاية الأمر بالعلم، وتشجيع الطلاب على العلم، كما يفهم أن من يحسن القراءة والكتابة كان من علية القوم، ولربما يعمل كاتباً لدى القضاة وهذه نعمة هبطت عليه من السماء كما تذكر بعض السجلات في ثنايا الوثائق التي قلبناها كثيراً.

ولتأكيد مأساة قراءة الوثائق من جهة والنعمة الكبرى في آن معاً، أرغم البحث بالاعتماد على وثائق مضطربة ومشوشة، انسجماً مع واقع السجلات لربما يكون فيها حكمة علمية قد لا تعاد ثانية.

إذا كانت الوثائق عماد البحث فإن المصادر والمراجع شكلت الإطار الجمالي له، لأن بعض الباحثين ممن كتبوا عن دمشق، كتبوا للتاريخ وبعضهم كتب من أجل الكتابة، وما تبقى كتب لغرض في نفس يعقوب، ولا علاقة للبحث بنوايا الكتاب، فاضطر البحث للأخذ حيناً والتحليل حيناً آخر، لا عطفاً ولا مجاملة وإنما علم بعلم.

بهذه المنهجية الوثائقية تم إنجاز بحث لا بداية لوثائقه ولا نهاية، وليس هناك من جمالية ترافقه أجمل من جمالية الوثائق التي أهلت البحث وهيئت له القول إن البحث الذي تم إعداده من خلال الوثائق سهل ممتنع لا بداية له ولا نهاية، ولم تكن الوثائق وحدها

(١) خليل ساحلي أوغلو، أستاذ التاريخ الاقتصادي بجامعة استانبول، وهو من مواليد اسكندرونة، وزميل المناضل زكي الأرسوزي. مذكرات زكي الأرسوزي، جمعها أحمد زريق، دمشق ١٩٩٦.

قادرة على استكمال الصورة عن الواقع العمراني والإداري والاقتصادي والاجتماعي لدمشق خلال الفترة الزمنية المحددة للمعالجة، وقد استمرت الدراسة قرابة عقدين ما بين دفتر وسجل ووثيقة ومصدر ومرجع، وانتهى المطاف إلى قبول واقع حتمته المساحة الزمنية التي أوشكت على الانتهاء بسبب تكاسلي المقيت وبين مطرقة الأستاذ المشرف الذي يريد التخلص من سجلات الوثائق التي كنت أجالسه للوصول إلى نتيجة.

إن البحث رغم ما به من ثغرات ووثائقية قد تحول دون الحصول على ما يوازي الجهد، فأعود من جديد إلى السجلات والمصادر والمراجع أقلب هذا وأقرأ بذاك، والنتيجة ذاتها، ووثائق لا تفصل ما بين الاجتماع والاقتصاد وأخرى لا تقبل أن تقدم وصفاً عن عمران شيدته حكام تلك المرحلة على أرض دمشق، وكل ما ذكرته بيع واستجار ووقف لمدرسة أو لجامع.

من الصعب جداً قراءة دمشق من خلال وثائق أحادية الجانب، فالصورة لا تكتمل إلا إذا تم قراءة ما تقوله الوثائق المتراكمة في المحكمة الشرعية في استانبول لأن ما أقره القاضي الحنفي أو المالكي في دمشق، قد تحتج عليه دائرة القضاء في استانبول.

هناك مئات السجلات ومعظمها يضم كل سجل كحد أدنى ١٥٠ وثيقة، وهذه الوثائق غير منتظمة من مختلف الجوانب، فمرة تراها تعالج وفقاً خيراً أو ذرياً ومرة أخرى تعالج مسألة الحمامات أو الخانات أو بيع... الخ، وهذا يفرض تتبع قضية ما من سجل إلى سجل لنكوين نتيجة يستطيع القارئ أن يثق بصحتها.

فمثلاً في مشوش دفترى رقم ١٧٥ الوثيقة ٩٦ ص ٣٣ تشير إلى أن القاضي المالكي حكم أو قضى على علي بن عبد الله وأحمد بشر بن عبد الله.... ويلاحظ في هذه الوثيقة أنها لا تعالج أي شيء يتعلق بدمشق.

جهد كبير تستغرقه المعلومة لصياغتها وتحليلها ومن ثم الذهاب إلى المكان الذي ذكرته الوثيقة للتأكد من المعلومة التي أوردتها ووثائق هذا السجل أو الدفتر.

لن يقال إن كثرة الوثائق المدونة داخل السجلات هي التي حالت دون الانتهاء من إعداد البحث الذي استغرق زمناً قد أخجل من ذكره، ولكنه التلكؤ الذي اعتراني، وكان للوثائق الدور الأكبر في عدم إتمام هذه المسيرة العلمية التي كافحت بإخلاص لتحقيقها.

إن الدراستي بنيت أصلاً على وثائق سجلات المحكمة الشرعية بدمشق، فضلاً عن حصولي على بعض من سجلات استانبول، وقد بلغ عدد السجلات التي اعتمدت عليها قرابة ستين سجلاً بدءاً من سجل رقم ١١٧ وانتهاء بالسجل ١٧٨ سجلاً وقد أهملنا ثلاثة سجلات لكونها تعالج أحداثاً خارج فترة دراستي. وأكثر ما واجهني من سجلات هي سجلات الأوقاف التي بلغت أعدادها أكثر من ٤٠ سجلاً، وإنني أقف مع رفع أكف الدعاء للسيدة الدكتورة دعد الحكيم التي أجازت لي تصوير ما أريد من وثائق.

لقد انصرف البحث إلى قراءة المصادر مثل عبد الرحمن بن بشاشو وابن بطوطة وابن خلكان وابن شداد وابن طولون ومؤلفات الستة ووقفت كثيراً أمام كتابة مفاكهة الخلان والقلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية وكتابه حارات دمشق القديمة، ثم على مدونات ابن عابدين وابن عبد الهادي ولا سيما مؤلفه غدق الأفكار في ذكر الأنهار، وعشرات المصادر غيره، كما تم إعداد جداول منظمة حسب تاريخ كل حالة اجتماعية وعمرانية، وأفردت جداول للولادة، وقدمت إلى الأستاذ المشرف الذي شجع على إنجاز هذا العمل العلمي وطلب الانصراف إلى الكتابة، ورجوته أن يكون فصل العمران كتلة واحدة ووثائقاً، فقبل عملي على خجل، لكنه أذهلني عندما رمى الجداول على جنب قائلاً وبلهجة لا تخلو من ضحك مفتعل، اكتب بقية الفصول من المراجع، لأن الوثائق لغتها قاسية وسنوات بحثك ضاعت ما بين مؤلفات الحداثة والمؤلفات الأخرى، فاضطرت إلى تنفيذ رغبته بالاعتماد على ما كتب عن دمشق تماشياً مع العصر ومتطلباته، فأحداث القرن العشرين غير ملائمة لأحداث القرن الحادي والعشرين، وبهذه الصورة التجاذبية ما بين الوثائق والمصادر والمراجع عاش بحث عدته بحث الخضرمية العلمية أو بحث الخضرمية القيصريّة.

لن أقول إنني ظلمت ولن أقول إنني ربحت، وقد أثبتت التجارب أن قراءة أستاذي المشرف للعصر ومتطلباته كانت أكثر نجاحاً من قراءتي لأحداث أردت إنجازها من وثائق المحكمة الشرعية، ولن أنسى مقولته لي الوثائق للتذوق العلمي ولتأكيد الشهادة وتثبيت الأحداث، وما عدا ذلك، فلا يمكن اللجوء إليها.

إن البحث المعنون دمشق دراسة عمرانية إدارية اقتصادية اجتماعية من خلال سجلات المحاكم الشرعية بدمشق ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م، وضعت لبننتها الرئيسة برؤية من الدكتور عبد الكريم رافق وتصديق الدكتورة خيرية قاسمية وإشراف محمد خير فارس رحمه الله، وهذه الدراسة الوثائقية تعود إلى البدايات الأولى لاستخدام سجلات المحاكم الشرعية، فرقم سجلنا الأول هو سجل رقم ٥/ وفي هذه الفترة تأكدت وتجسدت مظاهر الضعف العثماني في شتى المجالات، فاضطررنا إلى دراسة تلك المرحلة ولا سيما من الناحية الإدارية لتتأكد من أن الضعف المتنامي انعكس سلباً على واقع دمشق، فضلاً على أن واقعها يتسبب في عدم الرؤية ما لم تكن القوة الضابطة للأمر قادرة على اجتثاث أي فوضى ومن أي طرف تسبب لها، هذه التساؤلات حتمت علينا تقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

في المقدمة، استعرضنا خفايا السجلات الوثائقية والاضطراب الحاصل فيها، والشقاء الذي تقرر ملازمته حياً بإنجاز بحث وثائقي عن دمشق.

أما الفصل الأول، فلقد تمت معالجة المظاهر العمرانية تاركين للوثائق سرد أحداث دمشق وما يحيط بها من أزقة وقرى، تعطينا ما لديها من جهد اجتماعياً، فتدرد عليهم دمشق بعزة المدينة الصامدة أمام غزاتها والأم التي تقدم تراثاً اجتماعياً لا ينضب. كما تم استعراض عقود البيع والشراء والاستئجار، وما تدره تلك الأماكن والمحال من خيارات على القوى الاجتماعية التي تلازمت فيما بينها بعلاقات متعددة تصونها عادات وتقاليد أصلية وتزهو على جنباتها أمجاد ماضٍ بعيد وتستقبل تطلعات وأحداث مستقبل قادم.

أما الفصل الثاني، فلقد قدمنا له بلمحات موسعة عن سلاطين بني عثمان لفترة البحث، ثم انتقلنا إلى تقديم وصف عن بعض الصدور العظام وعن الولاة والإداريين الذين أعطوا دمشق إدارة مباشرة وغير مباشرة، والدور الذي أداه الدفتردار، وما الديوان ومدى علاقة دمشق به، ثم أشرنا إلى قضاة المذاهب استكمالاً لدراسة الواقع الإداري لمدينة دمشق، وأكدنا ذلك بجداول عن القضاة التي وردت أسماؤهم في الوثائق لفترة دراستنا، ثم

تطرقنا إلى القوات العسكرية بكل أصنافها قاصدين قراءة الخلل الإداري للدولة العثمانية خلال فترة البحث.

في حين تطرق **الفصل الثالث** إلى الواقع الاقتصادي ، ولهذا عمدنا إلى قراءة المصادر والمراجع التي قدمت معلومات اقتصادية عن دمشق، وبما أن القناعة كانت تواجه تساؤلات عن الواقع الاقتصادي لمدينة دمشق عمدنا إلى الوثائق تاركين لها حرية التعبير، ولكن هذا عرضنا إلى تشابك في الوثائق التي تناولت أحداثاً عدة.

أما **الفصل الرابع**، فقد عالج الحياة الاجتماعية، مركزاً أحداث الدراسة على المظاهر الدينية والثقافية والخدمية، ثم عالج الواقع الاجتماعي ولا سيما النساء من ملابس ومأكّل وحجاب، والتباين في النظرة إلى المرأة، ثم انتقلت الدراسة إلى دراسة أهل الذمة من مسيحيين ويهود، وعرضنا مختلف الانقسامات التي تعرضت لها المسيحية، واختتمت الدراسة باليهود واقع ومعاش وزواج، واختتمت فصول الدراسة الأربع بخاتمة لربما قدمت نتائج شبه واقعية عن مدينة دمشق خلال هذه الدراسة التي استمرت قرابة ربع قرن من القرن السابع عشر.

إن مسيرة الدراسة الوثائقية كانت مسيرة قلق واضطراب وتساؤل غير مسؤول من قبل الوثائق التي ما انفكت تقدم أصواتاً متشابهة في إطارها العام، لكنها مختلفة في الأسباب. ولهذا لم أتمكن من ضبط الفصول من حيث كمية الوثائق ولا حتمية الأحداث ولا الصفحات، وأرغمت الدراسة على عدم تعدد فقرات رئيسة في المحاور.

ختاماً أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الذي هوّن عليّ تفسير بعض المصطلحات العثمانية، وحدّ من اندفاعي في الغوص أكثر في أكوام الوثائق والدفاتر الشرعية التي تغص بها دار المحاكم الشرعية في دمشق، وأتوجه بالشكر أيضاً إلى الكادر العلمي والوظيفي العامل في الدار، لقد قدموا لي خدمة جلى، وأجازوا لي تصوير بعض الدفاتر، وسوف أكتفي بوضع عدة وثائق في ملحق في نهاية رسالة البحث كنموذج، ولن أشير إلى الصعوبات التي تكتنف الدراسة ولا الجهد المفروض عليّ السعي وراءه للتحقق من الأحداث وتطبيقها أو عدمه.

وإلى السادة أعضاء قسم التاريخ، والزملاء الذين تركوني أعاني مأساة كسل
مصطنع حتى تاريخه لم أجد مسوغاً له. وبتواضع جم أتضرع إلى الله عز وجل أن يفيض
رحمته وبركاته على أستاذي المرحوم محمد خير فارس وعلى السيدة الفاضلة رحمها الله
دعد الحكيم.

والله ولي النصر والتوفيق.

الفصل الأول

المظاهر العمرانية لمدينة دمشق

- ١- لمحة تاريخية عن مدينة دمشق.
- ٢- الأزقة وتسمياتها.
- ٣- قرى دمشق .
- ٤- نماذج وثائقية مع جدول بالسجلات ووثائقها.
- ٥- عقود البيع والشراء والاستئجار .
- ٦- الدور المشتراة.
- ٧- الشهود في الوثائق.

١ - لمحة تاريخية عن مدينة دمشق^(*):

كانت دمشق قبل فترة البحث وبعده مركزاً لقافلة الحج الشامي، وقد أدت تجمعات الحجيج فيها إلى زيادة الحركة الاجتماعية والاقتصادية، وتعدّ فترة دراستنا لدمشق خلال العهد العثماني الأول الذي يمتد من بداية الحكم العثماني ١٥١٦ حتى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٨٩ فترة تولي سليم الثالث، في حين يمتد العصر العثماني الثاني من ١٧٨٩ - ١٩١٨، حيث تجسد فعلياً بخروج العثمانيين من سورية^(١).

لقد تعددت الآراء بشأن دمشق ولا سيما بتفسير اسمها، فياقوت الحموي في معجمه وضّح الآتي: «سميت بذلك لأنها دمشقوا في بنائها، أي أسرعوا، وناقّة دمشق، بفتح الدال وسكون الميم، سريعة، وناقّة دمشق اللحم: خفيفة»^(٢)، وقيل إن الروم قالوا: (مسكوس) أي مسك مضاعف وذلك لطبيعتها، ثم عربت فعرفت باسم دمشق، وكان العرب الآراميون يسمونها (درمسوق) أي درمشق أي (حصن دمشق)، ومعناها الأرض المسقية^(٣)، والتسمية الأخيرة هي أكثر تسميات دمشق قبلاً وصحة، وقرباً من الواقع، لأن العرب الآراميين هم

(*) لقد تعددت الكتابات التاريخية، وقد آثرت أن أتحدث عنها بما تسعفني المصادر والمراجع، فضلاً على أن هناك مصادر ومراجع مهمة، وأعتذر عن هذا التمهيد لعلمي بأنني لن أقدم جديداً ولكن الجميع نصحني بتقديم لمحة تاريخية عن دمشق، فعملت برأي الغالبية. (الباحث)

(١) تباينت الآراء ما بين المؤرخين، بعضهم يطلق عليهم حكم وبعضهم الآخر احتلال، والحق يقال مصطلح السيطرة ينسجم مع الواقع التاريخي آنذاك. (الباحث)

(٢) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، واشتهر مؤلفه لدى معظم الكتاب والمؤرخين ياقوت الحموي) معجم البلدان ج ٤، ص ٤٦٣.

(٣) بشير زهدي، دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور، سلسلة محاضرات لجمعية أصدقاء دمشق، ص ٥.

الذين دمشقوا بناءها بالإضافة إلى أن مركب (دار مشقي) لا يحتمل إلا تفسيراً واحداً هو «الديار المسقية» والواقع أن التعبير ينطبق على دمشق وغطتها منذ أقدم الأزمنة^(١).

كانت دمشق خلال فترة الدراسة (١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م) محاطة بسورها التاريخي، ولها تسعة أبواب، ففي الشرق باب شرقي، وفي الغرب باب الجابية، وباب النصر، وفي الجنوب باب كيسان، والباب الصغير، وفي الشمال باب توما، وباب السلام، وباب الفراديس، وباب الفرج، ولا تزال كل هذه الأبواب باقية ما عدا باب النصر الذي كان في مدخل سوق الحميدية، وهدم عام ١٩٦٣م^(٢)، وفي العهد الروماني، لم يكن باب النصر وباب الفرج موجودين، ولنتعرف الآن على بعض أبواب دمشق التي ذكرتها الوثائق:

١ - باب شرقي: سمي بذلك لأنه شرقي البلد، وعليه نزل خالد بن الوليد الذي فتح دمشق عنوة كما قيل. وكان له شأن أيام الرومان، ويتألف من ثلاثة أبواب: باب ضخم في الوسط وبابان صغيران على جانبيه وقد بني هذا الباب أيام الرومان في السنوات الأواخر من القرن الثاني للميلاد، وهو الباب الذي بقي إلى يومنا هذا كما تركه الرومانيون فله قيمة تاريخية كبرى^(٣).

٢ - باب توما: من الأبواب السبعة الأصلية للمدينة القديمة، بناه الرومان، ويميل الظن أنهم شيدوه على أنقاض الباب اليوناني، ولا يمكن الجزم بذلك، وأن هذا الأخير ربما أقيم على أنقاض الباب الآرامي الأسبق كذلك لا يمكن التأكيد أو النفي، ونسب هذا الباب لكوكب الزهرة تيمناً وتباركاً، ونحتوا فوق الباب نقشاً حجرياً بارزاً لصورة ذلك الكوكب الذي تم تمثله في معتقداتهم وعباداتهم (آلهة الحب والجمال والتوالد)

(١) عبد الله الحلو، تحقیقات تاریخیة فی الأسماء الجغرافیة السوریة، استناداً للجغرافیین العرب، ص ٢٥٧.

(٢) عبد القادر ربحاوي، مدينة دمشق ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ١٤٥.

(٣) محمد بن عیسی بن کنان الصالحی الدمشقی، المواكب الإسلامیة فی الممالك والمحاسن الشامیة، ١٠٧٤-١١٥٣هـ/١٦٦٣-١٧٤٠م القسم الأول، تحقیق ودراسة حکمت إسماعیل، مراجعة محمد المصری، منشورات وزارة الثقافة فی ج.ع.س. دمشق ١٩٩٢، ص ٢٠٩.

«أفروديت» ومعناها باليونانية الوردية الفرحة، وعندما تحولت دولة الرومان إلى المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول، وأصبحت تعرف بالدولة البيزنطية تغيرت أسماء أبواب دمشق، وكان نصيب باب توما أن نسب إلى توما الرسول أحد حوارى السيد المسيح وليس إلى البطريق توما صهر هرقل وزوج ابنته كما يزعم بعض الباحثين^(١).

٣ - باب الجابية: ينسب إلى قرية الجابية في حوران، حيث إن الخارج إليها كان يخرج منه، بُني بالحجارة الضخمة، وكان له شأن كشأن الباب الشرقي أيام الرومان، وكان يتألف من ثلاثة أبواب، بابين صغيرين على الجانبين وأوسط كبير ضخم، وكان يمتد من الأبواب الثلاثة ثلاثة أسواق إلى الباب الشرقي، الأوسط وهو الكبير للناس، أما البابان الصغيران على الجانبين، فأحدهما لمن يشرق بدابته، والآخر لمن يغرب، وقد سدّ الباب الكبير والصغير الشمالي وبقي الجنوبي الصغير، ومن هذا الباب دخل أبو عبيدة الجراح، وقد أعيد بناؤه زمن نور الدين الزنكي، وكان لهذا الباب باشورة صغيرة «سويقة» وكان مكرساً لكوكب المشتري أيام الرومان^(٢).

٤ - باب الشاغور الجواني: هو الباب الصغير من الأبواب الرئيسية السبعة لمدينة دمشق القديمة، بناه الرومان، وقيل: شيدوه على أنقاض الباب اليوناني، ولا يمكن الجزم إن كان هذا أيضاً قد شيد على أنقاض الباب الآرامي الأسبق، وأطلق عليه العرب بعد الفتح الباب الصغير لأنه كان أصغر أبواب المدينة، وعرف بالعهد العثماني أيضاً باسم باب الحديد لأنه كان مدعماً بصفائح الحديد، كما تسميه العامة باب الشاغور

(١) قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، بحث ميداني بعدسة المؤلف، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٦، ص ٩٣-٩٥. كارل ولتسنجر، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، تعريب قاسم طوير، تعليق عبد الله الريحاني، دمشق ١٩٨٧، ص ١٢٠.

(٢) صلاح الدين المنجد، دمشق القديمة، أسوارها، أبراجها، أبوابها، دمشق ١٩٤٥م، ص ٥٣.

لأنه يفضي إلى حي الشاغور، داخل السور، وعلى هذا الباب نزل يزيد بن أبي سفيان عندما حاصر العرب المسلمون دمشق، وقد جدّد هذا الباب في العهد الأيوبي^(١).

٥ - باب الفرج: كان الناس يتفعلون بهذا الباب خيراً، أقامه نور الدين الزنكي في الجهة الشمالية من دمشق، وجدّد أيام سيف الدين بن أبي بكر بن أيوب سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، ويسمى باب الفرج أيضاً باب المناخ، يقع بين العسرونية والمناخية، وهو باب مزدوج، الداخلي منه حذاء السور، وبين الباب الداخلي والخارجي باشورة^(٢).

٦ - باب الفراديس: هو غربي البلد، أنشأه الملك الظاهر غياث الدين غازي وبني عليه أبرجة عالية حصينة، وهو مزدوج، الباب الخارجي منه يعود إلى القرن الثالث عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، والباب الداخلي يعود إلى القرن الخامس عشر الهجري/أواخر القرن العشرين الميلادي، ويسمى باب العمارة وهو في سوق العمارة الممتد على جامع بني أمية، ومنسوب إلى محلة كانت خارج البلد من شماليها تسمى الفراديس، وهو باب متين بالقرب من نهر بردى^(٣).

إن الأبواب الستة الماضية التي توسعنا في شرحها هي الأبواب التي ذكرتها وثائق المحاكم الشرعية التي اعتمدنا عليها في بحثنا^(٤).

(١) محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد (المرادي) عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، ومعه ذيلان، الأول المفتون من سنة ٩٢٢هـ إلى سنة ١٣٠٥هـ والثاني المفتون من سنة ١٣٠٥-١٣٩٩هـ تحقيق محمد مطيع الحافظ، رياض عبد الحميد مراد، مطبعة زيد بن ثابت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٦٣. المحبي.

(٢) المنجد، دمشق القديمة أسوارها، أبراجها، أبوابها، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٣) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق زكريا يحيى زكريا، دمشق ١٩٩١، ص ٧٤.

(٤) س ١ مشوش، وثيقة ٧٧٦، ص ٣١٢، س ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٤، ص ١٣٣، وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧. س ٢ مشوش، وثيقة ٢٩٢، ص ١٥٤، س ٣ مشوش، وثيقة ٤٦٣، ص ١٨٠.

وكان سور دمشق مستطيلاً طوله ١٥٠٠ م وعرضه ٧٥٠ م ويجمع مساحة ١٠٥ هكتارات^(١)، ويذهب بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق في القرن السابع عشر إلى القول بأن دمشق كانت محاطة بسورين، الأول سور متين يبلغ ارتفاعه ٣٠/ ذراعاً، وسور آخر يبعد عن الأول ١٥-١٦ ذراعاً ويزيد عنه ارتفاعاً عشرة أذرع، والسوران محصّتان وتقوم عليهما أبراج مستديرة كبيرة، وحول السورين خندقان، داخلي، وخارجي^(٢) ويجمع مساحة ١٠٥ (هكتارات)^(٣) هذا (ولم يتغير مخطط السور منذ القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وهو السور نفسه الذي لا يزال باقياً في جادة الفرائيين، إن السور القديم في الجانب الشمالي للمدينة استمر محاذياً نهر العقرباني، ولقد طرأ تغيير وحيد على هذا السور خلال العصور الوسطى في منتصف القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد وهو إنشاء سور المدينة الجديد أمام نهر العقرباني على القناة الرئيسة لنهر بردى بين باب الفرج وباب السلام)^(٤)، وقد استطاعت دمشق بأسوارها من مجابهة الغزاة، وفي الوقت نفسه صمدت حيال الحصار التي فرضت عليها.

وفي الجداول الآتية سنشاهد المحال والأزقة والأسواق والشوارع والساحات والدخلات كمواقع لعمليات البيع والشراء والاستتجار بدمشق من خلال وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق خلال الفترة الأولى ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م وهي فترة بداية البحث، والفترة الثانية ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م وهي فترة نهاية البحث.

(١) جان سوفاجيه، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) الفارس دارقيو، وصف دمشق، مذكرات رحالة فرنسي، ترجمة وتعليق أحمد إيبش، دار المأمون، ط ١، ١٩٨٢، ص ٢٥-٢٧.

(٣) جان سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة وحتى العصر الأخير، ط ١، ١٩٨٩، ص ٤٥.

(٤) قتيبة الشهابي، أبواب دمشق، مرجع سابق، ص ٧٢.

إن المحلات التي ذكرتها الوثائق بلغت (٥١) إحدى وخمسين وثيقة وعدّت الصالحة وبيت لهما كمحلتين ملحقين بدمشق علماً أن الوثائق عدّتهما قريتين. وسنبداً بسرد هذه المحلات حسب ورودها في الجدول، لأن الجداول قد تعطي صورة شبه واضحة، فمن خلالها يمكن قراءة الأسواق والأزقة، وقد يبدو للقارئ أن الأسواق خلت من الحياة، بل على العكس، فسند وثائق أطنبت كثيراً في تكرار بعض الأسواق، وهذا دليل على النشاط الاقتصادي الذي حظيت به آنذاك.

جدول يبين المحال والأزقة والأسواق والشوارع والساحات والدخلات كموقع لعمليات البيع والشراء والاستئجار بدمشق من خلال وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق خلال الفترة ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م

اسم المحلة	اسم الزقاق	اسم السوق	اسم الشارع	اسم الساحة	اسم الدخلة	عدد المرات الوارد ذكرها
باب شرقي	المسك الجواني					١
القيبات	بني نصير الجمال					٥
النصارى	القبو + ماهر حنانيا + القصب فستيق					٧
داخل باب الفرع محلة باب الفرع						٢
العقبة الكبرى						٣
الحسودية						١
القاعة	العقباتي					١
الخاطب	المغاربة					٢
تلة الحراث						١
الشنباشية						١
					دخلة باب شرقي	
باب مصلى	بادر					١
اليهود						٣
جامع الأحمر						١
باب الجابية	الخشب + بين السورين السنجدار + درب + زقاق حسن باشا					٦
السويقة المحروقة	سيدي الشيخ علي البريدي					٢
باب السريجة	الخطيب + المعلم					٢
القرارين						١
الخراب	تلة الحراث	سوق الخراب				٣

اسم المحلة	اسم الزقاق	اسم السوق	اسم الشارع	اسم الساحة	اسم الدخلة	عدد المرات الوارد ذكرها	
سوق صاروجا	فاقر					٢	ورد بالوثيقة : ساروجا
سويقة صاروجا	قولي ^(١)					٢	وردت بالسين وليس بالصاد (ساروجا)
سويقة صاروجا	المقام					٢	في إحدى الوثائق ورد خارج باب توما
تحت القلعة						٣	
داخل قلعة دمشق						٣	بالقرب من مدق البارود
داخل باب الشاغور الجواني	الشماع + الشارع الزلاقة					٦	وتسمى الشاغور الجواني وتكرر زقاق الشماع
الشيخ زنكي			بشارع سويقة صاروجا			١	وردت بالوثيقة محلة الشيخ زنكي
محلة السيدة رابعة						١	تابعة الشلاحة
الجديدة	السودان					١	
الميدان	القبة البيضاء العسكري			الزفتية		٤	وردت دون تحديد أي ميدان - تكرر زقاق القبة البيضاء
محلة الجرن الأسود							بالعقيبة الكبرى
	زقاق البريدي + رالي قص حجاج + المعاصر						في هذه الوثيقة ذكرت الأربعة الأربعة دون ذكر المحلة ^(٢)
القتوات	العداس		السلطاني			٤	خارج باب الجابية
البريدي					دخلة الصادرية	٢	وفي إحدى الوثائق وردت محلة باب البريدي ^(٣)

(١) ورد زقاق قولي في إحدى الوثائق مفرداً دون أن يلحق بمحلة . انظر: س ٢٣ مشوش، ص ٣٧، وثيقة ١٠٢.

(٢) انظر: س ٢٣، وثيقة ٣٩، ص ٢٦.

(٣) انظر: س ٢ مشوش، وثيقة ٢٦٢، ص ١٤١.

اسم المحلة	اسم الزقاق	اسم السوق	اسم الشارع	اسم الساحة	اسم الدخلة	عدد المرات الوارد ذكرها	
الأحمدية							
	الجتز فيل وتكرر ذكر الزقاق						جاء ذكر زقاق الجتز فيل هنا مستقلاً دون أن تلحقه الوثائق بمحلة ما
محلة قبر السيدة عائكة	باجو+طالع الجمعة العيسىين					٣	
مرجة دمشق						٢	
	المليحي						جاء ذكر هذا الزقاق مفرداً دون أن يلحق بمحلة
	سيف الدين						جاء هذا الزقاق أيضاً مفرداً
محلة باب البريد	البيمارستان النوري				دخلة بني البصري	٢	
محلة البادرانية					الدخلة غير النافذة	١	
العمارة						١	
محلة باب الخضرا						١	
محلة الصادية						١	بالقرب من الجامع الأموي
الشاغور البراني						٧	
الشويكة						١	
محلة الملك الظاهر						١	داخل بوابة الرباط
محلة حكر كمال الدين						١	خارج باب الفراديس
القباقبية	بني كريم الدين					١	
محلة بين المدارس						٢	قرب باب البريد
محلة باب الفراديس						١	
باطن دمشق بالقرب من البادرانية						٢	
		سوق الدرويشية				١	

اسم المحلة	اسم الزقاق	اسم السوق	اسم الشارع	اسم الساحة	اسم الدخلة	عدد المرات الوارد ذكرها	
		سوق اليزوريين				١	ورد هذا السوق مفرداً دون إلحاقه بمحلة
	زقاق السياس					١	قرب دار السعادة ورد مفرداً أيضاً دون إلحاقه بمحلة
محلية عين الملك						١	بصالحية دمشق ^(١)
صالحية دمشق	حمام المقدم					٢	

بيّن جدول المحال والأزقة والأسواق والشوارع والساحات والدخلات كمواقع لعمليات البيع والشراء والاستئجار بدمشق، من خلال وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق خلال الفترة ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م، كما تحدث عن بعض المحلات:

١ - محلة باب الشرقي: وقد تحدثنا سابقاً عن باب شرقي، وقد سميت المنطقة المحيطة به محلة باب شرقي، أو داخل باب شرقي.

٢ - محلة القبيبات: هي ما يطلق عليها الآن الميدان الفوقاني، وكانت قديماً تعدّ من قرى دمشق، ولا تزال فيها حارة تدعي بالقبيبات لأنها بنيت بالقباب على طريقة القرى التي بين حماة وحلب، وجامع الدقاق المسمى قديماً بالجامع الكريمي أنشئ في قرية القبيبات^(٢).

٣ - محلة النصاري: تشغل مع عدد آخر من المحلات الزاوية الشمالية الشرقية من دمشق القديمة^(٣).

-
- (١) عدّت الصالحية محلة من محال دمشق على الرغم من أنها كانت تعدّ قرية في فترة البحث.
(٢) محمد بن طولون الصالحي الدمشقي، أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٤٤.

Abdul Karim Rafeq. The province of Damascus p. 78.

Brgitte Marina. La Gounour du Midan A Damas À époque ottoman space vrbain société et hafotat. 1742-1830. preface de Anderay naue. Damas. 1997. p. 80. 96. 182. 269.

- (٣) أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٦٣.

محمد بن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، القاهرة ١٩٦٤، ص ١٢٢.

٤ - محلة: داخل باب الفرّج (باب الفرّج) تحدثنا سابقاً عن باب الفرّج، وتسمى المنطقة المحيطة به أيضاً محلة باب الفرّج.

٥ - محلة الصادرة بالقرب من الجامع الأموي^(١).

لم يكن كتبة الوثائق دقيقين في تسمية الحارات أو المحلات فمن الواضح أنهم سمّوا (محلة الصادرة) المنطقة المحيطة بمدرسة الصادرة، وهي أول مدرسة فقهية بدمشق، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، وهي ليست أقدم مدرسة في دمشق كما يظن، لأن الرشائية أقدم منها بأكثر من تسعين عاماً وكذلك خانقاه دويرة حمد وعلى ذلك فهي ثالث صرح تعليمي مستقل. وأول مدسة تحمل هذا الاسم، وهي على باب الجامع الأموي مما يلي باب الحديد^(٢).

٦ - محلة سويقة صاروجا (ساروجا)، على طريق الصالحية، متصلة بحي الشهداء الآن وسوق صاروجا^(٣).

٧ - محلة جامع الأحمر: عدّها كتبة الوثائق في سجلات المحاكم الشرعية محلة، حتى إن الباحثين كوليت ستابلت، وجان بول باسكوال في بحثهما القيم عن العائلات الدمشقية من خلال (٤٥٠) وثيقة من مخلفات عام (١٧٠٠) عدّها محلة، ولكن يبدو أن إطلاق تسمية محلة الجامع الأحمر غير دقيقة، فالمنطقة حارة اليهود حيث يوجد الجامع الأحمر^(٤).

(١) أكرم حسن العلي، خطط دمشق، دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام من سنة ٤٠٠ هـ حتى سنة ١٤٠٠ هـ لدور القرآن والحديث والمدارس والبيمارستانات والجوامع الكبرى والخوانق والربط والزوايا والأسواق والخانات والحمامات والدروب، ط ١، ١٤١٠، ١٩٨٩، ص ١٩٦.

(٢) عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، بيروت ١٩٩٠، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٣) وصاروجا: هو الأمير صارم الدين صاروجا المظفري أحد الأمراء الناصرية، وكان أميراً بصفد، ثم بدمشق، وكان خير الطباع، سليم الصدر، وهو من أنصار الأمير تتكز، اعتقل لما قضي على تتكز، فكلل وعمي ومات أواخر سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٢-١٣٤٣، وهو الذي أنشأ سويقة صاروجا فنسبت إليه هذه المحلة وهي من أحياء دمشق القديمة شمالي القلعة في الطرف الشمالي للمدينة القديمة.

(٤) أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق علي نعيصة، منشورات وزارة الثقافة في ح. ع. س. دمشق ١٩٧٦م، ص ٣٩٩. النعيمي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٧٠، ١٨١. نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، مصدر سابق، ج ١ ص ٤٠٣ هـ (١).

٨ - محلة العقيبة الكبرى: تقع شمالي مدينة دمشق^(١).

٩ - محلة باب البريد: هو الباب الغربي للجامع الأموي، ومكانه أول سوق الحميدية من جهة محلة باب البريد، وسمي باب البريد بذلك لأن كل بريد كان يرد منه للوليد بن عبد الملك لا ينزل إلا فيه ولا يدخل إلا منه، فمحلة باب البريد وصفها كثير من الشعراء، بحسنها وروعها، وقد قال أحد الشعراء فيها:

عرج ركابك عن دمشق فإنها بلد تذل له الأسود وتخشع
ما بين جابيهما وباب بريدها قمر يغيب وألف بدر يطلع

ويقصد بجابيهما طبعاً باب الجابية الذي تحدثنا عنه سابقاً وهو أحد أبواب دمشق الرئيسة، أما باب البريد فهو باب الجامع الغربي^(٢).

١٠ - محلة القيمرية: سميت حارة القيمرية باسم المدرسة القيمرية التي أنشأها ناصر الدين القيمري، وعمل على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها ولا عمل على شكلها، وقد أنفق عليها أربعين ألف درهم... وناصر الدين القيمري هذا غير سيف الدين القيمري صاحب المارستان الكائن بالجبل^(٣).

١١ - الحسودية: حارة الحسودية مدخلها من جهة البحصّة وهي بمجموعها شمالي نهر بردى، يفصل بينها وبين طريق ضفة بردى جامع فضل الله البصري^(٤).

١٢ - القاعة: ذكرت الوثيقة أنها تابعة للقبليات^(٥).

(١) Colette Establet – Jean paul pascual formille et fortunes A Damas.. 450. foyer Damascus. En 1700. preface de Undré Raymond. Damas. 1994. p. 156.

(٢) لطف السمر وقطف الثمر، المصدر السابق، ط١، ص ١٤٨ هـ (٦). ابن كنان (محمد بن عيسى)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، دمشق ١٩٤٧، قسم ١ ص ٢٠٦ هـ (٣).

(٣) مجلة الرابطة الأدبية، مجلة أدبية مصورة تصدرها جمعية الرابطة الأدبية في دمشق، الجزء الأول، السنة الأولى، أيلول ١٩٢١، ص ٥٣٩.

(٤) محمد أحمد دهمان، مجلة المشرق ١٩٤٨/٤٢، زلزلة سنة ١١٧٣ هـ بدؤها ٢٥ آب ١٧٥٩ في دمشق وضواحيها، ص ٣٤٣.

(٥) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧٦، ص ١٤٧، غرة شعبان ١٠٩١/الثلاثاء ٢٧ آب ١٦٨٠.

Brigitte Marnece... Midan. P., 124, 285, 367, 292.

١٣ - الخاطب: وقد ذكر الأستاذ أكرم حسن العلبي الخاطب بالحاء بينما وردت كثيراً الخاطب بالخاء، وهي قبلي مأذنة الشحم^(١).

١٤ - تلة الحراث: جاء في الوثيقة أنها تابع محلة الخراب التي سوف تأتي على ذكرها لاحقاً، ولكنني لم أعثر على ترجمة لمحلة تلة الحراث^(٢).

١٥ - محلة الشنباشية: وهي الأخرى لم أعثر لها على ترجمة في مصادر، وجاءت في الوثيقة عبارة (الشنباشية داخل باب الشاغور البراني)^(٣).

١٦ - محلة باب مصلى: وهي كانت من الأحياء الرئيسة بدمشق قديماً، وتقع الآن في تقاطع شوارع ابن عساكر والمجاهد والميدان والزاهرة، هي من الأحياء التي تقع جنوبي دمشق القديمة^(٤).

١٧ - محلة اليهود: تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من دمشق القديمة^(٥).

١٨ - السويقة المحروقة: تقع خارج دمشق عند جامع مراد باشا قبل باب مصلى، وسُميت بالمحروقة لأنها احترقت حوالي القرن العاشر في أوائله أو في فترة سابقة غير معروفة^(٦).

(١) العلبي، خطط دمشق، مرجع سابق، ص ٤٣٦.

(٢) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٨٩، ص ١٥٣.

(٣) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٩٥، ص ١٥٤.

(٤) العلاف، دمشق مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص ٣٩١. نعيسة، مجتمع دمشق، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤١.

نعمان قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت ١٩٧٦، ص ١٠٢. وأيضاً: صلاح الدين المنجد، خطط دمشق، دمشق ١٩٤٨، ص ٣٣.

(٥) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ١٩٦٣، ص ٧٣. ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٢. وأيضاً العلاف، مصدر سابق، ص ٢١.

Abdul Karim Raheq. Craft organizations and religious communities in ottoman Syria (XVI – XIX centuries). P. 51. in academia nozanale del enco. Fondazicene leone caftani. 25 conuegnce sulteme – la shir A nell impera ottomana. Rome 15 Aprile 1991 estratta institute francais de Damas bublllotheque, Rome 1993.

(٦) لطف السمر وقطف الثمر للقربي تحقيق محمود الشيخ، مصدر سابق، ط ١، ص ١٠٠، هـ ٤. ابن كنان، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، مصدر سابق، قسم ١ ص ٨٦.

١٩ - باب السريجة: تقع إلى الجنوب الغربي من دمشق خارج سورها القديم. شرق جامع زيد بن ثابت^(١).

٢٠ - القزازين: العمارة البرانية^(٢).

٢١ - محلة الخراب: لعل تسمية الحي، بحي الخراب جاء نتيجة التهديم الذي تعرضت له المدينة خلال استيلاء المغول عليها، وأيضاً بسبب الزلزال الذي أصاب دمشق وغيرها سنة ١٧٥٩م^(٣).

٢٢ - محلة تحت القلعة: سميت المحلة بهذا الاسم منذ القرون الوسطى (الإسلامية) واكتسبت شهرة فائقة فهي تضم ساحة واسعة تحيط بها الأسواق المختصة بالسلع والصناعات المختلفة، كسوق الخيل، وفيها دار البطيخ، ودار الخضار (سوق الهال) ومحلة تحت القلعة اسم يطلق على المكان الفسيح الواقع بين مصلبة العمارة شرقاً والمرجة غرباً والقلعة والنهر جنوباً وسوق صاروجا شمالاً^(٤).

٢٣ - قلعة دمشق: احتلت القلعة الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، بدأ بناؤها بعد سنة من دخول الأمير أشز بن أوق الخوارزمي التركماني إلى دمشق في العهد السلجوقي ٤٦٩هـ بعد أن انتزعها من أيدي الفاطميين، وأُكْمِلَ البناء في عهد الأمير السلجوقي تنش وكان أول من أقام فيها، ثم قام الملك العادل أبو بكر محمد في العهد

(١) العلي، خطط دمشق، مرجع سابق، ص ٤٣٤. الحلاق، حوادث دمشق اليومية، مصدر سابق، ص ٤١.

(٢) ابن عبد الهادي يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، بيروت ١٩٤٣، ص ٢٠٧.

(٣) نسيب صليبي، تقنيات حي الخراب بدمشق، الحوليات الأثرية، عدد خاص تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق ١٩٨٥م، ص ١١٩.

(٤) معالم وأعلام لأحمد قدامة القسم الأول، مصدر سابق، ص ١٧٤.

حوليات أثرية المجلد الرابع عشر ١٩٦٤، ص ٤٢، بحث لعبد القادر الريحاوي بعنوان: تاريخ دمشق العمراني، مجلة حوليات أثرية، المجلدان: ٢٧-٢٨-١٩٧٧/٢٨-١٩٧٨، ص ١٦. من مقال للدكتور عفيف بهنسي المدير العام للآثار والمتاحف بعنوان: مجاهل الأسماء في أحياء دمشق الفيحاء.

الأيوبي بهدم هذه القلعة السلجوقية سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وأنشأ في موضعها قلعة أكثر تطوراً، واستمر فيها البناء حتى وفاته سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، ثم تعرضت هذه القلعة إلى كثير من الكوارث كالزلازل والعمليات الحربية في زمن الأيوبيين والمغول والتتار، وكذلك في العهدين المملوكي والعثماني، وشهدت إقامة العديد من الشخصيات السياسية فيها كنور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والملك الظاهر بيبرس.

كان للقلعة أربعة أبواب رئيسية: باب الحديد وهو الباب الشمالي، وباب من جهة المدينة وهو الباب الشرقي الذي يفتح في العسرونية، وباب يخرج منه إلى باب النصر وهو الباب الجنوبي، وباب يخرج منه إلى حكر السماق أي شارع النصر اليوم وهو الباب الغربي، كما كان لها ثلاثة أبواب سرية في الخنادق، وتعرف القلعة بقلعة الشام، وبالقلعة المحروسة، وتبدو على شكل مضلع كبير متطاول، وقد بنيت من حجارة مدببة نحتت بعناية على شكل الماس، ويتصل بها أربعة عشر برجاً مربعاً، خمسة منها على كل من الجانبين الطويلين للقلعة، واثنان على كل من الجانبين القصيرين، ويحيط بالقلعة خندق يقارب عرضه /١٠/ قامات أو /٦٠/ قدماً، وعمقه /٣/ قامات أو /١٨/ قدماً، وفي القلعة كان يقيم الآغا قائد القابي قول المعين من استانبول^(١).

وقد تمركزت الفرق الإنكشارية التي تميزت بالولاء للإدارة المركزية العثمانية في قلعة دمشق^(٢). ثم صارت القلعة مسكونة من قبل عائلات العسكريين، وكانت تتم عمليات البيع والشراء للبيوت من القلعة، قد سجلتها وثائق المحاكم الشرعية في فترة البحث^(٣).

٢٤ - داخل الشاغور الجواني: وقد تذكرها الوثائق (داخل باب الشاغور الجواني) وواضح أن المقصود بالباب هو الباب الصغير وخارج الباب الصغير يسمى الشاغور البراني

(١) دارقيو، وصف دمشق في القرن /١٧/، مصدر سابق، ص ٣١، عبد القادر الريحاوي، قلعة دمشق، تاريخ القلعة وأثارها، وفنونها المعمارية، دمشق ١٩٧٩، ص ٧+١٦+١٧.

(٢) عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، دمشق ٢٠٠٢، ص ١٣٣.

(٣) س ٢٣، وثيقة ٥٦٠، ص ٢٧٠، س ٣ مشوش، وثيقة ٦٥٢، ص ٢٦٤.

الذي سنأتي على ذكره لاحقاً. أما داخل الباب الصغير فيسمى الشاغور الجواني^(١).
إذ إن الشاغور مقسم إلى شطرين براني، خارج باب الصغير وجواني داخله.

٢٥ - محلة الشيخ زكي^(٢): لم يكن كتبة الوثائق في محاكم دمشق وفي حالات كثيرة دقيقين في تسمياتهم، فإطلاق اسم محلة الشيخ زكي، ربما يكون لهذا الشيخ مقام فسميت باسمه، وهي أصلاً موجودة بمحلة سوقية صاروجا التي ذكرناها سابقاً.

٢٦ - محلة السيدة رابعة: وهي الأخرى لم أعثر لها على ترجمة بوصفها محلة، وجاء في الوثيقة «محلة السيدة رابعة تابعة الشامية»^(٣).

وكما ذكرت سابقاً فقد كانت التسميات في الوثائق تعوزها الدقة في بعض الأحيان ومن هي رابعة هذه؟ هل هي رابعة الشامية التي ذكرتها المصادر، إذا كان الأمر كذلك فهي رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحوراني، وقد كانت عابدة زاهدة ورعة، وكان هناك اختلاف في أحوالها، فتارة تكون شديدة الخوف وتارة قوية الرجا، وتارة عارفة زاهدة، مانت بدمشق ودفنت ببيتها بالقيصرية، ومقامها مشهور جليل^(٤).

٢٧ - محلة الجديدة: سميت حارة القرد، وتسمى أيضاً حارة الأعجام والحارة الجديدة بمنطقة شارع بغداد الآن^(٥).

٢٨ - الميدان: هناك (الميدان التحتاني، عرضه شرقاً من غرب مقبرة الباب الصغير إلى محلة قبر عاتكة وقبر الولي الشيخ الغواص الرفاعي، وطوله قبلة من شمال الميدان

(١) آغا العبد، حوادث بلاد الشام والإمبراطورية العثمانية، ١١٧٦-١٢٤١هـ/١٧٧١-١٨٢٦م، الطبعة الأولى طبع في مطبعة الشام ١٩٨٦، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) لم أعثر لها على ترجمة، وورد في الوثيقة «محلة الشيخ زكي بشارع سوقية صاروجا» س ٣ مشوش، وثيقة ٧٩٩. ص ٢٨٥

(٣) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٢٤، ص ١٠٧.

(٤) عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي، حقائق الأنعام في فضائل الشام، رقم (٧٣)، ورقة ١٩٧، مكتبة الأسد. مخطوط: تحفة الأنعام في فضائل الشام، لمؤلفه ابن الإمام البصري الدمشقي، رقم المخطوط (١٥٢٧٠)، ورقة (٨٠) مكتبة الأسد. مخطوط بعنوان: نبذة لطيفة في المزارات الشريفة للمؤلف ياسين بن مصطفى الجعفي البقاعي الدمشقي المتوفي سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م رقم المخطوط (١١٥٨٠) ورقة (٣٦) مكتبة الأسد الوطنية.

(٥) ابن عبد الهادي، مصدر سابق، ص ٢٢٥، نعيه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١،

ص ٧٤. Colette Establet-Jean poul pascual-familles. p. 162.

الفوقاني إلى ملاصقة القنوات على الأرض، أما الميدان الفوقاني: فعرضه شرقاً من غرب ساحة الزفتية والمحلة المعروفة بالقاعة إلى طريق صف الجوز الموصل إلى القدم، وطوله قبلة من شمال بوابة الله في آخر ميدان الحصى إلى ملاصقة الميدان التحتاني على عرضه^(١).

٢٩- سوق صاروجا: على ألسنة الناس سوق صاروجا ولكن بالأصل سوق صاروجا، هي محلة في شمال قلعة دمشق بين محلة العقبية، وبوابة الصالحية، وأصل التسمية، «سويقة صاروجا»^(٢).

٣٠- محلة الجرن الأسود: ورد كثيراً في وثائق سجلات المحاكم الشرعية أن الحارة الفلانية تابع المحلة الفلانية. وعلى هذا السياق فقد ورد في الوثيقة محلة الجرن الأسود تابع العقبية الكبرى وربما يكون مدلول العبارة أن محلة الجرن الأسود أصغر من العقبية الكبرى أو هي جزء مكمل لها^(٣).

٣١- محلة القنوات: هي من أحياء دمشق من غربي سوق الحميدية حتى الشرق من محطة الحجاز بموازاة شارع النصر من جنوبه.

(١) أحمد قدامة، مجلة العمران عام ١٩٦٦، من مقالة بعنوان: دمشق عين الشرق كله، ص ١٠٦، الديوان الدمشقي، شعر نظم في دمشق قديماً وحديثاً، جمعه وشرحه محمد المصري، دمشق ١٩٨٣، ص ٥٧٦. المنجد، خطط دمشق، مصدر سابق، ص ٣٣. لطف السمر، مصدر سابق، ج١، ص ٤٨ هـ (٤). نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١، ص ٧٥+١٢٥+١٦٨. المنجد، تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٢، ص ٩٢، العلاف، دمشق مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص ٢١. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ج١، ص ٩٨، من مقالة بعنوان: الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق، بقلم نجاه غويونج، جامعة استانبول، ١٩٨٤، ص ٣٧.

(٢) مجلة المشرق ١٤٩٤/٤٣، ص ٦٥، من مقالة بعنوان: خطط دمشق، بقلم صلاح الدين المنجد. بحث بعنوان: مجاهل الأسماء في أحياء دمشق الفيحاء، عفيف البهنسي المدير العام للآثار والمتاحف.

(٣) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، مصدر سابق، ص ١٢٢، ومخطوط: تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر الهجري، اسم المؤلف: مجهول، رقم المخطوط: /٦٩٧٠/ ورقة ١٢/. مجلة المشرق ١٩٣٧/٣٥، ص ٣٥.

٣٢ - محلة البريدي: ورد في الوثيقة زقاق الشيخ علي البريدي، ولم أعثر في مصادرني على هذا الاسم بل هناك محلة تسمى محلة البريدي أو محلة قناة البريدي، وهي جنوب قصر حجاج^(١).

٣٣ - السبع طوالع: وهي محلة تجاور العمارة والقيمرية، ليست بعيدة عن الظاهرية الآن^(٢).

٣٤ - محلة البادرانية: تقع داخل دمشق القديمة، شمالي باب جيرون، وسميت بهذا الاسم نسبة للمدرسة البادرانية^(٣).

٣٥ - محلة العمارة: كان العامة يلهجون ويقولون عند عمارة الأخنائي فغلب هذا الاسم على خارج باب الفراديس وصار يسمى حي العمارة إلى وقتنا وفي داخل السور يُسمى الشطر الآخر العمارة الجوانية^(٤).

٣٦ - محلة باب الخضراء: هي قبلي الجامع الأموي من ناحية الشرق وسميت بالخضراء أو حارة باب الخضراء لأن الدار التي بناها الخليفة معاوية بن أبي سفيان خارج الباب الجنوبي للجامع الأموي، أقول إن هذه الدار كان لها بابٌ يفضي إلى المسجد إلى المقصورة، ومن هنا تسميتها محلة باب الخضراء أو محلة الخضراء بباطن دمشق^(٥).

(١) بريجيت مارينو، حي الميدان في العصر العثماني، دمشق، ترجمة ماهر الشريف ٢٠٠٠، ص

٣١٣، ذيل ثمار المقاصد ص ١٩٧، العلبي، خطط دمشق، مرجع سابق، ص ٤٤٢.

(٢) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد، مصدر سابق، ص ٢٤٤.

(٣) العلبي، مرجع سابق، ص ٤٣٥. حسن شمساني أستاذ محاضر في كلية الآداب، الجامعة اللبنانية،

مدارس دمشق في العصر الأيوبي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى

١٤٠٣-١٩٨٣، ص ٢٥٠. مجلة المشرق ١٩٣٧/٣٥.

(٤) ابن طولون الصالحي، إعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد

أحمد دهمان، دمشق ١٩٦٤م، ص ١٣٦.

(٥) فتيية الشهابي، معجم دمشق التاريخي، المرجع السابق، ط ١، ص ١٥٧.

الديوان الدمشقي، شعر نظم في دمشق قديماً وحديثاً، جمعه شرحه محمد المصري، مرجع سابق،

ص ٥٥٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح المنجد، دمشق ١٩٤٥م، مصدر سابق ص

٢٥٠.

٣٧ - محلة الشاغور البراني: أحد أحياء دمشق القديمة خارج السور القديم في القسم الجنوبي من دمشق القديمة، وكان يحمل اسم محلة الشاغور البراني، خارج باب الصغير^(١).

٣٨ - محلة الشويكة: كانت بالأصل قرية يمانية تعرف بالحميريين وقد درست، ثم تحولت التسمية إلى بوابة الشويكة واختصر الاسم بالتواتر الشفهي إلى الشويكة، وهي الآن محلة قبلي باب السريحة قرب محلة قبر عاتكة^(٢).

٣٩ - محلة الملك الظاهر: هي محلة داخل باب الفرج^(٣).

٤٠ - محلة حكر كمال الدين: هي خارج باب الفراديس كما جاء في الوثيقة^(٤)، ولم أجد في مصادرني من تحدث عنها.

٤١ - القباقيبة: لم أعثر على محلة باسم القباقيبة في المصادر، ولكن ذكرت المصادر أن هناك سوقان: آ - سوق القباقيبة الأول، كان في حي العمارة الجوانية داخل باب الفراديس إلى الجنوب من النحاسين والشمال من حصن جيرون والزاوية الشمالية الشرقية للجامع الأموي، ويعرف أيضاً بسوق القباقيبة العتيقة، وقد درس. ب - أما الثاني: فهو سوق القباقيبة الذي لا يزال على امتداد الجدار الجنوبي للجامع الأموي وقد تبدل اختصاصه اليوم من صناعة القباقيب وبيعها إلى النجارة العربية ومحال للصياغ والعاديات الأثرية^(٥).

٤٢ - محلة بين المدارس: لم أعثر في المصادر على ذكر لهذا الاسم، وعثرت على اسم محلة بين المدارس في مصدر أجنبي^(٦) فقط، وقد جاء في الوثيقة أن محلة بين المدارس هي قرب باب البريد وبذلك زال اللبس وعرفت المنطقة^(٧).

(١) العلاف، دمشق مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص ٣٩٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان مصدر سابق، ج ٣، ص ٣١٠. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ٢، ص ١١٦.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٣.

(٣) تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية استناداً إلى الجغرافيين العرب، عبد الله الحلو، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ص ٣٧٥.

(٤) س ٣ مشوش، وثيقة ٧٨٦، ٢٨ جمادى الأولى ١٠٩١/الأربعاء ٢٦ حزيران ١٦٨٠، ص ٢٨٠.

(٥) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠٤.

(٦) Colette Establet – Jean poul pascual, Familles et Fortunes a Damas. P. 156, 166.

(٧) س ٢٥، وثيقة ١١٨، ص ٧٣.

٤٣ - محلة باب الفراديس: لم يرد في المصادر أن هناك محلة بهذا الاسم وقد يكون كتبة الوثائق أوردوه للدلالة على المنطقة المحيطة بباب الفراديس الذي ذكرناه سابقاً.

٤٤ - باطن دمشق بالقرب من البادرانية. لقد تحدثنا سابقاً عن محلة البادرانية ويبدو هنا أيضاً أن كتبة الوثائق عدّوا المنطقة التي تواجد فيها البيت حيث بيع (مجرى فايز البركة) منطقة قائمة بذاتها وكأنها شبه محلة^(١)، على الرغم من أن البيت مجاور للمدرسة البادرانية^(٢).

٤٥ - محلة عين ملك: هذه الحارة في الصالحية عند تربة عين الملك. هذا وورد ذكر هذه المحلة في الوثيقة (حارة عين ملك بالصالحية)^(٣).

٤٦ - صالحية دمشق: كانت الصالحية قرية في سفح قاسيون قبل أن يمتد إليها الإعمار، وكانت تعرف بقرية النخل، وبقرية الجبل، أنشأها بنو قدامة المقدسة بعد نزوحهم عن قرية جماعيل في فلسطين أيام نور الدين الشهيد تخلصاً من جور الصليبيين أواخر القرن الخامس للهجرة/أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر للميلاد، أما مصدر تسميتها فمختلف فيه، وقيل لأنها بسفح قاسيون المعروف بجبل الصالحين، وقيل لأن الذين أقاموها كانوا قبل ذلك في مسجد أبي صالح فنسبت إليه، وقيل أيضاً نسبت إلى الصالحين لصلاح من أنشأها، والصالحية اليوم هي من أحياء مدينة دمشق، تمتد بين حي ركن الدين والمهاجرين، والصالحية الجديدة قسم جديد من الصالحية غربي الزاوية العذراوية ومسجد قيس، أما الصالحية العتيقة فموضع من حي الصالحية كان بجوار الميطور من جهة الغرب «حول منطقة جسر النحاس اليوم» ويمكن أن نحدد الصالحية (من جهة القبلة الشرف الأعلى ثم أرض حمام الورد ثم أرض مرج الدحداح ومن الشرق أرض بيت لهيا (القصاع اليوم) ثم أرض مصطبة القابون وتسمى مصطبة السلطان ثم أرض برزة ومن جهة الشمال الجبل (قاسيون) ومن

(١) س ٢٥، وثيقة ٣٢٢، ص ١٨٣، وثيقة ٣٢٣، ص ١٨٣.

(٢) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، مرجع سابق، ط ١، ص ١٦٣.

(٣) س ٢٥، وثيقة ٢٤٥، ص ١٤٣.

الشرق إلى الغرب أرض برزة إلى أرض وادي الربوة، ومن جهة الغرب إلى القبلة فحد الصالحية إلى الجسر الذي على بردى شمالي طاحون كيوان قرب الربوة^(١).

٤٧ - أراضي قصر اللبان: هي في الصالحية في طريق الميطور^(٢).

٤٨ - بيت لهيا: كانت على طريق بغداد القديم بين البساتين حول جسر نهر تورا حيث يقوم المستشفى الإنكليزي (المستشفى العيني) في القصاع، وكان فيها كنيسة أصبحت مسجداً، ولم يبق في هذه الأيام أي أثر من آثارها اندثرت منذ القرن العاشر الهجري. وكلمة بيت لهيا أرامية وتعني بيت الآلهة^(٣).

٤٩ - أراضي أرزة: أرض أرزة اليوم محلة مكانها حي الشهداء في طريق الصالحية^(٤).

هذا وقد تم شطب أراضي قصر اللبان، وبيت لهيا، وأراضي أرزة من جدول المحال في دمشق. على الرغم من أنني تحدثت عنها وكأنها محال وأعطيتها رقم (٤٦، ٤٧، ٤٨) لأن طابعها الزراعي غالب.

أما فيما يتعلق بمحال دمشق فقد كانت تطلق كلمة تابع على بعض المحال مثل^(٥): (محل السيدة رابطة تابعة الشلاحة: س ٤ مشوش، ص ١٠٧، وثيقة ٢٢٤). (محلة السيدة رابعة تابعة الشلاحة، س ٤ مشو، ص ١٠٧، وثيقة ٢٢٤). (محلة القاعة تابع القبيبات، س ٢ مشوش، ص ١٤٧، وثيقة ٣٧٦). (الجرن الأسود تاريخ العقبية، س ٢٣، ص ١٨، وثيقة ٢٨).

(١) ابن كنان، المروج السندسية في تاريخ الصالحية، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٢) المجمع العلمي العربي ١٩٢٨/٨ ص ١٢١، من مقالة بعنوان: نبذة تاريخية تتعلق بدمشق وجامعها وما حوله، بقلم عبد الله مخلص، حيفا.

(٣) أحمد قدامة، معالم وأعلام في بلاد العرب، القاهرة ١٩٨٣، ج ١، ص ١٦٢. ابن كنان، المروج السندسية، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٤) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ١٣+١١٨. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٧٥. لطف السمر، مصدر سابق، ط ١، ص ٤٠٣.

(٥) استرعى انتباهي ما ذكر في إحدى الوثائق (محلة اليهود تابع محلة الخراب: س ٢٦، وثيقة ١٢٥، ص ٦٣).

وتكررت في الوثائق كثيراً عبارة: (ظاهر دمشق، وباطن دمشق) ولعل التسمية جاءت بالنسبة لسور دمشق الذي تحدثنا عنه.

وذكرت بعض التلال بدمشق مثل: (تلة الحراث حيث سمي زقاق باسم هذا التل.. س ٣ مشوش، وثيقة ٥٦٩، ص ٢٣٠)، (تلة أمير خور، وكذلك سمي زقاق باسمها. س ٢٦، ص ٤١، وثيقة ٨٣). هذا وتوجد تلة السماكة في محلة مأذنة الشحم إلى الجنوب من الجامع الأموي ويعتقد أن المدينة الآرامية القديمة تجثم تحتها^(١).

وذكرت الوثائق أسماء عدد من الشوارع. مثل: شارع بني قيس في محلة القبيبات، وفي محلة باب السريجة شارع الثابتة، وكان أحدها منسوباً إلى اسم عائلة والآخر إلى جامع^(٢). وذكرت الوثائق بالشكل الغالب لفظة، وقسمت المحال في دمشق إلى أزقة، ويبلغ عرض الزقاق الواحد بين ثلاثة أمتار وخمسة، وتفصل بين الأزقة دور سكنية بعرض يتراوح بين دارين وستة دور أو أكثر ولم تكن الأزقة متماثلة من حيث عدد الدور وكثافة السكان فيها^(٣).

ونلاحظ في جداول المحلات أن بعض المحال لا تحوي أزقة وأن أخرى تحوي أكثر من زقاق وليس معنى ذلك أن تلك المحال خالية من الأزقة، ولكن يبدو أن عدد القضايا المتعلقة بتلك المحال كانت قليلة في المحاكم، أو أن دور هذه المحال الاقتصادي والاجتماعي كان أقل من الدور الذي تؤديه المحال الأخرى ذات الأزقة وقد بلغ عدد الأزقة في جميع محال دمشق خلال فترة الدراسة (٤٦) ستة وأربعين زقاقاً، منها في محلة باب شرقي زقاق واحد، وفي محلة القبيبات زقاقان اثنان، وفي محلة النصارى خمسة أزقة، وفي القيمرية ثلاثة أزقة، وفي القاعة زقاق واحد وكذلك في الخاطب. وفي

(١) عبد القادر الريحاني، قصور الحكام بدمشق، مجلة الحوليات الأثرية، مجلد ٢٢+٢٣ لسنة ١٩٧٢، ص ٣٢.

(٢) الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ بدمشق /٣/ أجزاء، دمشق ١٩٢٧، ج ٣، ص ١٠٤٥.

(٣) رافق، البنية الاقتصادية والاجتماعية لمحلة باب مصلى، ١٩٨٥، ص ١٣-١٤.

باب مصلى زقاق، وفي باب الجابية زقاقان اثنان وفي الخراب زقاق واحد، وفي كل من سويقة صاروجا وباب توما زقاق واحد، وفي الشاغور الجواني ثلاثة أزقة، وفي محلة الجديدة زقاق واحد، وفي الميدان زقاقان اثنان، وفي سوق صاروجا زقاق واحد، وفي القنوات زقاق واحد، وفي محلة قبر السيدة عاتكة ثلاثة أزقة، وفي محلة باب البريد زقاق، وفي محلة القباقيب زقاق، وفي صالحية دمشق زقاق.

لقد ظهر من خلال جدول المحال بدمشق أن زقاق البريدي ورد مرة باسم زقاق الشيخ علي البريدي في السويقة المحروقة ومرة باسم زقاق البريدي، ولكن يمكن أن يكون ملحقاً بمحلة، ولذلك حذفنا زقاقاً من المجموع العام للأزقة الذي بلغ ٤٦/ ستة وأربعين زقاقاً كما قلنا. ونظراً للتطور العمراني ولعامل الزمن فإن قسماً من الأزقة قد زال أو أدمج بغيره بينما بقي القسم الآخر قائماً حتى الآن. وتصعب معرفة الأزقة التي اندمجت مع غيرها، أو تلك التي استحدثت في غياب الدراسات الطبوغرافية المتخصصة^(١).

٢- الأزقة وتسمياتها :

ذكرت الوثائق بعض الأزقة التي سميت بأسماء عائلات مثل: زقاق بني نصير، وزقاق بني كريم الدين^(٢). وكانت هناك أزقة بأسماء الأعلام^(٣) مثل: زقاق الشيخ علي البريدي، زقاق السيد تاج الدين، زقاق ماهر، زقاق الجتر فيل، وحملت بعض الأزقة أسماء لأشخاص قدموا من مناطق أخرى^(٤)، مثل^(٥): الجمال، الشماع، العلم، العدّاس،

(١) س ١٣٥، وثيقة ٢٤٠، ص ٣١٢.

(٢) س ٣ مشوش، وثيقة ٦١٣، ص ٢٤٨، س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٦، ص ٦٦.

(٣) س ٣ مشوش، ص ١٩٢، وثيقة ٤٩٠، ص ٢١٤، وثيقة بين ٥٣١-٥٣٢، س ٢٣، وثيقة ٦٠٢، ص ٢٩٦، س ٢٥، وثيقة ٩٩، ص ٥٩.

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧٦، ص ١٤٧، س ٣ مشوش، وثيقة ٦٥٩، ص ٢٦٧. س ٢٥، وثيقة ٢٣١، ص ١٣٤.

(٥) س ٢ مشوش، وثيقة ١٨٥، ص ١٤٣، س ٣ مشوش، وثيقة ٧٧٤، ص ٢٧٤، س ٢٣ وثيقة ٦، ص ٤، س ٢٣، وثيقة ٥٧١، ص ٢٧٩.

وحملت بعض الأزقة أسماء جماعات متوطنة مثل^(١): العبسيين، السودان، وحملت أزقة أخرى أسماء حمامات مثل^(٢): حمام الذهب، حمام القدم، وسميت بعض الأزقة بأسماء تلال^(٣): زقاق تلة الحراث. وسميت بعض الأزقة باسم الطوالع، مثل^(٤): زقاق طالع جمعة. وقد ذكر كحدود في وثائق البيع والشراء والاستئجار الطريق وفيه الباب. فقد كان يمكن أن يحد الدار من القبلة أو الشمال أو الشرق أو الغرب، ولكن في كثير من الحالات كان الطريق يحدّ المنازل من جهة الغرب، وقد ذكرت إحدى الوثائق: الطريق السالك على غير العادة في بقية الوثائق التي تذكر الطريق فقط^(٥).

ووردت الدخلات وفيها باب الدار الذي يكون في معظم الحالات من جهة القبلة^(٦). كما وردت الدخلات غير النافذة حيث يفتح عليها باب الدار^(٧). وكان يمكن أن تكون بوابة الرباط في محلة الملك الظاهر^(٨).

ووردت الخرابة كثيراً في الوثائق خلال فترة الدراسة، ولكننا سوف نبحث ذلك في فصل مظاهر اجتماعية. وفي معظم الحالات فإن أبواب الدور في المحلات تفتح على دخلات غير نافذة من أجل دواعي الأمن والأعراف المحافظة.

(١) س ٢٥، وثيقة ١٨٥، ص ١١٠، س ١٠ مشوش، وثيقة ١٦٠، ص ٧٤.

(٢) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٩٥، ص ١٥٥، س ٢٦، وثيقة ٢٥، ص ١٢.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٢٦٩، ص ٢٣٠.

(٤) س ٢٣، مشوش، وثيقة ١٥٩، ص ٥٧.

(٥) س ١ مشوش، وثيقة ٨٦١، ص ٣٣٥، س ٢ مشوش، وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧، وص ١٤٣، وثيقة ٢٦٩، ص ١٤٧، س ٣ مشوش، وثيقة ٤٧٥، ص ١٨٥، وثيقة ٥١٢، ص ٢٠٣.

(٦) س ١ مشوش، وثيقة ٧٧٦، ص ٤١٢، س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧٠، ص ١٤٤، س ٣ مشوش، وثيقة ٥٤١، ص ٢١٧، وثيقة ٧٧٤، ص ٢٧٤، س ١٠ مشوش، وثيقة ١٥٥، ص ٧٤، س ١٧ مشوش، وثيقة ٣٥٦، ص ٩٣.

(٧) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٠٦، ص ٢٤٤، س ٢٣، وثيقة ٢٨، ص ١٨، س ٢٥، وثيقة ١١٠، ص ٦٦.

(٨) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩١، ص ١٩٣.

ووردت تسع دخلات سمي بعضها بأسماء أعلام كدخلة كچك (الصغير) أحمد باشا ودخلة مصطفى بشر ابن الثلج، ودخلة محضري صوفي ودخلة مفردة سميت باسم دخلة باب شرقي، وسميت بعض الدخلات بأسماء عائلات مثل: دخلة بني سليمان، ودخلة بني اللولو، ودخلة بني البصروي بمحلة باب البريد، كما ذكرت دخلة التلة بالشاغور الجواني، وكانت هناك دخلة الصادرية في محلة باب البريد^(١).

أما بقية الدخلات فسأعرض السجلات والوثائق التي وردت بها^(٢).

٣- قرى دمشق :

ونظراً للعلاقات الوثيقة بين دمشق وقراها فقد ذكرت الوثائق عدداً من القرى التي جرت فيها عمليات البيع والشراء والاستئجار منها: القرى في الجدول المرفق والتي كان فيها بيوت ودور وصفت أحجامها:

- | | |
|--------------|--------------|
| ١ - المليحة. | ٢ - داريا. |
| ٣ - زبدین. | ٤ - حرستا. |
| ٥ - جسرین. | ٦ - تل كردي. |

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ١ ص ٤١٣، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي، مصدر سابق، ص ١٩١. قتيبة الشهابي معجم، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٩٠، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المجلدة الثانية، مصدر سابق، ص ٢٢١، س ٢ مشوش، وثيقة ٢٦٢، ص ١٤١. وقد مر التعريف بمصادر ابن عبد الله.

(٢) س ٢ مشوش، ص ١٥٥ وثيقة ٢٩٥، جمادى ٢ ١٠٩١هـ/الأحد ٣٠ حزيران ١٦٨٠م، س ٣ مشوش، ص ٢٦٠ وثيقة ٦٤٣، ١٣ ذي القعدة ١٠٩١هـ/الخميس ٥ كانون الأول ١٦٨٠م، ص ٢٢١ وثيقة ٥٥٠، ٢٤ شوال ١٠٩١هـ/الأحد ١٧ تشرين الثاني ١٦٨٠م، س ٢٣، ص ٢٧٨ وثيقة ٥٧٠، ٤ صفر ١١١٢هـ/الأربعاء ٢١ تموز ١٧٠٠م، س ٢٥، ص ١٧ وثيقة ٢٢، ١٦ جمادى الأولى ١١١٢هـ/الجمعة ٢٩ تشرين الأول ١٧٠٠م، س ٢٦، ص ٤١ وثيقة ٨٣ ٣ ذي الحجة ١١١٢هـ/الأربعاء ١١ أيار ١٧٠١م، س ١٥ مشوش، ص ٢٢٠ وثيقة ٦٨٢، ١٩ صفر ١١١٢هـ/الخميس ٥ آب ١٧٠٠م.

١ - قرية المليحة: هكذا كانت تسمى في معظم الوثائق، تقع في الغوطة الشرقية، شرق دمشق^(١).

٢ - قرية داريا : هي من قرى الغوطة الغربية ، تبعد عن دمشق ٨ كم إلى الجنوب الغربي^(٢).

٣ - زبدین: في الغوطة الشرقية، يحدها من الشمال حديقة الجرش، ومن الشرق حوش بالا العتيقة، ومن الجنوب دير العصافير ، ومن الغرب المليحة^(٣).

٤ - قرية حرستا: وتسمى حرستا الزيتون أو حرستا البصل، وهي قرية كبيرة من قرى الغوطة الشرقية غربي دوما تبعد عن دمشق /١٤/ كم تشرب حرستا بشكل أساسي من نهر يزيد^(٤).

٥ - قرية جسرین: هي من قرى دمشق في الغوطة الشرقية، تبعد عن دمشق مسافة ٧ كم يسقي أراضيها أحد فروع الداعيان، وهناك عين تدعى «عين السوس» التي هي في أرض عين ترما لكنها تسقي أرض جسرین وقرى أخرى^(٥).

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج ٥ ص ٢١٧، ابن عساكر، تاريخ دمشق، مصدر سابق، ص ١٩٨. المنجد، خطط دمشق، مرجع سابق، بيروت ١٩٤٩ ص ٣٧، الحصني، منتخبات، مصدر سابق، ص ١٠٥٨.

(٢) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، دمشق ١٩٥٥، ج ٢ ص ١٤٥، الحموي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣١.

(٣) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٢٠.

(٤) صفي الدين البغدادي، مرصد الاطلاع، ج ١، ص ٣٩٢، محمد كرد علي، غوطة دمشق، مصدر سابق، ص ١٧. جولة أثرية لأحمد وصفي زكريا ص ٣٩٢، الريف السوري لأحمد وصفي زكريا، مصدر سابق، ج ١ ص ٢٧٣. أوليا جلبي، سياحته سى - مؤلفي - أوليا جلبي محمد طلي ابن درويش أوجنجل جلد طابعي أحمد جودت، معارف نظارات جليلة، سنك، حصيته إيبك طبعي درسعنده، «اقدام» مطبعة س ١٣١٤ ص ٦٧.

(٥) Renetren l'irrigation dans la Ghouta de Dams. P. 513. أسامي الألوية والأقضية والقرى التابعة لدولة سورية ، ص ٣. التقسيمات الإدارية لعام ١٩٥٢ ص ٥، المجمع العلمي العربي ٥ كانون الثاني ١٩٢٥م، ص ٢١٧، من مقالة بعنوان: ضرب الحوطة على جميع الغوطة لمحمد كرد علي. مجلة المشرق ١٩٤٨/٤٢، ص ٣٤٦.

٦ - قرية تل كردي. هي من القرى التابعة ناحية المرج^(١).

وإذا ألقينا نظرة على جدول حجم الدور في قرى غوطة دمشق نجد أن أحجام الدور في المليحة وزبدین وحرستا وجسرین غیر معروفة في هذه القرى عدا دار واحدة من الدارين المذكورين بالمليحة كانت تشرب من بئر ماء معين، أمّا في قرية داريا فإن الدارين المذكورين كانا يشربان من بئر ماء معين ولكن لا نستطيع أن نجزم فيما إذا كانت القرى المذكورة تشرب فقط من الآبار أو من الطوابع بسبب قلة ما لدينا من وثائق، ويلاحظ أن الدار في قرية حرستا كان يحوي ثلاثة بيوت، وأحد الدور بالمليحة كان يحوي بايكة ومتبن وهذا طبيعي في الريف حيث إن الفلاحين كانوا يعيشون في حالات كثيرة بأحواش تحوي أغناماً وأبقاراً وخيولاً. ودائماً يشكل البيت جزءاً من الدار^(٢).

وإذا ألقينا نظرة إلى جدول حجم دور دمشق فسنجد أن محلة باب الجابية حوت أكبر دارين على الإطلاق بلغت درجة أحدهما ١٠ / درجات^(٣).

صحيح إن الوثائق قد لا تقدم لنا الكثير في التفاصيل التي يتطلع إليها أي باحث يعتمد الوثائق عماد دراسته وأسها، لكن هذه الدراسة على الرغم من المصادقية التي تتضمنها، إلا أن قراءتها متعبة من مختلف النواحي، فهي تذكر لك المحال أو الزقاق، دون أن تحدد في أية جهة من نواحي دمشق، يقع، وماذا يباع فيه، ومن هم رواده.

إن الدراسة الوثائقية التي ننشدها تظل مجرد علم لا نهاية له وليس من الصعب الخروج من دهاليز أحداث الشوارع والأزقة التي نحن بصدد التحدث عنها. علماً بأننا نشكو من خلط في الاسم والأنساب، لكن كل هذا يمنحنا دفعة للبحث عن الجديد.

(١) City and countryside in a traditional setting the cas of Damascus in the first Quarter of the lightened century. Abdulkarim Rafeq. P. 312. in the Syrie land in the 18 th and 19th Century edited by thomos philipp. Berliner islam studies. Bd. 5 (C) 1992 Franz Steiner verlag Stuttgart.

(٢) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٣) أشرنا إلى قيمة الوثائق ومتاعبها من باب الأهمية علماً بأننا كررنا ذلك أكثر من مرة.

لقد بنيت جداول أحجام الدور في بعض قرى غوطة دمشق والمرج التي وردت في الوثائق على السجلات والوثائق^(١).

إذا كنا قد عدنا سابقاً الأزقة التي أظهرها جدول أحجام دور دمشق، فهذا لا يعني أنها الوحيدة التي ذكرتها الوثائق، ولكننا رأينا أن نسجلها لكونها ذكرت في أثناء تبيان المحلات التي فيها الدور نوات الأحجام المختلفة بدمشق. فمثلاً: زقاق بادر^(٢) في محلة باب مصلى، وزقاق درب الوزير^(٣) في باب الجابية والذي حوى أربعة أزقة أخرى، وكان هذا الزقاق يسمى درب الهاشمية ثم سمي الزقاق باسم رفاق درب الوزير داخل باب الجابية. وزقاق بين السورين ورد أيضاً في وثائقنا أنه في محلة باب الجابية^(٤) ولكن صلاح الدين المنجد يقول في خطه: إنه يمتد بين السورين (باب المناخية والعمارة الجوانية)^(٥) وذلك من خلال مقالة له في مجلة المشرق، وأما زقاق الشيخ علي البريدي^(٦) فقد ورد مفرداً في محلة السويقة المحروقة، أما زقاق الشماع فقد ورد في المصادر أنه زقاق الشماعين^(٧) في الشاغور. وواضح أنه المقصود في الوثيقة إذ ورد زقاق الشماع داخل باب الشاغور الجواني، وذكرت المصادر زقاق الزلافة الشهير (في منطقة الدقاين جنوب البزورية، وكان فيها حمام ركاب وحمام الصفى والاسم قديم)^(٨) وقد ورد في

(١) س ١ مشوش، وثيقة ٧٦٦ ص ٣٠٨، س ٢ مشوش، وثيقة ٢٨٠ ص ١٤٨. س ٣ مشوش، وثيقة ٥١٥ ص ٢٩٤. س ٢٣، وثيقة ٢٥ ص ١٣. س ٢٥، وثيقة ١٥٠ ص ٩٠. س ٢٥، ص ١٨٥، ص ٣٢٧. س ٢٦، وثيقة ١٨١ ص ٨٨.

(٢) سجل ٢٣ مشوش، وثيقة ١٥٩ ص ٥٧، وسجل ٢٥٥، وثيقة ٥٥، ص ٣٢. وس ٢٦ وثيقة ١٧، ص ٧، وثيقة ٢٥، ص ١٦، وثيقة ٣٥، ص ١٧.

(٣) س ١٠ مشوش، وثيقة ١٥٥، ص ٧٤، وس ١٧ مشوش، وثيقة ٣٢٦، ص ٧٤.

(٤) س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٦، ص ١٥، ص ١٥ مشوش، وثيقة ٦٨٢، ص ٢٢٠.

(٥) س ١ مشوش، وثيقة ٧٧٥، ص ٣١٢، ص ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٣، ص ١٣٣.

(٦) س ١٠ مشوش، وثيقة ٤٤٢، ص ١٣٥، ص ١٧ مشوش، وثيقة ٣٢٤، ص ٩٤.

(٧) س ٢ مشوش، وثيقة ٣٠٣، ص ١٥٨.

(٨) العلي، خطط دمشق، مرجع سابق، ص ٤٤١.

الوثيقة أن زقاق الزلافة في الشاغور الجواني. وهنا تطابقت مقولة المصادر مع الوثيقة التي جاء فيها أن زقاق السودان في محلة الجديدة وزادت المصادر (محلة الجديدة تابع محلة العقبة)^(١)، وذكرت الوثائق أن زقاق القبة البيضاء^(٢) في محلة الميدان كما هو واضح في الجدول. وكذلك المصادر التي ذكرت أن زقاق العسكري^(٣) والقبة البيضاء في الميدان، وأما زقاق المعاصر^(٤) الذي لم تلحظه الوثائق هنا بأية محلة فقد جاء في المصادر أنه قرب جامع حسان في محلة قصر حجاج. وفي حين لم تظهر الوثائق المحلة التي فيها زقاق المليحي^(٥) فقد ذكرت المصادر أنه في مأذنة الشحم.

هذا وقد وردت الأزقة الإحدى عشرة التي ذكرت في المصادر في السجلات^(٦).

إن هذه السجلات حوت على الكثير من أبنية دمشق وحاراتها وأزقتها، وقد تمكن عدد من الباحثين من تقديم وصف رائع وجميل لبيوتات دمشق ومحلاتها التي أفاضت السجلات في مسألة البيع والشراء والإيجار والاستئجار، مما دفع السماسرة إلى التلاعب بالعقود، وهذا أسفر عنه حدوث دعاوى أقامها أصحاب الدور التي شملت آنذاك دمشق القديمة قياساً بالوقت الحالي. ولهذا فإذا ألقينا نظرة على جداول أحجام الدور بدمشق نجد أن عدد الدور قد بلغ /٨٧/ سبعاً وثمانين داراً موزعة على مختلف محلات دمشق التي وردت في الوثائق ولم نحسب طبعاً أعداد البيوت التي كانت تضمها دور دمشق. وبلغ

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ط ١ ص ٧٤، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ٢ ص ١١٧ حيث ورد هنا حارة السودان.

Calette Establet – Jean poul pascual, familles. P. 162.

(٢) مارينو، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، مرجع سابق، ط ١ ص ٣٥٣.

(٥) مجلة العمران عام ١٩٦٦ ص ٧٤، س ٢ مشوش دفتر، وثيقة ٣٣١، ص ١٧٩.

(٦) س ٢ مشوش، ص ١٥٨، وثيقة ٣٠٣، ١١ جمادى الأولى ١٠٩١/الأحد ٩ حزيران ١٦٨٠، س

٣ مشوش، ص ١٩٦، وثيقة ٤٩٧، ٨ شعبان ١٠٩١/الثلاثاء ٣ أيلول ١٦٨٠، ص ٢٧٤، وثيقة

٧٧٤، ٣ شعبان ١٠٩١، الخميس ٢٩ آب ١٦٨٠.

عدد الدور غير المعروفة الحجم /١٥/ خمس عشرة داراً وهي نسبة تجاوزت السبع عشرة بالمائة ١٧,٢ % .

إن معظم الدور في وثائقنا كانت معروفة الحجم، وبلغ عدد الدور التي تشرب من (بئر ما معين) /٢١/ إحدى وعشرين داراً أي أكثر من الربع. وهي نسبة ليست قليلة، بينما الدور التي يأتيها بالطالع بلغ عددها /١٧/ سبع عشرة داراً وهي نسبة قليلة إذا أخذنا بهذه النسبة على الرغم من أننا بحاجة لدراسات أكثر عمقاً وتفصيلاً، وبوجود وثائق كثيرة حتى نتأكد دقتها من النسب وبشكل جازم. وبلغ عدد الدور التي تشرب بشكل مشترك من الطالع والبئر /٦/ ست دور وهي نسبة قليلة جداً إذا ما قورنت بعدد الدور لدينا، وهي /٨٧/. أما الدور غير المعروفة أسلوب الشرب فيها فقد بلغ عددها /٤٢/ اثنتان وأربعين داراً أي نصف عدد الدور مجتمعة تقريباً. وربما كان عدد الوثائق القليل نسبياً هو السبب في هذه النسبة إذ لو توافرت لدينا وثائق كثيرة بحيث تغطي فترة الدراسة فربما كانت النسبة غير ذلك. وكانت محلات الشيخ زكي، والسيدة رابعة، والجرن الأسود، والقاعة، وداخل باب شرقي، وباب مصلى، تشرب فقط من الآبار. ربما بسبب أوضاع الناس المادية، أو غلبة الصفة الشعبية على هذه الدور. أما فيما يتعلق بأحجام الدور فقد وجد دار حجمها /٣/ درجات في محلة السيدة رابعة والقنوات، وباب البريدي، وفي زقاق طالع الجمعة، وفي داخل باب شرقي، وفي الشاغور الجواني، وفي زقاق المسك، ووجد في محلة القبيبات أربع دور حجمها /٣/ ثلاث درجات، وفي محلة النصارى /٣/ ثلاث دور، أما الدور ذات الدرجة الرابعة فقد وجدت في محلة الصادرية والعقبة الكبرى، وفي مرجة دمشق، وفي داخل قلعة دمشق. وهذه المحلات قليلة، ومن الواضح أننا كلما تدرجنا في كبر حجم الدور فقد قلت المحلات التي تحويها، والمحلات التي حوت دوراً بحجم /٥/ خمس درجات هي: القباقيبة، ومحلة النصارى، وبينما المحلات التي فيها دور بحجم /٦/ ست درجات فهي : السويقة المحروقة فقط، أما الدور ذات سبع الدرجات فكانت في القنوات، وداخل باب الفرج، وفي الشاغور الجواني داران. وفي القبيبات دار. وهذا يدل أن المحلات عموماً كان يمكن أن تحوي بعض الدور الكبيرة. ومرة أخرى وجدت دار كبيرة حجمها /٨/ درجات في الشاغور الجواني وكانت أكبر دارين ذكرتهما الوثائق في

فترة البحث في محلة باب الجابية حيث بلغ حجم أحدها /٩/ درجات وحجم الأخرى /١٠/ درجات وهي أعلى نسبة، وكانت هذه الدار بباب الجابية بزقاق بين السورين (وتشتمل على براني وجواني، فالبراني يشتمل على ساحة سماوية، وجنيّة بها غراس أشجار فواكه متنوعة وبحرة ماء ناهدة^(١) مبلط ما حولها، يجري إليها الماء وإلى بقية حقوق الدار بحق خمسة أصابع وثلاث إصبع المستمد من القنوات، وإيوان قبلي وبجانبه من جهة الغرب قاعدة كبيرة، تشتمل ثلاثة أو اوين بشبابيك مطلة على الجنيّة، وأوردة صغيرة، وبحرة ماء ناهدة مبلط ما حولها بالبلاط المنوع وأوده^(٢) داخلها أوده وبكل منهما أوجاق^(٣)، وبالساحة المزبورة (المذكورة) اسطل به عدد معالف يعلوه أربعة أطباق وقصر علو الباب يصعد إليه بسلم خشب، ومرتفق ومنافع شرعية. أما الجواني فيشتمل على ساحة سماوية مبلطة بالبلاط المنوع فيها بحرة ماء ناهدة يجري إليها الماء من النهر المزبور وحوضان متقابلان بهما غراس متنوع وإيوان قبلي، به قبتان شرقية وغربية وكيلار^(٤) ومطبخ يعلوه أوده وقصر مطل على الساحة، يصعد لها بسلم حجر وخشب ومرتفق ومنافع ومرافق وحقوق شرعية^(٥)).

وكانت الدور كما هو واضح في الجدول تحوي مساكن^(٦) في بعض الأحيان. وكان عدد الدور التي تحوي غراساً /١٤/ أربع عشرة داراً، وهذه النسبة لا يمكن أن يركن إليها في ظل غياب العدد الكبير من الوثائق التي سوف تظهر من دون أدنى شك أن معظم دور دمشق القديمة كانت تحوي غراساً وبعضها يحوي جنيّة^(٧). وتحدثت الوثائق عن كثير من الدور الخربة في فترة البحث. والآن سوف نسرد بعض مشتملات البيت الشامي:

١ - صفة قمري: هي القبة التي توضع فيها نقاط إنارة، من الزجاج الملون.

(١) ناهدة: أي بركة مملوءة بالماء حتى أخذ يفيض.

(٢) أوده: غرفة، والبعض يلفظها بالضاء (أوضه) وهو الأصح.

(٣) أوجاق، كانون، منقل، مدخنة، موقدة. مدحت سرت أوغلو، مرجع سابق، ص ١١١. وكلمة أوده تعني غرفة وهي تركية الأصل

(٤) كيلار: بيت المؤنة. وردت لفظة المزبورة في الوثائق هكذا.

(٥) س ٢٦، وثيقة ١٢٥، ٨ صفر ١١١٢/الأحد ٢٥ تموز ١٧٠٠، ص ٦٣.

(٦) س ٢٦، وثيقة ٤٢٣، ١٦ ذي الحجة ١١١٢/الثلاثاء ٢٤ أيار ١٧٠١، ص ٢٠٦.

(٧) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩، ص ٩٢، وثيقة ٥٤١، ص ٢١٧.

- ٢ - القمرية: شباك صغير في أعلى القاعات، والمربعات، زجاجة ملون لا يفتح للهواء يدخل منه ضوء القمر^(١).
- ٣ - حجر أبلق: الأبلق هو الألوان الترابية، ناتج حل (مطحون اللون بالصمغ الراتنجي - الكثيرة - وبياض البيض، والخل، والغراء الحراء) بنسب معينة، وهو نوعان: آ - أبلق (غاير)، حيث يتم حفر الحجر، ويعبأ بمعجون اللون، ب - أبلق (مستو) وهو عبارة عن المعجونة، مدهونة على أساس كلسي فوق الحجر.
- ٤ - سقف أعجمي: هو السقف الطوان، والطوان عبارة عن تغطية الجسور الخشبية بغطاءات أسقف مستعارة، وقد يكون الغطاء خشبياً مزخرفاً زخرفة بسيطة أو معقدة، أو يكون قماشاً مزخرفاً.
- ٥ - ساباط مرخم^(٢): سقيفة بين دارين، تحتها طريق.
- ٦ - أبلق قاري أصفر: هي أنواع الحجر الذي يشغل عليه الأبلق.
- ٧ - الخراستانات^(٣): إحداها عبارة عن كتبية لها باب خشبي.
- ٨ - كتابي: مفردها كتبية^(٤)، وهي مكتبة برفوف خشبية، بلا أبواب، في جدار الغرفة العربية الدمشقية لوضع الزبادي الصيني، والشعدانات، والكازات والكتب.
- ٩ - حلقة رفو عجمي: هي عبارة عن رفوف مزخرفة ظاهره غير مغطاة، في الخراستينات.
- ١٠ - حلقة منقوشة: هي الإطار المحفور للخراستين.
- ١١ - يوك: خزانة داخل جدران الغرف، بلا باب، تغطيها ستارة، وتوضع فيها مادة فرش النوم، واللحف، والوسائد (المخدات)^(٥).

(١) سجل ٢٦، وثيقة ١٧، ص ١٨، وثيقة ٢٥، ص ١٢، ووثيقة ٣٦، ص ١٧.

(٢) دهمان في رحاب دمشق، ص ٤٨، المنجد، خطط دمشق، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) س ٢٥، وثيقة ١٠٢، ص ٣٧، ووثيقة ١٥٩، ص ٥٧.

(٤) سهام ترجمان، يا مال الشام، دمشق ١٩٦٩، ص ١٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٧. منير كيال، يا شام، في التراث الشعبي الدمشقي، دمشق، ١٩٦٤، ص ١٧٧. ولفظه يوك بالعثمانية تعني حمل ١٠٠,٠٠٠ قرش، وأيضاً تستخدم لقياس الصوف، مدحت سرت أغلو، التاريخ العثماني المصور، استانبول ١٩٥٩م، ص ٢٤٠.

- ١٢ - معذري نوع من الرخام الأحمر، من قرية (معذر) غربي الزبداني^(١).
- ١٣ - مزي: سمي الرخام بهذا الاسم نسبة لقرية المزرة.
- ١٤ - الرفراف: هو خط النهاية من الخشب المزخرف للفصل بين الجدار الحجري والكلسي.
- ١٥ - المربع: غرفة مربعة في الدار، لها عتبة، وتسمى أيضاً (المخدع)^(٢).
- ١٦ - القاعة^(٣): غرفة كبيرة في البيت العربي، جدرانها، وسقفها، من الخشب المطلي المزين بالزخارف العجمية، ولها فستقية ماء في عتبتها، أو فستقية ماء جدارية، وهناك قاعة بطزر وقاعة بطزرين أو ثلاثة، كما يوجد في صدر عتبة القاعة، مصب من الرخام والزخارف توضع فيه المرأة.
- ١٧ - المشرفة: هي الشرفة في الطابق العلوي، ذات الاتجاه الشرقي، داخلية في الغالب محمية من ثلاث جوانب.
- ١٨ - الإيوان: هو مكان الجلوس الصيفي، يطل دائماً نحو الشمال وارتفاعه عالي، وفتحته الأمامية قوسية، ومن الجهات الثلاثة الأخرى مغطى وعلي كتفيه اليميني والشمال غرفتان.
- ١٩ - كيلار^(٤).
- ٢٠ - بركة ماء ناهدة^(٥).

(١) دهمان، في رحاب دمشق، مرجع سابق، ص ٢١١، عبد القادر الريحاوي، قصور الحكام بدمشق، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢) ترجمان، مصدر سابق، ص ١٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٤) كيلار: وتعني بيت المؤنة (مخزن المواد التموينية).

(٥) Richard Thoumin, Dacteur es lettres Geographes humaine Dela Syrie Central. Tours, Arrout et cie maitres imprimeurs. 1936, 1, 81-83-84.

أيضاً: محمد حسين العطار الدمشقي، سلسلة دراسات ووثائق تاريخ دمشق الشام، دمشق ١٩٦٣، ص ١٧٠.

وكانت دمشق في فترة الدراسة تشرب من الأنهار لا سيما بانياس ومن القنوات التي كانت تصل مياهها إلى المقاسم ومنها إلى الطوالع، والطالع عبارة عن مربع تقريبا، يتراوح ضلعه ما بين ٥٠-٢٥٠ سم، ويكون إما على سطح ، أو مرتفع لغاية متر وهو يتلقى قساطل التغذية^(١).

ما يهمننا من هذه الدراسة العمرانية، تقديم نماذج وثائقية مضطربة في مواضعها متعددة الجوانب، ومن العينات التي نرغب بتقديمها تمثلها سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠م، وعلى الرغم من أن هذه الوثائق قد تجاوزت فترة الدراسة بسنة أو سنتين، ليس من باب الرغبة في البحث عن وثائق، وإنما لإظهار أن نماذج الوثائق بالغالب متشابهة في بداياتها، وسنورد جدولاً تبتدئ وثائقه بكلمة أو جملة حسب طبيعة موضوع الوثيقة.

٤- نماذج وثائقية مع جداول بالسجلات الوثائقية:

- ١ - وثيقة استئجار: (لدى العلامة القاضي عبد الحي الوفاي، استأجر فلان لنفسه)^(٢).
- ٢ - وثيقة إسهاد (شهد لدى مولانا العلامة السيد أبي بكر الحنفي... فلان وفلان... معرفة الحرمة فلانة.. المعرفة الشرعية)^(٣).
- ٣ - مقابلة... تقايل.. (لدى.. القاضي فلان... تقايل فلان وفلان... في عقد البيع الصادر للمقابل الأول من المقاييل الثاني في جميع الدار....)^(٤).
- ٤ - إلزام.. (ألزم ... القاضي فلان.... فلاناً بمبلغ قدره.... لفلان)^(٥).
- ٥ - إصداق.. (لدى مولانا القاضي.... أصدق فلان.. مخطوبته فلانه الخلية من الموانع الشرعية.... صداقاً قدره....)^(٦).

(١) سجل ٤٥، وثيقة ٢٠٧، ص ٢٥٧، وسجل ٥٢، وثيقة ٥٤٦، ص ٩٧.

(٢) السجل ١ مشوش، وثيقة ٧٥١، ص ٣٠٣. سوف نرسم إلى السجل بحرف (س).

(٣) س ١ مشوش، ص ٣٠٦، وثيقة ٧٥١، ص ٣٠٦.

(٤) المقابلة والمفاصلة، المفاصلة تقايل البايعان: تفاسخا صفقتهما، وتقابلا إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكة، س ١، ص ٣٠٦، وثيقة ٧٦٠.

(٥) س ١ مشوش، ص ٣٠٦، وثيقة ٧٦١.

(٦) س ٢ مشوش، ص ١٣٥، وثيقة ٢٤٨.

- ٦ - وقف (لدى مولانا القاضي... أشهدت عليها فلانة بنت فلان وولدها فلان بن فلان..
الإشهاد الشرعي طايعين مختارين في صحتها وسلامهما وجواز الأمر الشرعي)^(١).
- ٧ - إدعاء... لدى مولانا القاضي... ادعى المعلم فلان... على فلان... بكذا...^(٢).
- ٨ - فرض.. فرض مولانا..... القاضي.... للمدعوة... فلانة بنت فلان.. برسم طعامها
وشرابها وزيتها وصابونها وحمامها وساير أمورها الشرعية التي لا بد منها ولا
غنى عنها في كل شهر من تاريخه.. كذا ..^(٣).
- ٩ - عودة... لدى مولانا العلامة.... عادت الحرمة فلانة بنت فلان ... المرأة الكاملة
إلى عصمة مخالعتها من تاريخه.... بموجب حجة مسطرة بالمجلس على صدق
قدره.... كذا^(٤).
- ١٠ - استبدال .. حيث تم بيع دار موقوفة.. نظراً لخراب الوقف وتكسير أخشاب سقف
الوقف... وذلك من أجل شراء دار أخرى بالموصفات نفسها تقريباً وبحيث تكون
كالمثل من أجل إيقافها بدلاً عن دار الوقف المباعة وتسمى هذه العملية بالاستبدال^(٥)...
- ١١ - تناقل... لدى سيدنا العلامة القاضي... تناقل فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان...
بأن دفع المناقل الأول من جهة وقف والدته.. جميع الدار ... بباطن دمشق، ليأخذ
عوضاً عنها من المناقل الثاني داراً أخرى^(٦).
- ١٢ - فراغ.. لدى... القاضي... فرغ فلان بن فلان عن حق تصرفه للأخوين فلان
وفلان... أبناء فلان... في جميع مشعر مسكة فلاحه قطعة الأرض^(٧)....

(١) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧١، ص ١٤٤.

(٢) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٩١، ص ١٥٤.

(٣) س ٢ مشوش، وثيقة ٣٠٢، ص ١٥٨. كلمة ساير عامية، والفصحى منها سائر.

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٣٤٥، ص ١٨٣.

(٥) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩٥، ص ١٩٥.

(٦) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩٩، ص ١٩٦.

(٧) س ٣ مشوش، وثيقة ٥٦٦، ص ٢٢٩.

١٣ - تعويض: لدى... القاضي... تعوّضت الحرمة فلانة بنت فلان لابنتها القاصرة..
فلانة بنت فلان.... من فلان ابن فلان... الوكيل عن الوصي الشرعي على
القاصرة فلان ابن فلان... عن مبلغ كذا^(١).

١٤ - تزويج: لدى... القاضي... زوّج فلان بن فلان ابنة أخته فلانة بنت فلان القاصرة
عن درجة البلوغ، وتحت ولايته لعدم وجود ولي أقرب منه يلي تزويجها... وتحت
إيصائه بموجب حجة شرعية... زوّجها بولد الحاج قبطان بن عبد الله هو أحمد
القاصر أيضاً عن درجة البلوغ^(٢).

١٥ - قبض: لدى القاضي... قبض فلان بن فلان وتسلم وصدر إليه المصير الشرعي
من.... فلان بن فلان مبلغاً قدره... كذا^(٣).

١٦ - إقرار: لدى مولانا القاضي... أقرّ فلان بن فلان.. الإقرار الشرعي في صحة منه
وسلامة وطوعية واختيار من غير إكراه ولا إجبار وجواز الأمر الشرعي إن عليه
وعنده وفي ذمته بحق شرعي مبلغاً قدره^(٤)...

١٧ - حضور: لدى... القاضي... حضر جماعة من طائفة الطحانيين بدمشق وقدروا من
كلامهم^(٥)....

١٨ - أخبار: لدى... القاضي... جماعة من دمشق أخبروا الحاكم... كذا^(٦)...

١٩ - توجه إلى.... أنه بإذن مولانا القاضي... توجه فلان بن فلان إلى^(٧)....

(١) س ٣ مشوش، وثيقة بلا رقم (بين الوثيقة ٥٦٧، والوثيقة ٥٦٨)، ص ٢٣٠.

(٢) س ٤ مشوش، وثيقة ١٤٣، ص ٧٣.

(٣) س ٤ مشوش، وثيقة ١٤١، ص ٧٣.

(٤) س ١٠ مشوش، وثيقة ٢٠٣، ص ٩٤.

(٥) س ١٧ مشوش، وثيقة ١٦١، ص ٤١.

(٦) س ١٧ مشوش، وثيقة ١٧٢، ص ٤٤.

(٧) س ١٧ مشوش، وثيقة ١٩٥، ص ٥٠.

- ٢٠- دفتر بيان مخلفات المرحوم... فلان بن فلان المتوفي مثلاً في طريق الحج^(١).
- ٢١- ضبط... لدى مولانا القسم... دام فضله... بعد أن توفت فلانة بنت فلان إلى رحمة الله... وانحصر إرثها في فلان.... وفلان... ضبط... ما تخلف عنها^(٢).
- ٢٢- تنصيب.. نصّب... القاضي... القسم... حاملة هذا الكتاب... وصية على أولادها^(٣).
- ٢٣- شراء.. لدى.. القاضي القسم.... اشترى المعلم فلان من فلان بماله لنفسه من فلان بن فلان وذلك جميع^(٤)....
- ٢٤- إقامة... أقام مولانا.. القسم.. حامل هذا الكتاب الشرعي فلان بن فلان ناظراً شرعياً من قبل الشرع الشريف على... كذا^(٥)...
- ٢٥- تسلّم... لدى مولانا... القسم... تسلّم الأخوان الشقيقات فلان وفلان أولاد فلان... وصار لهما المصير الشرعي من فلان... في جميع الأعيان^(٦)....
- ٢٦- تصادق... لدى مولانا... أحمد أفندي.. تصادق فلان بن فلان... الوكيل الشرعي عن فلان... مع فلان بن فلان تصادقاً شرعياً في صحة منهما وسلامة وطوعية واختيار وجواز الأمر الشرعي.. على... كذا^(٧)...
- ٢٧- إثبات... ثبت لدى مولانا القاضي... بالبينة الشرعية... معرفة فلان بن فلان الغائب عن المجلس^(١)...

(١) س ١٧ مشوش، وثيقة ١٩٦، ص ٥٠٩.

(٢) س ١٧ مشوش، وثيقة ٣١٠، ص ٨٩.

(٣) س ٢٣، وثيقة ٢، ص ١.

(٤) س ٢٣، وثيقة ٦، ص ٤.

(٥) س ٢٣، وثيقة ٩، ص ٥.

(٦) س ٢٣، وثيقة ٦٤٢، ص ٣١٧.

(٧) س ٢٣ مشوش، وثيقة ١٢٢، ص ٤٣.

٢٨- إيقاع... لدى مولانا السيد أحمد أفندي دام فضله... أوقعه على وجه جميلة بنت مصطفى الأصيلية عن نفسها والوصية على أخيها لأمها حسين بن أبي الدر القاصر عن درجة البلوغ وفي وصايتها من قبل الحاكم المومي إليه يومئذ... إيقاعاً شرعياً^(٢)..

٢٩- سؤال... لدى... القاضي .. سألت الحرمة رقية بنت إبراهيم المرأة الكاملة زوجها فلان بن فلان... أن يخلعها من عصمته، عقد نكاحه على براءة ذمته لها من^(٣)...

٣٠- تقاسم... لدى مولانا... القاضي... تقاسم المعلم فلان بن فلان بالوكالة عن ولده العلم فلان... وفر الأعيان المعتبرين فلان بن فلان وذلك جميع الجنينة^(٤)....

٣١- تقرير... قرر مولانا القاضي... حامل هذا الكتاب... مفخري السادة الأشراف فلان وفلان ولدي فلان... في وظيفة نظارة وقف^(٥)....

٣٢- إبقاء... أبقي مولانا القاضي السيد أحمد أفندي الحنفي.. وظيفة الإمامة بالمسجد بيد حامل هذا الكتاب^(٦)..

٣٣- إذن... أذن مولانا أعلم العلماء المتبحرين السيد الشريف عبد الرحمن أفندي القسم العسكري بدمشق دام فضله.. لحافظ هذا الكتاب الشرعي وناقل ذا الخطاب المرعي

(٨) س ٢٣ مشوش، وثيقة ١٤٩، ص ٥٣.

(١) س ٢٥، وثيقة ٢١، ص ١٦.

(٢) س ٢٥، وثيقة ٥٢، ص ٣١.

(٣) س ٢٥، وثيقة ١٠٧، ص ٦٥.

(٤) س ٢٥، وثيقة ٢١٦، ص ١٢٨.

(٥) س ٢٥، وثيقة ٢٤٢، ص ١٤٢.

الحاج أحمد بن مكي المولى على يتيم ولده محمد شاهر القاصر مصطفى.. في تعاطي مصالحه الشرعية وواجباته المحررة المرعية^(١)...

يلاحظ مما سبق أن هذه النماذج الوثائقية قد قدمت لها جوهر المشكلات أو الأحداث بكل أنواعها، لكنها أخفت عنا تفاصيلها، وها يقتضي العودة إلى وثائق المحكمة الشرعية في استانبول حيث كانت حيثيات الدعوى ترسل إلى هناك مشفوعة برأي العلماء والفقهاء، وأئمة المذاهب، وكانت استانبول ترسل رأي مشيخة الإسلام في استانبول^(٢).

(٦) س ٢٦، وثيقة ٦٣، ص ٣١ .

(٦) خليل ساحلي أوغلو، الوثائق الشرعية المنقوصة، استانبول ١٩٧٤، ص ١١-٢٠.

**جدول يظهر عدد السجلات وعدد الوثائق
التي تغطي بمعظمها فترة البحث**

رقم السجل	رقم الصفحة الأولى	رقم الصفحة الأخيرة	عدد الوثائق	السنة	رقم السجل	رقم الصفحة الأولى	رقم الصفحة الأخيرة	عدد الوثائق	السنة
١ مشوش	٣٠٣	٣٣٨	٨٢٢	١٠٩٨ ١٠٨٩	٥	١٤٩	٢٧٠	٢٥٢	١٠٧٩ ١١٠٠
٢ مشوش	١٣٢	٢١٢	٤٠٢	١١٠٩ ١١٠٩	١٠	١	١٩٥	١٩١	١٠٩١ ١١٠٢
٣ مشوش	٤١	٤٢٧	١٠٩٨	١١٠١ ١١٠٨	١١	١	١٨٢	٣٥٤	١٠٩٢ ١٠٩٢
٤ مشوش	٥٩	١٢٦	٢٨٦	١٠٩١ ١٠٩١	١١ قسم ٢	١	١٦٠	٣٢٨	١٠٩٢ ١٠٩٣
٥ مشوش	١	٢٤٣	٢٤٤	١١٠٦ ١١١٤	١١ قسم ٣	١	١٨	٢٩١	١٠٩٢ ١٠٩٣
٦ مشوش	٨٢	٤١٧	٦٤٥	١١٠٥ ١١٠٧ ١١١٢	١٢	١	٤٢٦	٨٠٤	١٠٩٣ ١٠٩٥
٧ مشوش	١	٦	١٦	١١٠١ ١١٠٦	١٣	١	١٩٣	٤٣٣	١٠٩٣ ١٠٩٥
٨ مشوش	١	١١٣	٢٧٥	١١٠٦ ١١٠٩	١٤	١	٤٤٣	٩٣١	١٠٩٥ ١٠٩٧
١٠ مشوش	١	١٢٠	٢٩٤	١١٠١ ١١١١	١٥	١	٢٧٥	٢٥١	١٠٩٧ ١١٠١
١٢ مشوش	١	٤٠	١٢١	١١٠٦ ١١٠٧	١٦	١	٢٢٨	٤٢٣	١٠٩٩ ١١٠١
١٣ مشوش	١	١٠٠	٣٠١	١١٠٦ ١١٠٦	١٧	١	١٦٠	٣١٩	١١٠٠ ١١٠١
١٤ مشوش	١	١٦٦	٣١١	١١٠٧ ١١١١	١٨	١	٣١٣	٥٠١	١١٠٠ ١١٠١
١٥ مشوش	٢	٢٣٦	٧٢٦	١١٠٧ ١١٠٧	١٩	١	٤٨٨	٤٩٤	١١٠١ ١١٣٠
١٦ مشوش	١	١٢	٣٢	١١٠٧ ١١٠٧	٢٠	١	٣٣٢	١٠٨٤	١١٠٢ ١١١٠
١٧ مشوش	١	٩٨	٣٤٧	١١٠٨ ١١٠٩	٢١	١	٢٠٦	٣٨٣	١١٠٧ ١١٠٧
١٨ مشوش	١	٩٦	٢٥٨	١١٠٨ ١١٠٦	٢٣	٢٩	٣٢	٦٥٨	١١٠٩ ١١١٠
١٩ مشوش	١	١٦	٢٥	١١٠٨ ١١٠٨	٢٥	١	٢٤٩	٤٢٩	١١١٣ ١١١٤
٢٠ مشوش	١	٤١	١٢٤	١١٠ ١١١٠	٢٦	١	٤٤٦	٨٦٧	١١١٣ ١١١٣
٢٣ مشوش	١	١٤٠	٣٧٦	١١١٠ ١١١١					

٥- عقود البيع والشراء والاستئجار:

كل وثائق الشراء تسيّر على نسق متقارب، مثلاً: (لدى مولانا العلامة... اشترى فلان بن فلان من أهالي قرية كذا أو مدينة كذا.. لنفسه من فلان بن فلان أو فلانة بنت فلان أو وكيل فلان بن فلان أو وكيل فلانة بنت فلان.. من أهالي قرية أو مدينة كذا .. فباعه ما هو جار في ملكه وحوزه ويده وطلق تصرفه بالطريق الشرعي وذلك جميع البيت.. بقرية كذا.. المشتمل على منافع شرعية^(١)...

كان يتم تحديد قضايا البيع والشراء وتوصيف المباع أو المستأجر يبدأ دائماً من القبلة، فالشرق، فالشمال، فالغرب^(٢)، والابتداء بالقبلة قد يكون مرتبطاً بالاتجاه نحو الأماكن المقدسة. وبعد تحديد الأماكن المشتراة أو المستأجرة كانت تذكر عبارات: (المعلوم ذلك عندها أو عندهم أو عنده علماً شرعياً نافياً للجهالة شرعاً اشتراه وبيعاً شرعيين باقين لازمين مرضيين مشتملين على الإيجاب والقبول والتسلم والتسليم لذلك بعد النظر والخبرة والمعاقدة الشرعية على ذلك من غير غبن صدر في ذلك ولا حيف ولا فساد بثمن قدره لذلك.. كذا حالة مقبوضة بيد البائع من المشتري... باعترافه بذلك لديه الاعتراف الشرعي. وما كان في ذلك من درك وتبعه فضمامه على البائع حيث يجب شرعاً وتصادقاً على ذلك كله تصادق شرعي وثبت ذلك لديه بشهادة شهوده وبصريح الاعتراف لديه بذلك كله ثبوتاً شرعياً، وحكم بموجب ما ثبت عنده من ذلك حكماً شرعياً أوقعه على وجهه أو وجهها أو وجههم إيقاعاً شرعياً بالتماس الشرعي واعتبار ما وجب شرعاً^(٣). وقد ترد أحياناً عبارة: (قاص البائع للمشتري بجميع الثمن المذكور نظير ما

(1) سجل ١ مشوش ، وثيقة ٧٦٦، ص ٣٠٨. ونلاحظ هنا أنه لم يتم في الوثيقة التسجيل من المشتملات سوى المنافع الشرعية. كما نلاحظ أن بعضاً من هذه المشتملات قد أصابها تلف، وبعضها الآخر، خراب، وبيعت غياباً، ولم يكن بإمكان الشاري الاحتجاج على شرائه.

(2) The Significance of the Awqaf documents of the 19th-2010th century Damascus to current research – Rondi Deguil hem- Schaem. P, 97.

(3) سجل ١ مشوش، وثيقة ٧٦٦، ص ٣٠٨، أقيمت دائماً عبارة الوثيقة كما وردت. آثرنا عدم الإكثار من التعليق على ما ورد في الوثائق، انسجاماً مع جوهرية الوثيقة.

يستحقه في ذمته بموجب التمسك المحكي أعلاه المقاصة الشرعية المقبولة شرعاً ... ثم بعد تمام ذلك أقر البائع الإقرار الشرعي أن عليه وعنده وفي ذمته بحق لازم شرعي.. للمشتري.. مبلغاً قدره... على حكم الحلول الشرعي مقراً بملاته وقدرته على ذلك ولزم ذمته ذلك له من جهة دين شرعي استدان منه قبل تاريخه وتسلمه حسب اعترافه بذلك لديه شرعاً الاعتراف الشرعي وصدق المقر لهما على ذلك وقبله لنفسيهما تصديقاً وقبولاً شرعيين^(١).

وفي وثائق الشراء والاستئجار كانت تتم الإشارة دائماً إلى كيفية انتقال الشيء المباع أو المستأجر للبائع أو المستأجر: (فباعته ما هو جارٍ في ملكها وحوزها وببيدها ومنتقل إليها إرثاً شرعياً عن والدها الانتقال الشرعي بالطريق الشرعي)^(٢).

أما فيما يتعلق بالبيوت فقد كان القيراط دائماً وحدة قياس المساحة فيقال مثلاً: (جميع الحصة الشايعة وقدرها ستة عشر قيراطاً من جميع الدار)^(٣). وهو دائماً ١/٢ من مجموع المساحة^(٤). وإذا كان الشيء المباع حصصاً شايعة كوئيتتنا هذه فسترد مثل عبارة: بحق ذلك كله شركة ابنة البايعة الحرمة خاطي بالثلث الثالث تكملة سهام الدار المزبورة^(٥).

وتذكر وثائق كثيرة عملية انتقال الملك إرثاً أو شراء عبر سلسلة أحياناً من الأسماء وبهذا الصدد يذكر اسم القاضي الذي أصدر حجة التملك وتاريخ الحجة والمحكمة التي صدرت بها مثلاً: (... ومنتقل إليه بالبيع الشرعي من الحرمة فلانة بنت فلان.. بموجب حجة شرعية صادرة من قبل أعلم العلماء القاضي.... فلان بن فلان مرفقاً بجملة من الصفات المبجلة.. أعلم العلما المتبحرين.. أفضل الفضلا المدققين.. معدن العلم واليقين مولانا... فلان... وتذكر صفته، المولي خليفة «أي نائب القاضي العام الحنفي» يذكر اسم المحكمة وتاريخ الحجة... وإلى الحرمة فاطمة البايعة المزبورة بالبيع الشرعي من

(١) سجل ١ مشوش، وثيقة ٧٦٣، ص ٣٠٧.

(٢) سجل ١ مشوش، وثيقة ٧٧٦، ص ٣١٢.

(٣) سجل ١ مشوش، وثيقة ٧٧٦، ص ٣١٢. القيراط وحدة وزن شرعية وعامة لدى الدول الإسلامية يساوي ١/٢ من المتقال = ٥ حبات شعير، عامر، المكايل والأوزان، دمشق ١٩٩٧، ص ٦٥.

(٤) نوفان رجا الحمود، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، دار الأخلاق الأبجدية، بيروت، ص ١٤٠ هامش (١).

(٥) س ١ مشوش، وثيقة ٧٧٦، ص ٣١٢. المزبورة: المذكورة سابقاً.

الحرمة فلانة بنت فلان... الأصيلة عن نفسها والوصية على ولدها.. القاصر عن درجة البلوغ وتحت إيصائها بالطريق الشرعي ومن بناتها الثلاث وهن فلانة وفلانة المرأتان الكاملتان وعائشة البكر البالغ بنات فلان بن فلان.. بموجب حجة شرعية صادرة من قبل مفخر العلماء والمدرسين الكرام... فلان بن فلان المولى خلافة سابقاً بمحكمة كذا... مؤرخة بالتاريخ الفلاني...^(١)، وأحياناً أخرى تصادفنا وثيقة فيها أكثر من مشتر واحد وقد يكون أحدهم وكيلاً عن أشخاص آخرين ووصياً شرعياً على بعضهم الآخر. فمثلاً: (اشترى أصالة وبالوكالة الشرعية عن والدته فخر المخدرات المصونة فاطمي خاتون^(٢)، ابنة فلان بن فلان.. المرأة الكاملة الثابتة وكالته عنها في ذلك وتوابعه وأفراده وسائر ما يأتي فيه على الوجه الذي سيشرح فيه... في وجه خصم شرعي جاحد للتوكيل المزبور هو البائع الآتي ذكره فيه لديه بشهادة فلان بن فلان.. وفلان بن فلان.. العارفين بها وبالإيصاء الشرعي على أخيه شقيقه فلان القاصر عن درجة البلوغ وتحت إيصائه بحجة شرعية سابقة على تاريخه لما رأى في ذلك من الحظ والمصلحة الشرعية العائد نفعها على القاصر بالطريق الشرعي.. بمال المشتريين والموكلة وجهة القاصر على الفريضة الشرعية... «ويذكر هنا اسم البائع فلان ابن فلان» فباعهما وللموكلة وجهة القاصر ما هو جار في...^(٣).

مما سبق نرى أن الوثائق كانت تذكر بالتفصيل كيفية انتقال الملك بين الأفراد مع ذكر الحجج وأسماء القضاة الذين أصدروها وأسماء المحاكم التي جرت فيها واقعة الشراء. وتذكر الوثائق بالتفصيل أيضاً الأشياء المشتراة أو المباعة سواء كانت سكنية أم زراعية أم تجارية، مشتملاتها وحدودها وكيفية انتقالها كما ذكرنا^(٤). وتصادفنا عبارات في آخر كثير من الوثائق مثل: (وعلم المشتري أن على الدار المزبورة نصف غرش^(٥)

(١) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٤، ص ١٣٣.

(٢) لاحظ التبجيل عندما تكون المرأة من عليّة القوم.

(٣) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٥، ص ١٣٧.

(٤) السجل والصفحة والوثيقة السابقة.

(٥) لفظة قرش يجوز لفظها بالغين أو بالقاف، وقد ضرب القرش الفضي في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) وكان على نوعين، قرش صاغ ويساوي (٤٠) بارة والقرش الرائج يساوي (١٠) بارات، وقد اعتمد القرش كعملة رسمية زمن السلطان أحمد الثاني ١٦٩١-١٦٩٥ م. عامر، المكايل، مرجع سابق، ص ١٩٠.

على سبيل الحكر^(١) في كل سنة لجهة الحرمين الشريفين وأن الدار المزبورة مكتتبة في دفتر التحرير لجهة العوارض السلطانية من الأدنى ورهن بذلك الرضى الشرعي وجرى ذلك كله بحضور فلان ابن فلان وفلان بن فلان ومعرفتهما لذلك وإطلاعهما عليه^(٢).

والعوارض السلطانية التي ذكرتها الوثيقة هي: ضرائب تفرض على الحرف والصنائع والحارات في الشام مرة أو مرتين في السنة، وكان يطلق على جميع هذه الضرائب اسم عام هو «عوارض ديوانية» أي رسوم وضرائب الديوان، لأنها كانت تفرض بأمر يصدر من الديوان بعد موافقة السلطان عليها، والعوارض هي الضريبة العارضية المتنوعة التي يدل عليها اسمها، التي كانت الدولة العثمانية تلجأ إليها عند الضيق، وكانت تكلف بها أناساً من دون غيرهم، الخطيب، والإمام، والشريف، والقائم ببعض الخدمات للدولة كانوا يستثنون منها، وهذه الضريبة قد تكون عينية، وقد تكون خدمة بدنية، وقد تكون نقدية وذلك حسب الوضع، وكانت كل /٤/ إلى /٥/ خانات تشكل «خانة عوارض» توزع عليها هذه الضريبة فتتال كل عائلة نصيبها منها^(٣). وقد بينت وثيقة واحدة من الفترة الأولى أن جميع المبيع وهو طاحون وجنيئة قد تم رهنه عند البائع للتأكد من دفع الثمن الذي كان قد قسّط على عشرة أقساط متساوية من قبل المشتري^(٤).

(١) لقد كرر ذكره في الوثائق.

(٢) سجل ٢ مشوش، وثيقة ٢٦٨، ص ١٤٣.

(٣) خليل (ساحلي) أوغلو، ميزانيات الشام في القرن (١٦)، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الأردن ١٩٧٤، ص ٥٠٢-٥٠٣. وأيضاً: البديري، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥هـ / ١٧٤١م جمعها الشيخ أحمد البديري الحلاق، نقحها: الشيخ محمد سعيد القاسمي، وقف على تحقيقها ونشرها دكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس القاهرة ١٩٥٩ ص ٢١٣.

(٥) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧.

وبالنسبة للعوارض السلطانية التي ذكرناها سابقاً كانت على ثلاثة أنواع أدنى، أوسط، أعلى، ولكن في حالات أخرى لم يتم تحديدها، وهناك دور لم يسجل في الوثائق أنها مكتتبه في دفتر التحرير لجهة العوارض السلطانية^(١) وبعض الدور كان يكتب في الوثيقة أنه ليس عليها عوارض سلطانية ولا تكاليف عرفية وأنها خارج من دفتر التحرير من قديم الزمان^(٢) وبعض الدور مكتتبه بدفتر التحريرات السلطانية من الأوسط^(٣).

٦- الدور المشتراة :

أما فيما يتعلق بالدور المشتراة داخل قلعة دمشق فلم يسجل على أية دار منها أنها مكتتبه بدفتر التحرير لجهة العوارض السلطانية. لأن القلعة مركز عسكري، وعلى الأغلب فإن الدور فيها معفاة من هذه الضريبة^(٤). وكانت بعض الدور ولا سيما في الأحياء المسيحية مكتتبه في دفتر التحرير لجهة العوارض السلطانية من الأعلى^(٥).. وكان يمكن أن يتم شراء عمرة الدار من دون أرضه^(٦)، ولوحظ أن كثيراً من الدور المشتراة داخل القلعة يتم بيع عمارتها فقط وكانت مقسطة على أجزاء كثيرة مثلاً: (جميع الحصاة الشايعة وقدرها ستة قراريط ونصف قيراط وربع قيراط من عمارة الدار داخل القلعة)^(٧)، وقد تكون الدار خارج القلعة ومقسمة أيضاً على أجزاء مثلاً: جميع الحصاة الشايعة وقدرها خمسان من خمسة أخماس من جميع الدار^(٨).. وفي مرات كثيرة كانت العادة سواء دمشق أو في الريف، وبعد أن يتم الاتفاق على الشراء بسعر معين، أن يؤتى إلى المحكمة (بصرة فلوس مجهولة العدد وخاتم فضة بحجة معدن مجهول القيمة ثم يتصرف

(١) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٥٧، ص ١٣٨.

(٢) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٤، ص ١٣٣، س ٣ مشوش، وثيقة ٥٤٤، ص ٢١٩.

(٣) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧٦، ص ١٤٧.

(٤) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٥٢، ص ٢٦٤.

(٥) س ٤ مشوش، وثيقة ١٤٢، ص ٧٣.

(٦) س ١٧ مشوش، وثيقة ٣٢٦، ص ٩٣.

(٧) س ٢٣، وثيقة ٥٥٦، ص ٢٦٧.

(٨) س ٢٥، وثيقة ١١٠، ص ٦٦.

البائع بإتلاف الصرة بالمجلس وإطلاعه على ما فيها من القروش وإطلاعه أيضاً على الخاتم^(١)، وهذه كانت عادة البائعين والمشتريين أو أكثرهم في فترة الدراسة، وهذه العادة تدل على الثقة وأن الناس تثق ببعضها متأكدة من أن ما في الصرة لا يمكن أن يلحق بها الغبن؟. وبعض الوثائق تأتي على ذكر صرة الفلوس بشكل عابر من دون تحديد ماهية هذه الصرة^(٢). وذكرت وثائق أخرى أن الصرة هنا عبارة عن جراب جلد فيها غروش مجهولة العدد^(٣).

ووردت في الوثائق بعض التلال كتلة الحراث^(٤)، وكان هناك زقاق باسم زقاق تلة^(٥) أمير خور، وسمي أحد الأزقة باسم زقاق الشارع وتسمية الشارع^(٦) بدمشق كانت قلما ترد، بل يمكن ذكر الطريق السلطاني^(٧). وكان يجب أن يطلق عليه الشارع السلطاني أي الشارع الرئيسي فقد سمي مثلاً الشارع الرئيسي، بالميدان الشارع السلطاني حيث كانت تسلكه قافلة الحج الشامي وهي متجهة إلى الديار المقدسة^(٨).

(١) س ٢٦، وثيقة ٥٠٠، ص ٢٥.

(٢) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٢٤، ص ١٠٧. الصرة تعريفها: قطعة قماش بها نقود معدودة ومعلومة ولا يجوز في الغالب مخالفة ما فيها أخلاقياً.

(٣) س ١٣ مشوش، وثيقة ٧٧٤، ص ٢٧٤. وجاء في إحدى الوثائق أن صرة الفلوس عبارة عن غروش موضوعة ضمن كيس ألجا، والألجا قماش مخطط عليه تكون السدى من الحرير واللحمة من القطن وكان الحجاج يجلبون معهم نسيج صنع في جوجارات بالهند من القطن والحرير الممزوج وهو ألجا. وهناك ألجا أحمر عباد، وألجا سورات، وألجا صاجي، وألجا لاهور. وكانت ألجا الشامية مشهورة أيضاً.

Colette Establet – Jean paul pascaul Ultime voyage pour la Meque. P. 174, 142

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٣١٥، ص ١٨٥.

(٥) س ٢٦، وثيقة ٨٣، ص ٤١. أي تلة أمير الإسطنبول.

(٦) س ٢٥، وثيقة ٢٢، ص ١٧. إن كلمة زقاق تركية وتعتمد بالوثائق.

(٧) س ٢٥، وثيقة ٧٢، ص ٤٢.

(٨) رافق، البنية الاقتصادية والاجتماعية مرجع سابق، ص ١٥-١٩. أطلق عليه الشارع السلطاني، ليدل على أن السلطان راع وحام لحجاج بيت الله الحرام، وهو الشارع الوحيد في الدولة العثمانية وحصرًا بدمشق أي شام شريف، أرشيف رئاسة الوزراء استانبول، الدفتر الهمايوني رقم ١٥٧ ص ٣١٧.

٧- الشهود في الوثائق:

لوحظ وبشكل دائم أن الوكالة كانت تستدعي شهوداً سواء كانت وكالة عن رجل أو امرأة^(١)، وكانت الوصاية سواء على قاصر أو قاصرة تستدعي شهوداً كذلك^(٢)، وكان يمكن أن تسقط الشفعة عن مبيع ما (لجهالة في بعض الثمن)^(٣). ورد في إحدى الوثائق أن القاضي محمد بن عمر الشافعي باع ما في ملك الحاج علي بن علي بن وفاء المصري لوفاء ما في ذمته من دين لمفخر الأفاضل الشيخ علي بن الشيخ أمين الداراني الذي كان وصياً على أحد القاصرين وقد كان لهذا الرجل الأخير ديناً على المصري الذي باع القاضي داره. وهنا أذن القاضي عمر الشافعي الذي كان حاكماً بالمحكمة نفسها التي جرت فيها عملية البيع في دفع ثمن الدار للشيخ علي الداراني من مبلغه المترتب له في ذمة الغائب، وهو الحاج المصري فدفع له ثمن الدار على الرغم من أنه قد بقي (عشرون غرشاً) ديناً في رقبة صاحب الدار المبيعة^(٤).

وأما في أثناء عملية الشراء فقد لوحظ في جميع الحالات أنه كانت تتم الإشارة إلى نقطة أساسية وهي المال الذي من خلاله يتم الشراء. فهل هو مال المشتري وفي هذه الحالة كانت ترد عبارة بماله لنفسه^(٥). وإذا كان المال للموكل وليس للوكيل فيقال: بمال موكله المومي إليه دون مال نفسه^(٦)، وقد يقال في حال كان المشتريان رجلين: بمالهما سوية بينهما نصفين^(٧)، وفي مرات قليلة وبعد إتمام عملية البيع والشراء كان يرد (ثم أطاع المشتري للبائع إطاعة شرعية أنه متى أحضر له نظير الثمن المزبور من تاريخه

(١) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٧٦، ص ١٤٧.

(٢) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٥٢، ص ٢٦٤.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٧٧٤، ص ٢٧٤.

(٤) س ٢٥، وثيقة ١٨٥، ص ١١٠. وكان القرش في أثنائها يساوي ٨٠ أقة.

(٥) س ٢٦، وثيقة ٨٨، ص ٤٣.

(٦) س ٢٦، وثيقة ١٨١، ص ٨٨.

(٧) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٣٣، ص ٢٥٦.

وإلى مضي سنة كاملة من تاريخه يكون جميعه مردوداً عليه وحقاً له إطاعة شرعية^(١)، ويدل ذلك على علاقة إنسانية كان يتصف بها مجتمع دمشق وقت ذاك وكمثل على ذلك أيضاً: (قبض يوسف آغا مبلغاً قدرة (١٦٠) مائة وستون غرشاً من البايعة - للدار - رحمة وذلك من دين قدره (٢٠٠) غرشاً فضة أسدية تستحق موكلته لطيفة بذمة البايعة رحمة وتم إبراء ذمة رحمة حتى من الأربعين غرشاً الباقية)^(٢). وذكر في الوثيقة نفسها أن رجلاً آخر هو الحاج علي كان له دينٌ على البايعة رحمة مبلغاً قدره (١٢٠) غرشاً فقبض منها (٨٠) غرشاً وأبرأ ذمتها كذلك بالأربعين غرشاً الباقية، وعلاوة على ذلك فقد فكَّ الرهن الذي كان على البيع وهو الدار الذي باعتته رحمة المذكورة، وفي أحيان أخرى كان يبقى الدين بذمة البايع (كان للموكلة دينٌ على البايع فقااصصها بثمان المبيع وهو ٢٠/ عشرون غرشاً وبقي لها في ذمته ٢٠/ عشرون غرشاً أخرى مؤجلة على حكم الحلول الشرعي)^(٣).

ولوحظ أنه في حالات قليلة وبعد أن يتم البيع والشراء يأتي البايع إلى الذي كان وصياً على قاصر ليقول للقاضي إن ثمن الدار أقل من ثمن المثل وإنه قد لحق غبن بالقاصر وطلب إعادة البينة أمام القاضي فأعيدت البينة مرة أخرى ووافق البايع في هذه الحالة على المبيع: (لما رأى في هذا المبيع مصلحة للقاصر ولكون ما يحصل من أجوره لا يفي بتعميره ولاحتياج القاصر المرقوم للنفقة والكسوة)^(٤). وبرأيي الشخصي أن هذه العملية لا يقصد منها إلا تثبيت المبيع بالمحكمة فقط، لأن هناك حالات كثيرة مشابهة، وبناء عليه، فإن القصد من إعادة البينة تثبيته^(٥).

(١) س ٤ مشوش، وثيقة ١١٤، ص ٦٠.

(٢) س ٢٥، وثيقة ٣، ص ٣.

(٣) س ٢٥، وثيقة ٢١٠، ص ١٢٥.

(٤) س ٢٦، وثيقة ٨٣، ص ٤١.

(٥) لقد عم إحصاء المباينة في عملية البيع في سجلات المحاكم الشرعية في محكمة الأناضول فقط لأكثر من ٣٨٩٠ حالة، وكذلك الأمر يتم في التراجع بالوقف لتثبيته، للمزيد مصطفى چالتیجة، المباينة والمراجع في عمليات البيع والشراء والوقف، استانبول ١٩٥٤، ص ١١-١٨.

أما في حالة الاستتجار، وعدد وثائقه (٨٠) ثمانون وثيقة، للفترة الأولى من البحث (١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م) (٤٠) أربعون وثيقة، ومثلها (٤٠) أربعون وثيقة للفترة الثانية من البحث (١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٥٩-١٧٠٠م) فقد كانت هناك نقاط مشتركة في وثائق الاستتجار ووثائق الشراء. ونقاط أخرى مختلفة.

أما النقاط المختلفة فهي:

إن عملية الاستتجار لقضايا زراعية كالأراضي والبساتين بما فيها الغراس كانت أكثر منها في عمليات الشراء التي ذكرناها سابقاً، بينما كانت عمليات الاستتجار لدور ومساكن أقل منها في الشراء بالفترتين وكانت معظم عمليات الاستتجار تجري في أملاك الوقف سواء في المدينة والريف بيْدَ أنني سجلت حالات قليلة لعمليات الاستتجار لأملاك خاصة منها: (فأجرٌ للموكلة ما هو جار في ملكه وبيده بالطريق الشرعي...) ^(١)، وورد في وثيقة أخرى: (أجر ما هو جار في ملك الموكل وحوزه وبيد وذلك جميع الخانات الثلاث) ^(٢). وجاء في هذه الوثيقة أن أحد الأغوات الذين وصفوا بمفخر الأعيان وبشه وبالوكالة عن شيخ عالم... الثابتة وكالته عنه بما هو نهج الثبوت.. قد أجر الخانات لمستأجر صفته معلم ^(٣)، وفي وثيقة أخرى (فأجره ما هو جار في ملكه وحوزه ومنتقل إليه عن ابن عمه إرثاً...) ^(٤).

وورد أيضاً: (ما هو جار في ملك الموكلين وحوزهم...) ^(٥)، وفي وثيقة أخرى تم تأجير حانوت جارية في ملك المؤجر ^(٦)، وأجرت حصة قدرها الربع من دار ومثلها من أراضي ثلاثة كروم كانت جارية في ملك المؤجرين ^(٧).

(١) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٤٣، ص ١٣٣.

(٢) س ٣ مشوش، وثيقة ٣٦٣، ص ١٨٠.

(٣) كلمة معلم تعادل كلمة أوسطه المحرفة من لفظة أستاذ لفارسية الأصل.

(٤) س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٦، ص ٦٦.

(٥) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٣٦، ص ١١٤.

(٦) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٥٠، ص ١١٩.

(٧) س ٢٣ مشوش، وثيقة ٦٢١، ص ٣٠٦.

وقد جاء في إحدى الوثائق أنه قد جرى تأجير جميع بياض وقرار بستان يشمل غراس فواكه مختلفة (جار منه الحصة وهي خمسة عشر قيراطاً في ملك السيد محمد وتسعة قراريط في وقف....)^(١). وفي الوثيقة نفسها أن ثلاث قطع من الأراضي المؤجرة.. النصف منها في ملك المؤجر والنصف في وقف آخر. وذكر كذلك في الوثيقة نفسها: (وعلى جريان الزرع المزروع بأرض البستان والقمامات والبيت المعمر والسقايل القايـم ذلك بالبستان في ملك المستأجر وشقيقه). وجرى تأجير جميع بياض وقرار أرض بستان، وجميع الحصة وهي النصف من بستان آخر، والبستانان جاريان في ملك المؤجرين^(٢). وفي إحدى الوثائق لم يعرف فيما إذا كان المأجور ملكاً أم وقفاً^(٣).

ومن هذه الحالات العشر للاستئجار الواردة نجد (٨) ثماني حالات ملك وحالة ملك ووقف «مشترك» واحدة، وحالة غير معروفة. أي لدينا (٧٠) استئجاراً من الأوقاف و(٨) استئجارات من أملاك واستئجار واحد مشترك وواحد غير معروف بما يعادل نسبة هذه الحالات العشرة ١٢,٥% فقط وهي نسبة قليلة إذا ما قورنت باستئجارات الأوقاف.

تبتدئ وثيقة الاستئجار كما يلي:

(لدى مولانا العلامة القاضي... استأجر فلان بن فلان بماله لنفسه من الأخوين فلان وفلان أبناء فلان... فأجراه ما هو جار في توأجرهم من جهة وقف فلان ابن فلان... بموجب حجة شرعية مخلدة بيديهما سابقة على تاريخه مدة تستوعب المدة... وذلك جميع الحصة وهي النصف اثنا عشر قيراطاً من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع... كذا الكائن في... كذا... كاملة الأرض المزبورة لغراس أشجار فواكه مختلفة النوع والجنس وغير الفواكه... جار من الغراس المزبورة الحصة وهي الربع ستة قراريط تبعاً للجهة المزبورة «أي لجهة الوقف» والربع ستة قراريط في ملك المستأجر... وشرب ذلك من كذا... على نوب أهله المتعارفة بينهم بحق شرعي.. ويحد ذلك قبلة كذا... وشرقاً... كذا... وشمالاً.... وغرباً. المعلوم ذلك عندهم علماً شرعياً إجارة شرعية لازمة للزراعة الشتوية والصيفية والمغل والاستغلال والانتفاع بذلك على العادة لمدة ثلاث سنوات

(١) س ٢٥، وثيقة ٢٢٩، ص ١٣٣.

(٢) س ٢١٥، وثيقة ٢٤٤، ص ١٤٣.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٥٦٢، ص ٢٢٧.

متواليات كاملات أولها كذا.... بتصادقهم على ذلك الواقع غلال كل سنة فيها وفي السنة التي تليها.. بإجرة قدرها عن كل من المدة... كذا.... أجرة السنة الأولى مقبوضة بتمامها منه قبضاً شرعياً باعترافهم بذلك لديه الاعتراف الشرعي وبقيّة المدة محل أجرة كل سنة في ختامها.. أو «أحياناً ترد في أولها» مقراً بملاته وقدرته على ذلك ويده ثابتة على ذلك كله الثبوت الشرعي. ثم تساقوا^(١) على الحصة وهي الربع ستة قراريط من جميع الغراس القائم بأرض المأجور المختصة بالوقف المؤجر منه... مدة عقد التواجر على أن يعمل المستأجر المزبور على ذلك في المدة حق العمل بنفسه أو بعماله أو من يقوم مقامه في ذلك ومهما فتح الله تعالى به ورزق في المدة من ثمرة وفائدة يكن للجهة المؤجرة عليها سهم واحد من ألف سهم والباقي للمستأجر المزبور.. نظير العمل والمساقاة مساقاة شرعية مقبولة شرعاً وتصادقوا على ذلك كله...^(٢).

وكثيراً ما تصادفنا في بعض الوثائق عبارات مثل: (وتصادقا على ذلك وعلى أن المؤجر مواصل من المستأجر... فيما مضى وإلى ختام المدة المقبوض عنها التصديق الشرعي). في هذه الحالة يكون المؤجر قد قبض سلفاً مبالغ من الأجرة فيتعهد بأنه سيبقى مستمراً بتأجير المستأجر حتى نهاية المدة المتفق عليها. وفي أثناء استئجار حمام كان يتم الاتفاق بين المؤجر والمستأجر على أنه (للمستأجر من المطلق في السنة نصف شهر رمضان + نصف شهر ختام المدة + سبعة أيام انقطاع الماء)^(٣). وفي بعض الأحيان كان يتفق على أنه (للمستأجر شهر مطلق من المدة)^(٤) أي شهر بلا أجره، وفي كثير من الأحيان وبعد إتمام عملية استئجار دار ما كانت ترد بعض العبارات مثل: (وإذن المؤجر للمستأجر أن يعمر بالدار ما تحتاجه، وأن يكلس البركة. وما يصرفه يقتطع كل سنة (٧) سبعة غروش...)^(٥). طبعاً هنا الاقتطاع يكون من الأجرة، وإذا كان المأجور بستاناً أو

(١) لا يمكننا التحدث عن المساقاة في فصل المظاهر الاقتصادية، لأن الوثائق بهذا الخصوص تعطي نتائج يصعب قراءتها، فآثرنا الرجوع إلى المصادر كونها تعطي صورة أوضح عن واقع دمشق الاقتصادي.

(٢) س ١ مشوش، وثيقة ٧٥٤، ص ٣٠٤.

(٣) س ٢٥، وثيقة ٥٥، ص ٤٨.

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٣٤٦، ص ١٨٣.

(٥) س ٢٥، وثيقة ٥٥، ص ٤٨.

أراضٍ زراعية فكثيراً ما كان يرد (ثم أذنت المؤجرة... للمستأجر أن يغرس بأرض المأجور ما أحب واختار من أنواع الأشجار المثمرة.. وأن تكون الحصة وهي النصف مما سيغرسه تبعاً لأرضه «أي من حصة الوقف» والنصف الثاني لجهة وقف جد المستأجر، باعتبار أن المستأجر كان ناظراً لوقف جده، واستأجر هذا المأجور لصالح وقف جده).. وعليه سائر الأعمال من حرث وجرف وقلب وتسحبة^(١) وفتح طواريق وقطع علايق^(٢). وثمان نصوب وأجرة ناصب ومطعم وجدر وغير ذلك إذناً شرعياً^(٣). وكانت حالة التعويض واردة جداً في وثائقنا بحيث إذا قبض البائع أو البائعة جزءاً من الأجرة كان يتم التعويض عن الجزء المتبقي من الأجرة مثلاً بـ البن القلب المطيب الخالي من العيب^(٤)، وجاء في وثيقة أخرى أن القابض أي المؤجر قد تعوض من المستأجر بـ: ساعتين فضة عقرب، وخاتمين ذهب إحداهما حجر ألماس والثاني حجر عقيق وأربعة أرطال^(٥) من الحرير البلدي، الطيب السالم من عيب مثله شرعاً وعبادة^(٦) صوف أشق مور صايا مخيطة.. التعويض الشرعي^(٧).

(١) لفظة عامية على الأغلب جاءت من لفظة مسحاة وهي المجرفة من الحديد والميم زائدة لأنه من السحد أي الكشف والإزالة. إزالة الأمور غير المرغوبة من الأرض وتهيئتها للزراعة. لسان العرب لابن منظور، مجلد ٨، ص ٢٨٠.

(٢) علايق: هي لفظة أخرى عامية ربما جاءت من العليق وهو نبات شائك ينبت حول الأنهار والينابيع وفي الغابات، وهو من الفصيلة الوردية، وقد يزرع حول البساتين فيكون سياجاً يحميها، وله ثمرة مركبة ذات عناقيد بيض أو سود أو زهرية سياجاً يحميها، وله ثمرة مركبة ذات عناقيد بيض أو سود أو زهرية تسمى - الثمرة العليقية أو توت السياج وهي تؤكل - وتوصف بفائدتها العلاجية لبعض العلل، وعندما يريد الفلاحون زراعة الأرض فإنهم يقطعون العليق وغيره في عملية تحضير الأرض للزراعة. أحمد قدامة، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، موسوعة غذائية صحية عامة، الطبعة الثامنة وهي منقحة ومصورة بالأوفست عن الطبعة السابقة ١٤١٥-١٩٩٥م، ص ٤٢٠.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٤١، ص ١٦٩.

(٤) السجل والصفحة والوثيقة السابقة.

(٥) الرطل في دمشق كان يساوي ١,٨٥ كغ. عامر، المكييل والأوزان، مرجع سابق، ص ٤٩. فالتتر هنتس، المكييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة عن الألمانية كامل العسلي، ١٩٨٧، ص ٣٣.

(٦) العبادة رداء قصير ومفتوح من الأمام، وهناك العبادة الصوف ببطانة من الساتان أو الأطلس من

منطقة أشق مور. Calette Establet, Jean paul, poscoul Ultime voyage. P. 96.

(٧) س ٣ مشوش، وثيقة ٥١٠، ص ٢٠١.

وكانت أعباء المأجور توزع بين المؤجر والمستأجر مثلاً: (ثم تصادقا على أن ما ينوب المأجور في المدة من مال سلطان وسياج فعلى المؤجر ومن رفاش.. فعلى المستأجر)^(١). وجاء في الوثيقة نفسها أن المؤجر ضمن للمستأجر درك التاجر والأجرة في ذمته وماله إن ظهر ما يفسد ذلك شرعاً. وأحياناً كانت جهة الوقف فقط تتحمل الأعباء مثلاً: (ثم تصادقا على أن ما ينوب المأجور في المدة من تعمير وترميم وتطيين وعوارض فعلى جهة الوقف)^(٢). ولكن في بعض المرات كان المستأجر وحده يتحمل الأعباء (وما ينوب المأجور في المدة من مغارم وكلف فعلى المستأجر)^(٣). وفي وثيقة أخرى: (أذن المؤجر للمستأجر في دفع ثلاثمائة غرش وعشرين في المدة حساباً عن كل سنة ثلاثة وخمسون غرشاً وثلاث غرش منها:

١ - ثلاثة وثلاثون غرشاً وثلاث غرش علوفة قاضي القضاة بدمشق ومحاسبته.

٢ - عشرون غرشاً في كل سنة لجهة الأمطار والأعشار المترتبة على المأجور وبقية الأجرة وقدرها عن جميع المدة (٣١٠) ثلاثمائة وعشرة غروش حالة مقبوضة بيد المؤجر من المستأجر سلفاً وتعجيلاً للضرورة الداعية لذلك)^(٤).

وتظهر هذه الوثيقة أن قاضي القضاة كان يتلقى نوعاً من المرتب عن قضايا الاستئجار كما تظهر أن الوضع المادي للأوقاف لم يكن على ما يرام بدليل قبض المؤجر لما يقارب نصف الأجرة دفعة واحدة، وذلك للضرورة الداعية لذلك، وفي بعض الأحيان وفي حال اعترضت القضاة مسألة شائكة كانت تتم مراسلة مفتي دمشق لأخذ رأيه في الموضوع. مثلاً: ثم سئل مفتي دمشق السيد إسماعيل أفندي^(٥) عن دار موقوفة على إمام

(١) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٣٢، ص ٢٥٥.

(٢) س ٤ مشوش، وثيقة ١٤٦، ص ٧٤.

(٣) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٥٨، ص ١٢٢.

(٤) س ٢٥، وثيقة ١٤، ص ١١.

(٥) هو إسماعيل بن علي بن رجب الحائك الدمشقي، الذي تولى الجامع الأموي إضافة إلى كونه مفتي دمشق. المرادي، محمد خليل أفندي، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، تحقيق محمد مطيع الحافظ، رياض عبد الحميد مراد، دمشق ١٩٧٩، ص ٩٠.

مخصوص ثم على من يكون إماماً بعده في نوبته وشرط لهم النظر والقبولية ثم مات الإمام الأول ومن بعده.. ثم انتقلت الإمامة إلى رجل فأجرها مدة معلومة من زيد ثم مات المؤجر ولم ينصب آخر يومئذ ويريد زيد الآن أن يستأجر الدار تسع سنين... فهل بإيجار الدار حظ ومصلحة... الجواب: إذا رأى القاضي ذلك^(١).

نلاحظ أن جواب مفتي دمشق جاء مقتضباً ومختصراً جداً، وفي حالات نادرة كان يشار إلى أن جزءاً من المأجور غير داخل في عقد التواجر (وتصادق المؤجر مع المستأجر بأن المخزن الكاين داخل القاسارية الذي بيد المؤجر غير داخل في عقد التواجر)^(٢)، قلنا سابقاً إنه كان يتم تحديد المبيع أو المأجور، بدءاً بجهة القبلة وانتهاءً بالغرب ولكن كان أكثر ما يؤسف له عندما نجد في الوثيقة عبارات من مثل: (شهرة ذلك في مكانه تغني عن الوصف والتحديد...)^(٣). وقد تم إحصاء (٢٢) اثنتين وعشرين حالة عدم تحديد من أصل ثمانين وثيقة هي وثائق الاستئجار في الفترتين الأولى والثانية أي بنسبة ٢٧,٥ حالة وهي نسبة عالية نوعاً ما، حرمتنا من معرفة الكثير من المعلومات القيمة حول هوية الفئات الاجتماعية وتمركزها في الأحياء وغيرها مثلاً. وفي بعض الأحيان كان يتم إرسال وفد أو مجموعة للكشف على موقع المأجور (كشف جماعة من المسلمين على... فجاء بشهادتهم أن الأجرة هي أجرة المثل)^(٤)، أي لا غبن ولا ضرار في الإيجار، وورد في أحد الوثائق: (إذن المؤجر للمستأجر أن يغرس الأماكن الخالية بأرض المأجور ما أحب واختار من أنواع الأشجار وأن تكون الحصة وهي النصف والربع مما سيغرسه تبعاً لجهة الوقف والربع للغارس وعليه ساير الأعمال)^(٥). وهذه حالة خاصة إذ من المفروض كما تعودنا في كثير من الوثائق أن حصة المستأجر أكثر من حصة المؤجر أو الوقف. وفي حالة أخرى: (وتساقيا على الغراس المختص بجهة

(١) س ٢٥، وثيقة ١١٨، ص ٧٣.

(٢) س ٢٥، وثيقة ٢٦٣، ص ١٥٠.

(٣) س ٢ مشوش، وثيقة ٣٣١، ص ١٧٦، وثيقة ٣٤٤، ص ١٨٢.

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٧٨٥، ص ٢٧٩.

(٥) س ٤ مشوش، وثيقة ٢٥٨، ص ١٢٢.

وقف المؤجر الجاري في مساقاة ناظر وقف المستأجر على العنب أصالة والباقي بالتبعية «ووردت هذه الجملة الأخيرة في كثير من الوثائق» على أن يعمل المستأجر على ذلك حق يعمل ومهما فتح الله عليه ورزقه من ثمرة وفائدة يكن لجهة المؤجر جزء واحد من مائة جزء والباقي للمستأجر^(١). وذكرت وثيقة أخرى في الخصوص نفسه: (أذن الناظر للمستأجر أن يغرس بأرض المأجور على أن يعمل بنفسه أو من يقوم مقام حق العمل، مهما فتح الله عليه ورزقه من ثمرة أو فائدة يكون النصف تبعاً لأرضه والنصف للمستأجر..)^(٢).

وجاء في إحدى الوثائق: (ثم تساقيا على الغراس القائم بأرض المأجور على العنب أصالة والباقي بالتبعية على أن يعمل... ومهما فتح الله عليه ورزقه من ثمرة وفائدة يكون للمؤجر قيراط واحد والباقي للمستأجر)^(٣)، أي ٢٣ قيراطاً. أمّا فيما يتعلق بموعد قبض الأجرة فقد كانت المدد تتفاوت. فمثلاً (الحال من ذلك أجرة السنة الأولى مقبوضة وبقية المدة محل أجرة كل سنة في أولها)^(٤). أو يقال: (.. أجرة السنة الأولى مقبوضة وبقية المدة محل أجرة كل سنة في أولها)^(٥). وجاء في وثيقة أخرى أن (أجرة كل سنة في ختامها)^(٦). وفي وثيقة أخرى: (أجرة السنة الأولى مقبوضة وبقية المدة محل أجرة كل سنة فيها)^(٧). وإذا كانت المأجورات حمامات أو دكاكين فقد تصادفنا العبارات التالية: (... محل أجرة كل يوم بقسطه وحسابه)^(٨).

(١) س ٢٥، وثيقة ١٤، ص ١١.

(٢) س ٢٥، وثيقة ٢٦١، ص ١٤٨.

(٣) س ٢٥، وثيقة ٣١٣، ص ١٧٦ مكرر.

(٤) س ٢ مشوش، وثيقة ٢٦٢، ص ١٤١.

(٥) س ٢ مشوش، وثيقة ٣١٤، ص ١٦٨.

(٦) س ٢ مشوش، وثيقة ٣١٩، ص ١٧٠.

(٧) س ٢ مشوش، ص ١٧٣، وثيقة ٣٢٥.

(٨) س ٢ مشوش، ص ١٦٨، وثيقة ٣٢٥.

وأوردت بعض الوثائق أنه تم تأجير المأجور بأجرة أعلى من الأجرة السابقة (..) زيادة عن الأجرة السابقة أربع قطع مصرية^(١)...^(٢) (حالة مقبوضة بيده زيادة عن أجرة الرجل السابق (٢) غرشان...)^(٣). وتذكر بعض الوثائق (...) بقية الأجرة على حكم الحلول الشرعي^(٤). وورد أيضاً: (محل أجرة كل سنة... في قسطين قسط في منتصفها وقسط في ختامها)^(٥). أو يقال: (...) بقية المدة محل أجرة كل سنة في رجبها)^(٦). وفي معظم الأحيان يحدد يوم بدء الأجرة (..) لمدة سنة أولها غرة رمضان ١٠٩١ «الأربعاء ٢٥ أيلول ١٦٨٠»...^(٧).. (لمدة (٣) سنوات أولها يوم تاريخه «أي تاريخ الوثيقة ١٠ رمضان ١٠٩١هـ/ الجمعة ٤ تشرين الأول ١٦٨٠م)^(٨)... (..) محل أجرة كل سنة في منتصفها...)^(٩). وقد تذكر الأجرة بصيغة أخرى: (...) أولها غرة المحرم ١١٣٧ «الأربعاء ٢٠ أيلول تالية لمدة المستأجر)^(١٠). أو (..) لمدة ثلاثة عقود كوامل كل عقد يشتمل ثلاث سنين أول المدة غرة محرم ١١١٢ «الجمعة ١٨ حزيران ١٧٠٠»...^(١١) أو (لمدة عقدين كل عقد يشتمل ٣ سنوات...)^(١٢).. (أجرة السنة الأولى مقبوضة من المستأجرين....)^(١٣). وقد يكون العقد الواحد أقل من ثلاث سنوات.. (..) لمدة ثلاثة عقود

(١) كانت المصرية تعادل ١٥ قرشاً نصياً .

(٢) س ٢ مشوش، ص ١٧٦، وثيقة ٣٣١.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩١، ص ١٩٣.

(٤) س ٣ مشوش، وثيقة ٥٦٢، ص ٢٢٧.

(٥) س ٣ مشوش، وثيقة ٦٤٦، ص ٢٦١.

(٦) س ٣ مشوش، وثيقة ٧٩٧، ص ٢٨٤.

(٧) س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٦، ص ٦٦.

(٨) س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٨، ص ٦٧.

(٩) س ٢٥، وثيقة ١٤، ص ١١.

(١٠) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٤١، ص ١٦٩.

(١١) س ١٧ مشوش، وثيقة ٢٠١، ص ٥٢.

(١٢) س ٢٥، وثيقة ١٤، ص ١١.

(١٣) س ٢٥، وثيقة ١٩، ص ١٥.

كوامل كل عقد يشتمل سنتين..^(١) ... (بأجرة قدرها عن الأربع سنوات كاملات... حالة مقبوضة سلفاً وتعجيلاً.. ليصرف في أمور الوقف...)^(٢). وظاهرة قبض الأجرة كاملة تدل كما قلنا على إن الأوقاف في فترة الدراسة أو كثير منها لم يسبق في رصيدها ما يمكن أن يصرف في شؤونها.. أما فيما يتعلق بالشهود في حال الاستئجار فينطبق هنا عليهم ما قلناه عن الشهود في حالة الشراء. إذ لا بد أن يكون لكل موكل أو وصي شهود ولا بد أن يكون للمرأة من يعرف بها فمثلاً (كانت امرأة مصونة، أبوها حلبي ابن حاج وناظره على وقف جدها لأمها ولكن في المحكمة عرف بالمؤجرة ولدها الشيخ + شيخ آخر^(٣). وكان في بعض الأحيان يحضر إلى المحكمة المستأجر السابق للمأجور ويقوم بالتصديق على العقد الجديد ويشهد عليه^(٤)). وقد يحضر إلى المحكمة بالإضافة إلى الشهود أشخاص آخرون من فئات اجتماعية مختلفة كأشراف، وحجاج وشيوخ^(٥). وقد يكون بين الشهود رجال عاديون وعسكريون^(٦).

وتصادفنا حالة في كثير من الوثائق وهي حضور شخص إلى المحكمة وقوله بأن الأجرة المعقودة الآن فيها ضرر لجهة المأجور وأنه سوف يزيد الأجرة في عقد جديد ويوافق القاضي في المحكمة على إبرام عقد جديد يكون فيه الشخص المزيّد هو المستأجر الجديد ولوحظ أن القاضي في جميع الحالات كان يرفض هذه الزيادة ويعدّ الأجرة المعقودة فيها مصلحة المأجور ويرفض أن يفسخ العقد مثلاً : (ثبت أيضاً لديه بالبينة الشرعية العادلة المرضية بشهادة فلان بن فلان وفلان بن فلان... المقبولين لديه «أي لدى القاضي» شرعاً القبول الشرعي معرفة المأجور المزبور وأن الأجرة المزبورة هي أجرة مثل ذلك وقيمة العدل عنه بزيادة ظاهرة وغبطة وافرة وأن في إيجاره على الوجه

(١) س ٢٥، وثيقة ١٦٩، ص ١٠١.

(٢) س ٢٥، وثيقة ٢٩٠، ص ١٦٥.

(٣) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٤١، ص ١٦٩.

(٤) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٩١، ص ١٩٣.

(٥) س ٣ مشوش، وثيقة ٧٨٦، ص ٢٨٠.

(٦) س ٣ مشوش، وثيقة ٧٩٧، ص ٢٨٤.

المشروح خطأً ومصلحة شرعية عايد ذلك على جهة الوقف المزبور بالطريق الشرعي ثبوتاً شرعياً ثم بعد تمام ذلك حضر فخر الأماثل الحاج محمد بن الحاج شحاده معمار باشي^(١) سابقاً وطلب المأجور المزبور بزيادة خمسة غروش عن أجرة كل سنة من المدة المزبورة أعلاه، وطلب المستأجر والناظر المرقوم بتسليم ذلك إليه فعرف مولانا الحاكم المزيد المزبور أن عقد التواجد لا يفسخ في المدة بزيادة ولا غيرها ومنعه من التعرض بسبب ذلك وأبقى المأجور بيد المستأجر إلى انتهاء مدة تواجده المعينة أعلاه...^(٢).

وكما في الحالة السابقة جاء من يعرض الزيادة في وثيقة أخرى فرفضها^(٣).

وورد أنه: «وبعد أن تم عقد التواجد حضر السيد فلان وشقيقه وقررا من كلامهما مع المتولي (طبعاً المتولي على الوقف) أنه يعرف أن معهما عقداً مختوماً يستأجران المأجور لمدة ثلاث سنوات، ولكن الحاكم، قال: إن الإيجار هنا أكثر من سنة غير مقبول وأبطل ذلك العقد وأبقى العقد الجديد»^(٤).

(١) بالأصل المعماري هو البناء في حرفة البناء وفي دمشق المصطلح على اسم صاحب هذه الصنعة «المعماري». محمد سعيد القاسمي، جمال الدين القاسمي، خليل العظم، قاموس الصناعات الشامية، حققه وقدم له ظافر القاسمي. الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص ٤٥٨.

(٢) س ٣ مشوش، وثيقة ٤٧٣، ص ١٨٤.

أحاول دائماً أن أبقى الكلمات كما وردت في الوثيقة. (الباحث)

(٣) س ٤ مشوش، وثيقة ١٢٨ ص ٦٧، وفي السياق نفسه س ١٥ وثيقة ٦٢٨ ص ١٥.

(٤) سجل ٢٥ وثيقة ٢٦٣ ص ١٥٠.

الفصل الثاني

الحياة الإدارية في دمشق

- ١ - لحظة عن السلطان ووظيفته.
- ٢ - الصدور العظام .
 - ١ - أحمد باشا كوبرولوزاده.
 - ٢ - قرا مصطفى.
 - ٣ - إبراهيم عمر باشا.
 - ٤ - بكري مصطفى باشا تكيرواغلي.
 - ٥ - مصطفى فاضل كوبرولو.
 - ٦ - ألماس محمد باشا.
 - ٧ - حسين باشا كوبريللي.

إن التطرق للحياة الإدارية يفرض نفسه على البحث، لكن هذا لا يعني معالجة سلاطين فترة البحث، لأن هؤلاء السلاطين لم يكونوا أكثر من سلاطين إدارة ولا حول لهم ولا قوة، لأن الدولة العثمانية في تلك المرحلة كانت ضعيفة وعاجزة على مواجهة الدول الأوروبية التي بدأت تتخلص من مشكلاتها.

صحيح أن الدولة العثمانية شهدت طفرات قوة في عهد السلطان مراد الرابع الذي تمكن من القضاء على فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠-١٦٣٥م) واستعادة بغداد، لكن اليمن خرجت من الدائرة العثمانية ولا سيما (الجزء الشمالي)، أما سلاطين البحث فلقد تمت في عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م)، وقد اشتهر بالصياد، ولم يكن يعرف شيئاً عن شؤون الدولة لأن جدته كوسم كانت تدير أمور السلطنة، أما السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١م) فقد كان هو الآخر ضعيفاً، فلقد بقي في الغرفة الحديدية ست وأربعين سنة محبوساً في أحد قصور أدرنه، ولم يخالط أحداً، لذلك لا يعرف أي شيء في شؤون الحكم، والأمر ذاته للسلطان أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥م) الذي خلف سليمان الثاني، أما السلطان محمد الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) فلقد اتسم عهده بالصلابة، وقاد الجيوش بنفسه، لكنه لم يكن بإمكانه إحياء دولة أكل الضعف منها كل مأكّل، ولهذا فإن هؤلاء السلاطين لم يقدموا لمدينة دمشق أي خدمات يمكن التعرض لها في سياق البحث.

١ - الصدور العظام الذين حكموا خلال فترة البحث

(١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م)

١ - أحمد باشا فاضل كوبرولو زاده (١٦٩٥-١٧٠٣):

ولد في عام ١٦٣٥، تلقى دراسات راسخة في مختلف مدارس إسطنبول، وتولى فيما بعد التدريس فيها، ثم التحق بالإدارة، وبعد أن أصبح والياً على أرضروم، صار والياً على دمشق، وعلى الرغم من أن الجانب الرئيس من أنشطة أحمد فاضل باشا كان منصباً على الشؤون الخارجية، فإنه لم يتجاهل المشكلات الداخلية، مواصلاً سياسة أبيه محمد كوبرولو باشا. يمارس سلطة جداً حازمة على مسؤولي الإدارة ويحافظ على الانضباط المالي على أنه أقل قسوة من والده. وقد أشاد المؤرخون العثمانيون بخصاله كرجل دولة وراعٍ للكتاب والفنانين، ويرجع إليه الفضل في إنشاء المكتبة التي تحمل اسم كوبرولو التي أصبحت إحدى أهم المكتبات التاريخية في إسطنبول، وخلال حكمه تفجرت قضية «ساباتاي زيقي» اليهودي الذي ادّعى أنه المسيح الجديد ثم اعتنق الإسلام وأقنع الكثير من اليهود على أن يشهروا إسلامهم علناً ولكن يبقون في السر يهوداً. وتوفي زيقي عام ١٦٧٥ أو ١٦٧٦ بعد ترحيله إلى ببرات في ألبانيا، وتواصل شيعته الحياة من بعده، وبخاصة في سالونيك، وهي أصل الدونمة (اليهود الذين اعتنقوا الإسلام) الذين عرفوا قدراً من النجاح في سالونيك وفي إسطنبول^(١).

قاد هذا الصدر الأعظم الجيوش العثمانية بنفسه لمحاربة أعداء الدولة وعلى رأسهم النمسا، ورفض تجديد الامتيازات التي كانت قد منحت لفرنسا سابقاً فلم يفلح (المسيو دي لاهي) سفير فرنسا المقيم بالآستانة بإقناعه بذلك. وأرسل الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا سفيراً آخر يدعى «الماركي دي نواتل» بعمارة بحرية حربية بقصد إرهاب الصدر

(١) مانتران، مرجع سابق، ص ٣٦٨-٣٦٩.

وتهديده بالحرب إذا لم يذعن لطلبات فرنسا، لكن لم ترهبه هذه التظاهرات بل قابل السفير بكل سكون وقال له: إن تلك المعاهدات لم تكن إلاّ منحاً سلطانية لا معاهدات اضطرارية واجبة التنفيذ وإنه إن لم يرتح لهذا الجواب فما عليه إلاّ الرحيل. ولما وصل هذا الجواب إلى ملك فرنسا أراد إعلان الحرب على الدولة ولولا نصائح الوزير (كولبر) لركبت فرنسا هذا المركب الخشن ولكانت أبواب الشرق أقفلت أمام مراكبها، وتمكن كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة في سنة ١٦٧٣، وفوض ثانياً إلى فرنسا حق حماية بيت المقدس كما كان لها ذلك من أيام السلطان سليمان القانوني، وبذلك عادت العلاقات إلى صفائها السابق بين الدولتين^(١).

٢ - الصدر الأعظم قره مصطفى :

وهو زوج أخت الصدر الأعظم السابق الذي كان قد أعاد بعضاً من أملاك الدولة بحنكته وحزمه وانتصاراته. ولم يكن قرا مصطفى هذا يملك كفاءة سلفه للسير في الطريق الذي رسمه الصدر الأعظم محمد كوبرولو باشا وابنه الصدر الأعظم أحمد. بل اتبع مصلحته الذاتية، وباع المناصب العالية والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة بدراهم معدودة، وبعد أن انتصر عدة مرات على النمسا قصد مدينة فيينا العاصمة فحاصرها ولكن أمام التحالف الأوروبي الذي رعاه البابا انهزمت الجيوش العثمانية، وكانت هناك صدمة في استانبول فأمر السلطان بقتل قرا مصطفى باشا الصدر الأعظم^(٢).

٣ - إبراهيم قره باشا:

حلّ محل مصطفى قرا باشا الذي أعدمه السلطان بسبب هزيمته أمام أسوار فيينا، وكان الصدر الأعظم الجديد قد خدم في الإدارة المدنية والعسكرية وكان بوجه خاص أميراً كبيراً، وبوصفه قائمقاماً أي نائباً للصدر الأعظم (الذي قتل)، كان يدير شؤون

(١) السيد، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، مرجع سابق، ١١٥، فريك بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص ٢٩٤-٢٩٨.

(٢) فريك بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٠-٣٠١. مانتران، مرجع سابق، ص ٣٧٣-٣٧٤.

الدولة بغياب الصدر الأعظم، وقد واجهت الدولة العثمانية الآن تحالفات أوروبية جديدة ولا سيما بعد هزيمتها الأخيرة في فيينا. ولتوفير متطلبات النضال ضد خصومها، تضطر الدولة العثمانية إلى المطالبة بإمدادات من جميع ولايات الإمبراطورية، وعانت العملة العثمانية من صدمة الأحداث العسكرية، فالأسبرات والقروش تحتوي على المزيد والمزيد من النحاس، وفرضت ضرائب على جميع مدن الإمبراطورية. وهي مبالغ ضخمة وذلك لتمويل احتياجات الحملات العسكرية، وترتفع الأسعار، ويهجر عدد من الفلاحين قراهم، ويشكلون عصابات نهب، ويتمرد الجنود المحرومون من الرواتب، ويتم قتل الصدر الأعظم من قبل الإنكشارية.

٤ - بكري مصطفى باشا تكيرداغلي:

عين صدرًا أعظم جديدًا خلفاً لإبراهيم قرا باشا الذي قتل، وتمكن من التغلب على المتمردين، واستعادة السكينة^(١) في استانبول.

٥ - مصطفى فاضل كوبرولو باشا:

شقيق الصدر الأعظم الأسبق أحمد فاضل باشا حيث اشتهرت تلك العائلة بتصحيح الأوضاع في الدولة العثمانية. ففي ٢٥ تشرين الأول ١٦٨٩، تم تعيينه كصدر أعظم وذلك لعلاج المشكلات الصعبة التي كانت تعانيها الدولة، وعلى الفور قام الصدر العالي الجديد بإصلاحات في شتى المجالات، فحدثت استعادة حقيقية للسلطة الحكومية، وقاد الجيوش لمحاربة الأعداء ولا سيما النمسا، ولكنه يلقي حتفه في إحدى المعارك^(٢).

٦ - الصدر الأعظم ألماس محمد باشا:

الذي قتل في معركة زنتا مع النمسا وذلك بتاريخ ٢٥ صفر ١١٠٩هـ/ ١٢ أيلول ١٦٧٩م.

(١) مانتران، مرجع سابق، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) المرجع السابق، ط ١، ص ٣٧٦-٣٧٧.

٧ - الصدر الأعظم حسين باشا كوبريللي:

أوقف تقدم النمسا واستعاد البوسنة. وأخيراً كانت معاهدة كارلو فيتز التي تنازلت الدولة بموجبها عن أملاك كثيرة لأعدائها^(١).

وكان ينوب عن الصدر الأعظم في حال غيابه عن العاصمة الدفتردار، ولما كان للصدر الأعظم^(٢) وزيران أو ثلاثة وزراء قبة (يحملون هذه التسمية إشارة إلى القبة الصغيرة التي تعلو قاعة المجلس) ومن دون أن يكون لكل من هؤلاء اختصاص محدد، فقد كانوا يشاركون في مداولات الديوان، وبحكم منصبهم الوزاري، فقد كان بالإمكان تكليفهم بمهام عالية المستوى، مثلاً تأمين القيادة العامة لحملة من الحملات.. ومن حيث المبدأ كان الوزير الثاني هو الذين يحل محل الصدر الأعظم في حال موته أو عزله وعندئذ كان الوزير الثالث يصعد إلى المرتبة الثانية، وفي بداية عهده كسر السلطان سليمان القانوني هذه القاعدة بإيثاره إحلال إبراهيم رئيس غرفته الخاصة، محل الصدر الأعظم محمد باشا بيرلي الذي أحيل إلى التقاعد بدلاً من الوزير الثاني أحمد، الذي عينه والياً على مصر، فانتقم لنفسه من الظلم الذي حاق به بإثارة تمرد قمعه إبراهيم^(٣).

والتزم سليمان القانوني فيما بعد بتصعيد من يحتلون مركز الوزير الثاني إلى الصدارة العظمى، باستثناء رستم باشا الذي لم يكن غير وزير ثالث، لكنه صهر للسلطان سليمان حيث زوجه ابنته مهرماه^(٤).

وتحت قبة الديوان كان الوزراء يجلسون على يمين الصدر الأعظم، وعلى يسار هذا الأخير كان يجلس قاضيا الجيش (قاضي عسكر الروملي، وقاضي عسكر الأناضول) وهذه الوظيفة التي كان يشغلها في الأصل شخص واحد جرى توزيعها على شخصين في

(١) برجايوي، الإمبراطورية العثمانية، تاريخها السياسي والعسكري، مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) رئيس الوزراء بتعريفنا الحالي.

(٣) مانتران، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٤) محمود عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق ٢٠٠٣، ص ١١٢.

عهد محمد الثالث، وكان قاضي عسكر الروملي يتمتع بالأولوية، وكان كل منهما يوضع على رأس العلماء في القطاع الجغرافي الخاص به، وتحت إشراف الصدر الأعظم كانا يعالجان المسائل القانونية المعروضة على الديوان وكانا يبتان من الناحية القانونية في تعيينات القضاة، والمدرسين الواقعيين في دائرة اختصاص كل منهما. وعلاوة على رواتبهما وعطايا العاهل فقد كانا يحصلان على رسوم من الجنود ووكلاء الدولة (عسكر) شأنهما في ذلك شأن القضاة الآخرين، فقد كانا يعيّنان لفترة محدودة إلا أنهما كان بوسعهما شغل منصبهما عدة مرات. بدءاً من أواسط القرن السادس عشر، جرى اختزال دور قاضي العسكر هذين إلى حد ما لحساب وجيه ديني^(١) آخر هو مفتي استانبول، المسمى أيضاً شيخ الإسلام، الذي سوف يصبح الرئيس الفعلي للعلماء، والمرجع الديني الرئيس للإمبراطورية، وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية، كان الصدر الأعظم والوزراء، وفي بعض الأحيان السلطان نفسه، يلتصقون رأيه في بعض المسائل المهمة، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصفة نهائية، ويطلبون منه الرأي في مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية، وكان يحال إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التي يرى القاضي الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم، وهو إجراء كان يستهدف الاطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة وتوفر الأدلة على ثبوت التهمة^(٢)، وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع سياسي، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة.

كان السلطان لا يقدم على حرب من دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين. بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية. وكان شيخ الإسلام يوفد الوعّاظ إلى سائر أنحاء الدولة يعلنون أن الحرب المقدمة عليها الدولة هي حرب دينية، وأن الجماهير يجب أن تقف صفّاً واحداً تؤيد قلباً وقالباً الجيش وهو يخوض الحرب، ومنها أيضاً الفتاوى التي تجيز تناول

(١) مانتران، مرجع سابق، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها، وكذلك الفتاوي التي تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر. وتقديراً للمسؤوليات الجسام التي كان يضطلع بها مفتي العاصمة أو المفتي الأكبر، رأت الدولة أن تميزه عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الإمبراطورية، وكان عددهم يصل إلى قرابة مئتي مُفتٍ، فأطلقت على مفتي العاصمة لقب «شيخ الإسلام» فأصبح هو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وإن ظلَّ السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية، وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذي أطلق فيه على مفتي العاصمة هذا اللقب. فيرى فريق أن السلطان مراد الثاني ١٤٢١-١٤٥١، هو من أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتي أدرنة التي كانت عاصمة الدولة وقتذاك، وإن خلفه السلطان محمد الثاني أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية بعد فتحها، وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة وأنه أطلق عليه لقباً جديداً هو رئيس العلماء. ويرى فريق آخر من المؤرخين أن السلطان محمد الثاني ١٤٥١-١٤٨١ هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتي القسطنطينية بعد أن فتحها، ويرى فريق ثالث أن السلطان سليمان المشرع ١٥٢٠-١٥٦٦ هو صاحب التسمية. وذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتي استانبول قد حدث في عصر متأخر يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر، ويضيف أن السلطان محمود الأول ١٧٣٠-١٧٥٤ هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتي استانبول في عام ١١٥٤هـ-١٧٤١م^(١).

- تشكيل الديوان :

كان الديوان في استانبول يتكون من :

- ١- الصدر الأعظم رئيساً
- ٢- الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى عصر.
- ٣- قاضي عسكر الأناضول، وقاضي عسكر معناها «كبير القضاة» أو قاضي القضاة.

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٨-٣٩٩-٤٠٠.

- ٤ - قاضي عسكر الروم إيلي أي بلاد البلقان وأوروبا.
- ٥ - قاضي عسكر عن إفريقية، وقد ظفر هذا القاضي بعضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية في أفريقيا في القرن السادس عشر.
- ٦ - دفتر دار الروم إيلي وهو الباش دفتر.
- ٧ - دفتر دار الأناضول.
- ٨ - دفتر دار ثالث أضيف إلى عضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية في العالم الإسلامي.
- ٩ - قائد فيالق الإنكشارية بصفته ممثلاً للجيش.
- ١٠ - قبودان باشا، قائد الأسطول البحري، بصفته ممثلاً للسلاح البحري بالتعبير العسكري الحديث.
- ١١ - النشانجي باشا^(١).

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من ذوي الخبرة في شتى المسائل. كان بعضهم يجلس على الأرض في قاعة الاجتماع، وبعضهم يظل واقفاً، وبعضهم الثالث يجلس في غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفني في مسألة مطروحة على الديوان. وكان للديوان في أيام السلم جلسات مطولة أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، وفي خلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات، وفي أيام الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته في خيمة الصدر الأعظم التي تقام على مقربة من مخيم السلطان وكان السلاطين يحضرون جلسات الديوان في أول الأمر ثم أوقف السلطان سليمان^(٢) المشرع هذا التقليد. وهناك رأي آخر يقول: إن الذي استنّ هذا التقليد هو السلطان محمد الفاتح، وأناب عنه الصدر الأعظم، واكتفى

(١) النشانجي: وهو حامل أختام ونياشين السلطان، والنشانجي باشا، رئيس حملة أختام ونياشين السلطان. سرت أوغلو، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٢) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ج ١، ١٩٩٢، ص ٣٨٦-٣٨٧. مانتران، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٧٦-٣٧٧.

بالاستماع إلى المناقشات التي تدور في الاجتماع، وذلك من وراء ستار أو من نافذة تطل على قاعة الاجتماع^(١). والواقع هناك كتيب في الإدارة التركية يعود للقرن الحادي عشر ميلادي، يسمى «الدائرة المختصة بالإنصاف»

Circle of equity

Kutadqu Bilig

is an 11th century Turkish manual

وملخصه كالتالي :

- ١ - للسيطرة على الدولة يتطلب الأمر جيشاً كبيراً.
 - ٢ - ولدعم القوات يتطلب ثروة عظيمة.
 - ٣ - وللحصول على هذه الثروة، يجب أن يكون الناس مزدهرين .
 - ٤ - ومن أجل أن يكون الناس مزدهرين، يجب أن تكون القوانين عادلة.
- فإذا أهمل أحد هذه الأمور فإن الدولة ستنهار.
- ونظرية (دائرة الإنصاف) هذه كانت هي حجر الزاوية في الفلسفة السياسية العثمانية حتى عام ١٨٣٩، وإصلاحات «التنظيمات»^(٢).
- وبعد هذه المقدمة الطويلة نوعاً ما نعود إلى موضوعنا «الحياة الإدارية في دمشق» خلال فترة الدراسة ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م ونبدأ بـ: ولاية دمشق.
- كانت العبارة المستعملة من قبل مؤرخي الأحداث التي تدل على ولاية دمشق قد خضعت إلى التغيير مع مرور الزمن، ففي القرنين: السادس عشر والسابع عشر كان تعبير (نائب الشام) يستعمل غالباً، وكان هذا الاستمرار في استعمال الاصطلاح الملوكي يرى على أفضل وجه في كتابات محمد بن طولون الذي عاصر نهاية الحكم المملوكي وبداية الحكم العثماني.

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٨٩.

(٢) Ottoman rule in Damascus 1708-1758 Karl. K. Barbir. P. 19-20-21.

كان هذا الاصطلاح قد ترك في الواقع في أوائل القرن الثامن عشر، ولم يعد يستعمل من قبل مؤرخي الأحداث الدمشقيين، ففي كتابات المحبي والمرادي يظهر اصطلاح «الحاكم» و «الكفيل» وكلاهما يعنيان (الوالي).

استعمل ابن طولون تعابير «كفيل»، «كفالة» (ولاية) منصب (الوالي) بمعنى «نائب»، «نيابة» كما أنه استعمل أيضاً تعبير (الوالي) أي (الحاكم) من قبل مؤرخي الأحداث الدمشقيين ولا سيما في القرن الثامن عشر، كان ولاية دمشق يتمّ تثبيتهم سنوياً في وظائفهم، وبذلك تمت المحافظة على تهديد أمر استمرار ولايتهم، ولكن الفساد الإداري لا سيما في العاصمة استانبول جعلهم ينجحون في مرات كثيرة في منع عزلهم أو على الأقل في بقائهم لأطول فترة ممكنة.

ومهما يكن من أمر، فإن أهمية التثبيت السنوية تكمن في مغزاه ونتائجه على العلاقات بين الوالي ومجموعات القوى داخل دمشق، ولأغراض الدعاية وتعزيز هيئته كان الوالي يستغل وصول فرمان تثبيته، إذ كانت تطلق المدفعية وتقام الاحتفالات لجلب الانتباه لأهمية المناسبة، من غير الواضح إن كان التثبيت يتم بعد سنة من التعيين، أو بعد سنة من التثبيت السابق أو بتاريخ نظامي محدد، وكان فرمان التثبيت يصل متأخراً أحياناً وربما كان سبب ذلك مناورات المرشحين في استانبول، أو يعزى إلى درجة كفاءة وكيل الوالي في الباب العالي ومقدرته، أو بسبب صعوبات السفر أو بسبب الفساد البيروقراطي، وغيرها من الأسباب المشابهة^(١).

وكان قرار تعيين الوالي يصدر من الصدر الأعظم بعد أخذ موافقة السلطان، وكان هذا الأمر يأخذ بشكل مذكرة قصيرة من سطرين أو ثلاثة أسطر، تخط من قبل وكيل الصدر الأعظم، كانت تنص على أن شخصاً معيناً قد عيّن لحكم ولاية معينة، وبعد أن يكون الصدر الأعظم قد كتب.. أمر بكذا... أو أصادق على الوثيقة كانت تعاد كتابتها مرة أخرى بشكل أكثر اتقاناً وتفصيلاً يمكن أن تحتوي وتتضمن أكثر من تعيين، ولا سيما حينما كان الولاية يتبادلون الولايات، فعندئذٍ تكتب نسخة أخرى ويثبت عليها الختم الإمبراطوري/السلطاني عند أعلاها. وكانت هذه النسخة هي التي ترسل إلى الشخص المعين، وهذا التعيين كان يكلف الوالي كثيراً من الهدايا والأموال النقدية التي تقدم إلى

(١) . Rafeq. The province of Damascus. P. 11-12

السلطان في الأيام التي كان يجتمع فيها المجلس الإمبراطوري.. وكذلك إلى الصدر الأعظم، وكانت الهدايا توثق توثيقاً جيداً ويمكن أن تحول النقود إلى خزينة السلطان شخصياً بمعرفته وأمره.

وكان هناك رسم آخر للتعيين يسمى (الجائزة) وتعني حرفياً مكافأة^(١). وكانت هذه الهدايا أو الأعطيات تختلف وفق الأهمية النسبية لكل تعيين، وكمثال على ذلك فإن والي صيدا عام ١٧٣٠/ كان قد دفع جائزة قيمتها ١٥,٥٠٠ خمسة عشر ألفاً وخمسمائة قرش للموظفين الآتين:

١ - السلطان (ركابي همايوني)	٥,٠٠٠	خمسة آلاف قرش
٢ - الصدر الأعظم	٥,٠٠٠	خمسة آلاف قرش
٣ - نائب الصدر الأعظم	٢,٥٠٠	ألفان وخمسمائة قرش
٤ - رئيس المحفوظات (ريس أفندي)	٥٠٠	خمسمائة قرش
٥ - مساعد الموظف المسؤول عن منح الشعارات	٥٠٠	خمسمائة قرش
٦ - (مولوكاني صدري عالي) تابع الصدر الأعظم	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً
٧ - الكاتب الأول	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً
٨ - الكاتب الثاني	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً
٩ - كاتب نائب الصدر الأعظم	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً
١٠ - خازن الصدر الأعظم	٥٠٠	خمسمائة قرش
١١ - كاتب خزينة الصدر الأعظم	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً
١٢ - حارس غرفة الصدر الأعظم	٢٥٠	مئتان وخمسون قرشاً

وتجدر الملاحظة هنا أن الموظفين الثلاثة الأخيرين كانوا أعضاء من حاشية الصدر الأعظم الخاصة ولم يكونوا مخولين لتلقي هذه الدفعات وفق القانون.

(١) Karl Barbir. Ottoman rule in Damascus 1708-1758 P. 22-23-24.

وهناك نوع ثالث من الدفعات لكلا التعيين والتجديد لولاية الولاية، لم تكن مسموحة قانوناً ولكنها معترف بها علناً، وكانت الدفعة التي تقدم للسلطان تعرف بالركابية - الهمايون.. وكانت الأموال التي تسمى بهذه التسمية غير محددة أي ليست مرتبطة بأية مجموعة من الصرفيات، وكانت تصرف إما من قبل الصدر الأعظم بناء على أوامر السلطان أو تحوّل مباشرة على الخزينة الداخلية أي حساب السلطان الخاص.

وكان لكل والٍ وكيلٌ في استانبول لتسيير شؤونه، بصورة رئيسة المالية في دوائر الصدر الأعظم، وكان هذا الوكيل يعين ويعزل مع سيده عندما يعزل من الولاية^(١). والحكومة المركزية كان لديها رهينة تحت يديها إذا ما أبدى الوالي تمرداً أو لم يدفع ديونه، والوالي الذي كانت الدولة تغضب عليه وتعزله كانت جميع ثروته تصادر^(٢). وكان الولاية في غالبيتهم من غير العرب، ومعظمهم يجهل العربية، ويناط بالوالي القيام بالدورة لجمع المال من أنحاء الولاية، وتأديب العصاة والخارجين على الدولة، والإشراف على سلامة قافلة الحج الشامي^(٣) قبل أن تنبسط الدولة مهمة قيادة قافلة الحج الشامي بولاية دمشق بشكل دائم بدءاً من عام ١٧٠٨. قبل ذلك كان على ولاية دمشق أحياناً تلبية طلب استانبول للمشاركة في بعض الحملات العسكرية في أوروبا مثلاً. ففي الحملة الأولى ١٦٨٢ - ١٦٨٣ في حصار فينا كانت قوات دمشق الـ /٥٠٠/ تشكل جزءاً من القوات العثمانية المحاصرة والتي قدرت بـ ٣٥٠,٠٠٠ مقاتل. ويبين الجدول حجم القوات الشامية في الجيش العثماني:

(١) Karl Barbir. Ottoman rule in Damascus. P. 25-26، من العادة أن يكون لكل والٍ ممثل له

في استانبول.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ .

(٣) محمد بن كنان الصالحي، يوميات شامية من ١١١١-١١٥٣هـ/١٦٩٩-١٧٤٠م، صفحات نادرة من تاريخ دمشق في العصر العثماني، تحقيق أكرم حسن العلي، دمشق ١٩٩٢، ص ٧.

الجهة	التاريخ	الحاكم (والي دمشق)	أعداد المقاتلين
النمساوية	١٦٨٦	صالح	؟
النمساوية	١٦٨٩	سالت أحمد	؟
النمساوية	١٦٩١	مرتضى	٣٠٠ رجل
النمساوية	١٦٩٤-١٦٩٦	كان نيجلي عثمان	١٠٤ سباهيين
النمساوية	١٦٩٧	يوزوكلي مصطفى	٣٠٠ سباهي

* الباشوات الذين حكموا دمشق خلال فترة البحث

١٧٠٠-١٦٧٥/١١١٢-١٠٨٦

- ١- كور حسين باشا المنفصل عن أدرنه، وعمرّ البلاط من محلة سوق صاروجا إلى محلة الصالحية.
- ٢- إبراهيم باشا المنفصل عن كريت.
- ٣- بستجي عثمان باشا.
- ٤- آبازه حسين باشا الصاري للمرة الثانية.
- ٥- محمد باشا ابن عبيدي (متسلم مابين) ^(١).
- ٦- عثمان باشا البستجي للمرة الثانية.
- ٧- إبراهيم باشا المنفصل عن بغداد.
- ٨- قبلان باشا.

(١) أي أنه جلس محل الوالي المعزول ولما يأتي قرار تعيينه والياً بعد.

- ٩ - صالح باشا ابن دويعر.
- ١٠ - حمزة باشا المنفصل عن مصر دخل دمشق وجلس، تكبر وتجبر وطغى هو وأتباعه، وكل من رأوه ضربوه وشتموه (فقامت عليهم أبناء دمشق وقتلوه وأهانوهم حتى أذلهم الله تعالى وصاروا كالكلاب)^(١).
- ١١ - مصطفى باشا السلحدار.
- ١٢ - مرتضى باشا كتحدا صاري حسين باشا.
- ١٣ - كورجي محمد باشا.
- ١٤ - البشير مصطفى باشا.
- ١٥ - إيشير مصطفى باشا، للمرة الثانية.
- ١٦ - عثمان باشا السلحدار.
- ١٧ - مصطفى باشا البيقلي السلحدار المنفصل من الوزارة العظمى تولى دمشق للمرة الثانية وكان عادلاً عارفاً ديناً صالحاً.
- ١٨ - أحمد باشا بن المرحوم صالح باشا.
- ١٩ - محمد باشا أبو شنب الوزير.
- ٢٠ - أرسلان باشا الوزير جاء من طرابلس^(٢).
- وكان الوالي يقيم في (دار السعادة) وهي بناء مملوكي كان في موقع سوق الحميدية اليوم ثم انتقل إلى السراي. (والسراي كلمة تركية معناها القصر الكبير) وقد بنيت في دمشق في موقع القصر العدلي اليوم، وكان ذلك قبل سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧-١٥٧٨، ثم

(١) مذكرات كورجي محمد باشا، مكتبة السليمانية، رقم ٣٤٣٨، ورقة ١١-١٢.

(٢) ابن جمعة، ولاية دمشق في العصر العثماني، مصدر سابق، ص ٤١-٥١.

هجرت هذه السرايا وغدت مقراً للأمير الحج، ثم انتقل مركز الباشا إلى منزل والي دمشق، كنج يسوف باشا، الذي بني على أنقاضه ما يعرف اليوم بمنزل عزت باشا العابد، المطل على ساحة الشهداء (المرجة)، ثم تبدلت تبعاً للظروف التي واجهتها ولاية دمشق:

١ - دار السعادة المملوكي سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م.

٢ - السرايا، خارج باب النصر نحو سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣-١٥٤٤م.

٣ - قصر الوالي كنج يوسف باشا نحو سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠-١٨٤١م.

٤ - السرايا على ضفة بردى سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢-١٩٠٣م، وقد أزيلت جميعها ما عدا الأخيرة^(١).

في أثناء مرافقة الرحالة العثماني أوليا جلبي للباشا مرتضى الذي عين حديثاً والياً لدمشق عام ١٠٩٥هـ/١٦٤٩م، وصف الرحالة ثياب الوالي الجديد فقال: كان الباشا غارقاً بثيابه المرصعة بالقماش المزركش بالذهب والقطيفة والأزرار المصنوعة من الجواهر، ووشاح السمور، حاملاً صجبة السهام^(٢).

وكان والي دمشق في بعض الأحيان يجابه من قبل علماء دمشق وأعيانها إذا رأى هؤلاء أن ظلماً قد أحاق بدمشق من قبل الوالي. ففي عام ١١٠٧/١٦٩٥-١٩٦٩م قام بعض العلماء بمن فيهم عبد الكريم بن حمزة نقيب الأشراف، وسليمان بن محاسن خطيب الجامع الأموي، والشيخ عثمان القطان بمعارضة ظلم الوالي وأوامر السلطان فتم نفيهم إلى قلعة القسطل شمال دمشق، وإلى طرابلس وإلى قبرص^(٣).

ومن الشخصيات الأخرى في الولاية والتي يمكن الإشارة إليها:

(١) ابن كنان، يوميات شامية، تحقيق العلي، مصدر سابق، ص ٨ من المقدمة.

(٢) أوليا جلبي سياحت نامه س ١٣١٤، ص ٦٩.

(٣) جودت باشا، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٤٠.

- المتسلم:

كان حكام الصناجق أو الأقسام الإدارية الأصغر التابعين لوالي دمشق يسمون بالمتسلمين، واصطلاح متصرف كان يستعمل بديلاً لمتسلم بهذه الصفة، فعندما كان الوالي يغيب عن دمشق فإن الشخص الذي ينوب عنه كان يسمى متسلاً. ودور المتسلم في دمشق كان ذا أهمية كبيرة، ففي فترة خلو الولاية بين عزل وال وصول خلفه كان المتسلم يأخذ زمام أمر الحكومة، فبهذه الصفة كان واضحاً أنه يُعرف على أنه (متسلم ما بين) والذي يعني والياً متوسطاً. وعندما كان الوالي يغادر دمشق لفترة مؤقتة في مهمة ما، مثل ذهابه للدورة أو للحج فإن متسلاً كان ينوب عنه. ومتسلم دمشق كان يعين عادة من قبل الوالي وغالباً ما كان يتم اختياره من حاشيته، أو يعين آغا اليرلياء، أو القابي قول^(١)، أو آلي بيبي (قائد القوات الإقطاعية) متسلاً، وفي مناسبات معينة كان السلطان نفسه يعين المتسلم، وهذا الأمر كان يحدث بصورة رئيسة في الحالات التي لم يكن فيها الوالي قد سمي من قبل السلطان، وأيضاً في الحالات التي لا يكون فيها الوالي المعني في وضع يسمح له بتسمية (متسلمه)، وفي حالات الطوارئ كان أعيان دمشق يسمون (المتسلم) وفي مناسبة من المناسبات دخل المتسلم دمشق، لكن واليه كان قد عزل قبل توليه المنصب، وأرسل الوالي الجديد متسلاً آخر.

لم تكن هناك استمرارية في وظيفة المتسلم بدمشق، إذ إنه كان ينوب عن الوالي فقط خلال غيابه، أما في حالة حضور الوالي فلم تكن للمتسلم أية سلطة واقعية، ولم يكن المتسلم الذي ينوب عن الوالي في الفترة ما بين تسميته ووصوله إلى دمشق، هو بالضرورة الرجل نفسه الذي كان ينوب عن الوالي في أثناء غيابه^(٢).

وقد ذكرت المصادر أسماء عدد من المتسلمين في فترة البحث ١٠٦٨-١١١٢/ ١٦٧٥-١٧٠٠م. ومنهم:

١ - محمد باشا ابن عبيدي (متسلم ما بين).

(١) جودت باشا، مصدر سابق، ص ٣٤٢.

(٢) رافق، مرجع سابق، ص ١٤.

- ٢ - خليل آغا.
- ٣ - أحمد آغا اليكن.
- ٤ - ذو الفقار آغا.
- ٥ - جركس يوسف آغا.
- ٦ - بيرم آغا متسلماً من قبل السلطنة.
- ٧ - درويش آغا.
- ٨ - إبراهيم بيك.
- ٩ - بشناق محمد آغا^(١).
- ١٠ - كورد مصطفى بيك.
- ١١ - حسين آغا، محمد آغا^(٢).

- الدفتردار:

كانت الحسابات المالية في ولاية دمشق يحتفظ بها من قبل الدفتردار الذي كان يشغل وظيفته ويتولاها مباشرة بأمر من استانبول، وبصفته أميناً للصندوق فقد كان يعالج الأمور النقدية بما في ذلك استلام النقود وصرفها وإنفاقها، وكان يشار إلى الدائرة المالية التي يترأسها، بالخزينة الأميرية السلطانية، أو الخزينة الأميرية، أو بكل بساطة الخزينة مكان الدفتردار^(٣)، يسمى في بعض الأحيان ويطلق عليه اسم دفتردار دمشق أو دفتردار الشام

(١) إسماعيل أوزون حقي تشارشلي، عثمانلي تاريخي، استانبول ١٩٨٣م، ج ٣ ص ١٥٧.
 (٢) صلاح الدين المنجد، ولاية دمشق في العهد العثماني، مصدر سابق، ص ٤٤-٥٠. تاريخ ولاية دمشق، مصدر سابق، رقم المخطوط /٧٥٢٢/ ورقة ٤-٥-٦. ذكر ولاية البكرليكية بدمشق، مصدر سابق، رقم المخطوط /٤٦٨١/ ورقة ٨-٩.

(٣) الدفتردار، يعين سنوياً من استانبول، وأغلب الدفترداريين يستمرون في مناصبهم لسنوات طويلة، وكان يعطى رتبة صنق بيك، وهذه الرتبة تعطيه حق الحصول على إقطاعات من نوع (خاص)، وزادت أهمية الدفتردار بتفسخ النظام الإقطاعي ونشوء نظام الالتزام واعتماد الدولة على الجنود أصحاب الرواتب بدلاً من جنود الإقطاعيين. تاريخ حسن آغا العبد، حوادث بلاد الشام تحقيق يوسف نعيسه، مرجع سابق، ص ١٦ هـ (١٥)، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات لمحمد علي الأنسي ص ٢٥٢، محمد التونجي، المعجم الذهبي فارسي عربي، بيروت ١٩٩٣، ص ٣٠٥، أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، مطبعة طربين ١٩٨١-١٩٨٢، ص ٣٢٤.

أو دفتردار دمشق الشام، وغالباً ما كان يطلق عليه دفتردار أو الدفتر، وتعريب المصطلح واضح من إضافة ياء النسبة (ي) التي حلت محل اللاحقة الفارسية (دار)، وكان يضاف إلى اسم الدفتردار في بعض الأحيان لقب أفندي^(١)، وأقل تردداً من ذلك (الشلبي)^(٢)، وحتى الوالي عام ٩٧٥هـ/١٥٦٨م.

كانت الأمور المالية لولاية دمشق وغيرها من الولايات الآسيوية تحت تصرف وسلطة دفتردار حلب وسلطته، الذي كان لقبه دفترداري العرب والعجم، وعند هذا التاريخ تقريباً ألغيت هذه الدائرة، وأسست خزانات أو (خزانات) منفصلة في كل من هذه الولايات، إن السلطة المالية لدفتردار حلب خلال هذه الفترة لا تحول دون وجود خازن محلي تابع في دمشق. والواقع أن مثل هذا الموظف كان موجوداً، وكان يحمل لقب دفتردار.

ويمكن اقتفاء أثر الدفتردارات ووجودهم في دمشق بعد عام ٩٧٥هـ/١٥٦٨م للأسباب الآتية:

- ١ - بعض الدفتردارات كانوا من أصل محلي.
- ٢ - لم تكن فترة وظيفة الدفتردار محددة، ففي إحدى الحالات بقي الدفتردار في وظيفته لمدة سنتين، وفي حالة أخرى بقي ثلاثين عاماً.

(١) أفندي، مولى، سيد، الدراري اللامعات ص ٣٢، جيمس رد هاوس الإنكليزي، كتاب معانٍ، لهجة، طبعة جديدة، مكتبة لبنان.

Ser. James W. Red house A. Turkish, and English lexicon – new edition. Librarie d'Liban 1973 . P. 160.

المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الذي عقد بدمشق بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٤٩٨ - ٣ محرم ١٣٩٩ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨، ٣ كانون الأول ١٩٧٨ من مقالة أ.ز شيري فاتر، جامعة كاليفورنيا وثائق البيع المثبتة في المحاكم الشرعية بدمشق في القرن التاسع عشر ص ١٠٦.

(٢) الشلبي، جلبي معناه الجميل - الحسن، سيد، قارئ، قاموس اللغة العثمانية المسمى الدراري اللامعات في منتخبات اللغات... جمعه ورتبه الفقير محمد علي الأنسي باشكاتب محكمة بدايات بيروت، طبع برخصة نظارة المعارف في ٢٧ اغنوس سنة ٣١٤، ورقمها ٤٦٧، مطبعة جريدة بيروت ١٣١٨ ص ٣١٤.

٣- في بعض الحالات كانت تسند إلى الدفتردارات واجبات أخرى، ففي عام ١٠١٤هـ/١٦٣١-١٦٣٢ عين دفتردار دمشق قائداً للحج، وفي أكثر من مناسبة عمل الدفتردار عمل المتسلم في دمشق، وفي إحدى المرات عين السلطان دفترداراً خاصاً لمراقبة الشؤون المالية من الجيش العثماني المتجمع بدمشق، ووُجدَ موظفون ماليون كانوا يعملون لحساب الوالي أو الدفتردار للاهتمام بشؤونهم المالية الخاصة. يسمى أحدهم خزنداراً (أمين صندوق) أو وكيل خرج (١) (مراقب النفقات)، وكانت سلطات دمشق العثمانية تعتمد اعتماداً كبيراً على اليهود بدمشق في الأمور المالية، حتى إن المعلم صدفة اليهودي كان معلم دار الضرب (رئيس موظفي دار سك العملة) بالإضافة إلى كون مراباً^(٢).

قبل أن يعهد إلى ولاية دمشق قيادة الحج الشامي في الربع الأول من القرن الثامن عشر. كانت هذه القيادة تعطى غالباً إلى المشايخ والأعيان المحليين الذين كانوا يعينون حكماً للصناجق في ولاية دمشق، لكونهم ملتزمي ضرائب في المنطقة التي يحكمونها، وكان هؤلاء الحكام المحليون يستخدمون جزءاً من العائدات الضريبية التي يجبرونها لتمويل قافلة الحج، وعندما أصبح ولاية دمشق قادة للحج، كانت مسؤوليتهم المباشرة تأمين مصاريف الحج إلى حد كبير من عائدات ولايتهم، من أجل هذا الغرض فإن ولاية دمشق بصفتهم محصلين (رؤساء ملتزمي تحصيل الضرائب)، كانوا يقومون بجولة سنوية لجباية العائدات الضريبية من ملتزمي جباية الضرائب المحليين، وكان هذا العمل يسمى بالعربية: «الدورة».

وكانت المناطق التي يقوم فيها الولاية بجولتهم في هذه الدورة، هي نابلس، وعجلون، واللجون، وغزة والقدس، في إحدى المناسبات كانت الشوف ضمن هذه الدورة، كان الولاية يقومون بجولتهم طبعاً قبل وقت تكليفهم بقيادة الحج. أضف إلى ذلك أنهم كانوا غالباً يكلفون بواجبات عسكرية خارج حدود ولايتهم، ولم يكن لديهم الوقت للقيام بالدورة بشكل منتظم، وبعد أن عينوا قادة للحج لم يعد يطلب منهم القيام بحملات عسكرية خارج سورية. وفي الحالات التي يوجد فيها متمرّدون في بعض سناجق الولاية في أثناء الدورة فإنّ والي دمشق كان يجرّد حملة عسكرية هجومية ضدّ زعماء التمرّد لإرغامهم على الخضوع

(١) رافق، مرجع سابق، ص ١٤-١٥-١٦-١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

ودفع ما يترتب عليهم من ضرائب، وفي هذه الحالات فإن مدة الدورة كانت تزيد. ومدة الدورة الطبيعية كانت تمتد شهراً وتبدأ عادة بين جمادى الثانية وأوائل شعبان، وكما قلنا فإن مدتها تتوقف على المشاكل التي كان على الوالي أن يعالجها داخل دمشق وخارجها. وعلى كل حال فإن وقت الرجوع من الدورة ما يرتبط بتاريخ مغادرة الحجاج مدينة دمشق قاصدين الأماكن المقدسة وهذا التزام غالباً ما كان يقتضي اختصار مدة الدورة^(١).

- الديوان :

كان هناك نوعان من الدواوين في دمشق:

أ - **الديوان الإداري:** وكان هذا مصطلح عام يدل على مركز الرئيس للإدارة بدمشق، بناءً عليه فإن الديوان كان يشكل جزءاً متكاملًا مع السرايا (مركز الوالي) لذلك كان يعرف بديوان سرايا الحكم. وكان يتألف بالدرجة الأولى من الكتبة الذين يشتغلون بالسجلات الحكومية، وكان هذا الديوان الإداري يتضمن :

١ - مكتب كاتب الديوان. ٢ - مكتب كاتب العربي. ٣ - مكتب أفندي الديوان. وكان يطلق عليه من قبل مؤرخي الأحداث المحليين (ديوان الأفندية) كان المكتبان الأخيران مهمين في الإدارة الإقليمية (المحلية) وكان الكاتب العربي مسؤولاً ومكلفاً بالمراسلة بالعربية كما يوحي الاسم بذلك. وكان شخصاً ذا نفوذ. وكان أفندي الديوان يعمل بصفة أمين سر الوالي..

كان هناك موظفون آخرون تابعين للديوان مثل بعض السباهيين الذين كانوا يحتفظون بتيماراتهم مقابل خدمتهم في الديوان، وكان هناك أيضاً الشاويشية، وهم موظفون عسكريون ذوو رتب صف ضباط تحت قيادة (باشي) وهم مكلفون بتأمين الأمن العام.

ب - **الديوان الاستشاري:** وكان مجمعاً للموظفين يتضمن الآغوات أي آغوات القوات العسكرية، والدفتردار، وقاضي القضاة، والمفتي، ونقيب الأشراف، ومن الأعيان (الذين كان يشار إليهم بالأكابر والأفندية).

(١) رافق، مرجع سابق، ص ٢١-٢٢.

أما أن يقال إن الديوان في دمشق يتألف دوماً من أشخاص محددين، ويجتمعون في فترات زمنية قريبة أو بعيدة فهذا أمر مضلل وبعيد عن الصحة. وهذا يعتمد على نوع المناسبة التي كانت مسوغاً للدعوة لاجتماعهم. كانت قراراتهم عادة تتخذ لتسهيل تطبيق قرارات الوالي، أو قرارات السلطان وكان الهدف الآخر من دعوتهم للاجتماع إلزام أولئك الحاضرين بالاجتماع بإتباع بعض القرارات المعنية والالتزام بها، والتي كانت في الأغلب تؤثر في مصالحهم الخاصة^(١).

قاضي قضاة دمشق

في دمشق وفي أماكن أخرى من الإمبراطورية العثمانية، كان كبير القضاة هو القاضي الحنفي، لأن هذا المذهب كان المذهب الرسمي للدولة، وكان يلي بالرتبة والمرتبة قاضيا العسكر في استانبول (قاضي عسكر الأناضول، وقاضي عسكر الروملي) وكذلك قاضي قضاة استانبول، والمدينتين المقدستين مكة والمدينة وقضاة العواصم السابقة للإمبراطورية العثمانية مثل: بروسا، وأدريا نوبل، ومع أن قاضي قضاة دمشق كان يُعطى الدرجة نفسها التي يتمتع بها قاضي قضاة مصر إلا إنه كان يُعدُّ أعلى مرتبة بسبب الأهمية الدينية لدمشق، وفي فترة البحث ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٠٧٥-١٧٠٠م، كان قاضي قضاة دمشق غالباً من الأتراك على الرغم من أنه في بدايات الحكم العثماني وجد بعض القضاة من أصل محلي مثل: جعفر أفندي العمادي الذي عين قاضياً لدمشق عام ١٥٥١/٩٥٨ وكان يشغل منصبه لمدة عام واحد، ولكن في الفترة منذ الاحتلال العثماني حتى عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م حدثت استثناءات بسيطة فقد بقي بعض القضاة في مناصبهم مدة تزيد عن العام في فترات متقطعة، بعضهم بقي لمدة أربع سنوات متتالية، ولكن بعد عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م فإن قاضي قضاة دمشق كان يبقى في وظيفته لمدة عام واحد، وكان يُعين من قبل قاضي عسكر الأناضول في استانبول، مع الميل إلى أن تصبح عادة إعادة تعيين قاضي القضاة نفسه أقل حدوثاً، وهذا التغيير السنوي للوظيفة من قبل قاضي القضاة، بالإضافة إلى كونه يمنع من استغلال منافع البقاء في الوظيفة لفترة طويلة، فإنه

(١) رافق، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

في الوقت نفسه كان يشبع رغبة قائمة طويلة من المرشحين المنتظرين لهذا المنصب، في الوقت الذي أخذ فيه الولاة يبقون في مناصبهم ربما لعدة سنوات، لا سيما في القرن الثامن عشر، وفي بعض الأحيان كان القاضي المعين حديثاً يدخل دمشق بينما كان خلفه لا يزال في المدينة لأن فترة وظيفته لم تكن قد انتهت بعد، لكن الآتي الجديد لم يكن باستطاعته القيام بأعباء وظيفته إلا بعد أن تكون فترة ولاية سلفه قد انتهت وإذا توفي قاضٍ ما أو نفي في أثناء قيامه بوظيفته، فإن وكيله كان يقوم مقامه حتى نهاية فترة مدة وظيفة القاضي^(١).

وقد جرت العادة أن يدخل القاضي الجديد دمشق من على برج الروس، ثم يتوجه إلى جامع الشيخ محي الدين في الصالحية، حيث يؤدي الصلاة، ويزور ضريحه، ثم يدخل دمشق بموكب رسمي برفقة علماء دمشق وأعيانها وأمرائها، ثم يزور الباشا في السرايا حيث يخلع عليه، ثم يغادره إلى محكمة الباب، المقر الرسمي له.

وكان يساعده في الغالب مترجمون وكتّاب ومحضرون، بالإضافة إلى شهود عدول يتولون كتابة العقود بالإضافة إلى قوة عسكرية^(٢). وفي فترة بحثنا فإن القضاة التالية أسماؤهم هم الذين حكموا (بصفة قاضي القضاة):

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------|
| ١ - عبد الباقي أفندي. | ٢ - مرزة محمد أفندي. |
| ٣ - عبد الله أفندي قاسم زاده. | ٤ - أنطاكي مصطفى أفندي. |
| ٥ - محمد أفندي (أوليا محمد أفندي). | ٦ - يوسف أفندي سنملي. |
| ٧ - رسول أفندي. | ٨ - مصطفى أفندي الإسكداري. |
| ٩ - أخيار محمد أفندي. | ١٠ - إسماعيل أفندي باقي زاده. |
| ١١ - محمود أفندي. | ١٢ - محمد أفندي شعبان زاده. |
| ١٣ - حفطي محمد أفندي. | ١٤ - حفطي مصطفى أفندي. |

(١) رافق، مرجع سابق، ص ٤٣-٤٤-٤٥. بريجيت مارينو، حي الميدان في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.

(٢) ابن كنان الصالحي، يوميات شامية، تحقيق أكرم حسن العليبي، مصدر سابق، ص ٩ من المقدمة.

١٥ - أبو بكر أفندي. ١٦ - عطا الله أفندي أمين الفتوى.

١٧ - حسن أفندي ابن شيخ الإسلام الكوري محمد أفندي.

١٨ - أحمد أفندي بيكر خوجاسي. ١٩ - أحمد أفندي البكري.

٢٠ - أحمد أفندي اليسري. ٢١ - أبو بكر أفندي رودس لي

٢٢ - سليمان أفندي.

وقد ذكرت إحدى المخطوطات عدداً آخر من أسماء القضاة عما ذكر سابقاً:

- عبد الله أفندي الأنطاكلي، بوشناق محمد أفندي، قاسم باشا أبو بكر أفندي.

- يوسف أفندي سنابلي، محمود أفندي شعبان زادة، حسين أفندي.

- عطا الله أفندي سيفي زادة، إبراهيم أفندي سيفي زادة.

- إبراهيم أفندي إمام مصاحب باشا، عبد الله أفندي ابن الحاج يوسف^(١).

ويلاحظ أن الغالبية العظمى من هؤلاء القضاة هم من غير العرب ما عدا أحمد أفندي البكري، عطا الله أفندي أمين الفتوى^(٢) وعبد الله أفندي بن الحاج يوسف. واتسمت القضايا التي كان يبحثها قاضي القضاة بدمشق بسمة خاصة، فقد كان من صلاحياته القيام بوظيفة المحتسب (مفتش السوق) حيث كان القاضي من حين لآخر يتجول في السوق ليدقق أمر وحدات الوزن، كان الناس يعدّون قاضي القضاة مسؤولاً عن الارتفاع المتكرر بأسعار الطعام، وطبعاً سبب هذا الارتفاع كان الاستغلال والربح الفاحش، حتى إنه في

(١) ذكر ولاية البكر بكية بدمشق، مرجع سابق، رقم المخطوط /٤٦٨١/ ورقة ١٦-١٧.

(٢) ابن جمعة، ولاية دمشق في العهد العثماني، مصدر سابق، ص ٤١-٥١، والوزراء لابن القاري، ومصادر عن تاريخ دمشق أيام العثمانيين جمعها وحققها ونشرها صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٩، ص ٤١-٥٠. تاريخ ولاية الشام، اسم المؤلف مجهول، رقم المخطوط /٧٥٢٢/ ورقة ٣-٦، مخطوط ذكر ولاية البكر بكية بدمشق، أو ذكر من تولى دمشق من البكر بكية من سنة ٩٢٢-١٣٠٦، ومن تولوها من القضاة سنة ٩٢٢-١١٤٩، اسم المؤلف مجهول، رقم المخطوط /٤٦٨١/ ورقة ١٦-١٧.

إحدى المرات هاجم العوام المحكمة حيث يجلس قاضي القضاة ورجموها بالحجارة فأمر القاضي حراس المحكمة بالرد فكان أن قتل أحد رجالات القاضي وقامت شبه ثورة شعبية مما اضطر القاضي للهرب من فوق السطوح^(١).

ومن مهمات قاضي قضاة دمشق أيضاً تعيين العلماء في المناصب الدينية، وتحديد رواتبهم، واختيار سكنهم في المدارس المختلفة، وإصدار الأحكام في الجرائم الكبرى، وإعتاق المماليك والعبيد، واستقبال ممثلي الطوائف الحرفية، والمصادقة على اختيار شيوخهم، واستقبال ممثلي الأقباء، وتفتيش الأوقاف، وحل الخلافات التي تنشأ عن استخدام مياه الأنهار بغرض الري^(٢).

وكلاء قاضي القضاة الحنفي

ليس معروفاً فيما إذا كان كل قاضٍ يعين لدمشق يُسمَّى وكيلاً ليقوم بالوظيفة حتى وصوله، أو ليقوم بأعبائه عندما يكون متوَعك الصحة، فهناك أمثلة تؤكد أنه كان لقاضي القضاة العديد من الوكلاء، وكان بعضهم يقوم مقامه عند الضرورة، ففي الفترة الواقعة بين عزل قاضي القضاة ووصول خلفه، كان ينوب عنه وكيل خاص يعرف (بنائب ما بين) أو الوكيل الوسيط، وفي الأغلب كان يطلق عليه اسم (النائب) الذي ينوب عن قاضي القضاة المعين حديثاً، ويمكن أن يكون هذا الوكيل من أصل محلي أو رومي، وفي بعض المناسبات فإن مفتي دمشق نفسه كان يُسمى (نائب ما بين)، ويمكن لشخص واحد أن يقوم بهذه الوظيفة لمرات عدة، فأحد الوكلاء على سبيل المثال على ذلك بقي في الوظيفة لمدة حوالي خمسين عاماً، واحتفظ بها آخر مدة تزيد عن الأربعين عاماً.

وأخيراً فالمصادر الدمشقية لا تشير إلى أن قاضي القضاة بصفته هذه كان يرافق قافلة الحج الشامي كل عام. والاحتمال الأقوى أنه كان يعهد للآخرين القيام بهذه المهمة، بل إن بعض المصادر تذكر زيادة على ذلك قاضياً خاصاً اسمه (قاضي الركب الشامي)

(١) أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، مصدر سابق، ص ١٤٥ .

(٢) بريجيت مارينو، حي الميدان في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٩.

هو الذي كان يصحب الحجيج كل عام، وكان هذا عادة إما أن يكون أحد وكلاء قاضي قضاة دمشق، أو قاضياً متقاعدًا، أو أحد العلماء^(١).

محاكم دمشق الشرعية:

١ - المحكمة الكبرى (محكمة البزورية الكبرى) كانت تقع في مدرسة الجوزية في حي البزورية، وكان يجلس بها قاضي قضاة دمشق منذ الفتح العثماني أو ربما قبل ذلك وحتى عام ١١٦٦هـ/١٧٥٢-١٧٥٣م حيث انتقل بعد ذلك إلى:

٢ - محكمة الباب (محكمة النورية) وتقع مقابل مدرسة النورية الكبرى ولا يزال الشارع الذي يفصل ما بين البنائين يحمل إلى الآن اسم زقاق المحكمة^(٢).

٣ - محكمة الميدان، وتقع على الطريق العام تجاه مسجد الصحابي الشيخ صهيب الرومي على بعد ٢٥/ متراً تقريباً جنوب زاوية الشيخ ناصر الدين أبي الفضل الموصلي والتي هي حالياً تربة لذريته، وحتى أواخر السبعينات من القرن العشرين كان ما يزال بناء المحكمة قائماً، ويستخدم طاحونة ومخزناً للحبوب، وقد جرى منذ بداية العهد العثماني تعيين قضاة في حي الميدان، بيد أن هؤلاء القضاة كانوا ضعافاً وليس لهم أهمية إذ لم يكن مطلوباً منهم أن يرسلوا ثياباً إلى قاضي قضاة المحكمة الكبرى وعلى عكس قضاة المحاكم الأخرى الذين كانوا يرسلون الهدايا لقاضي القضاة^(٣).

(١) رافق، مرجع سابق، ص ٤٥-٤٦-٤٧-٤٨.

(٢) مارينو، مرجع سابق، ص ٣٠. رافق، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠-٣١. الموصلي، تراجم الأعيان في أنباء الشيباني من أهل الزمان في القدس الشريف ودمشق الشام، ملحق كتاب (من تراثنا نهاية المطالب في أنساب السيدة فاطمة الزهراء والإمام علي بن أبي طالب، من دمشق الفيحاء إلى الموصل الحدباء ١٣٩٨هـ/١٩٧٨، صلاح الدين خليل الشيباني الموصلي، ص ١٢٩. لطف السمر وقطف الثمر للغزي، الجزء الأول، ص ٤٨.

٤ - محكمة العونية (قناة العوني) في حي العمارة قرب جامع الجوزة، مكان معروف ومشهور، وكان قبلي هذا المجامع مسجد آخر حوّل إلى محكمة تعرف بالمحكمة العونية، وكان يفصل بين المسجدين طريق ضيق بعرض متر ونصف تقريباً، وكان قبلي هذه المحكمة قناة هي قناة العوني، وقد هدمت هذه القناة مع المحكمة^(١).

٥ - محكمة الصالحية: تقع محكمة الصالحية في حي يعرف اليوم بحي المحكمة بالقرب من حي المدارس في الصالحية^(٢).

وبالإضافة إلى المحاكم السابقة ذكرت محاكم أخرى خارج السور منها:

٦ - محكمة السنانية، ولم يرد ذكرها إلا في حدود القرن التاسع عشر، ومن المحتمل أن يكون قيامها مرتبطاً بتزايد الإجراءات القضائية في هذا الموقع من المدينة الذي كان يشهد توسعاً كبيراً وإذا كانت محكمة السنانية حديثة العهد^(٣) نسبياً، فقد وجدت محاكم أخرى ظل وجودها مؤقتاً، كما هو الحال في محكمة الجابية التي ورد ذكرها عام ٩٢٦هـ/١٥٩١م، ومحكمة المؤيدية التي توقف نشاطها في عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م.

وفي القرن الثامن عشر ورد أيضاً ذكر محكمة الدهينانية، ومحكمة البينانية، وكانت هذه المحاكم المتنوعة التي أطلق عليها اسم محاكم دمشق وصالحيتها خاضعة لسلطات نواب قاضي قضاة دمشق الذين كانوا ينتسبون لأصول محلية، إلا أنهم لم يكونوا يمارسون وظائفهم بالضرورة في المحكمة نفسها طوال مدة خدمتهم، فمن المعروف بأنه كانت هناك حركة تنقل بين صفوف الملاكات، تجري غالباً بسرعة كبيرة في محاكم المدينة المختلفة، فمثلاً في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، أصبح شرف الدين بن موسى الأنصاري (المولود عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م والمتوفي بعد ١٠٠٢هـ/١٥٩٣ -

(١) أعلام حوري، تحقيق دهمان ، ط٢، ص ١٩٤ هـ (١)، عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، طبه ١٤٠٦هـ/١٩٨٦، ص ٣٧٢.

(٢) الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ص ٤٨ هـ (٥)، بريجيت مارينو، حي الميدان، مرجع سابق، ص ٣١.

(٣) مارينو، مرجع سابق، ص ٣٠.

١٥٩٤م اعتباراً من عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م نائباً لقاضي القضاة في محكمة الصالحية، ليعود مرة أخرى إلى محكمة الميدان وأخيراً إلى محكمة العونية، ومحكمة الجوزية.

كان يجب على القضاة غير التابعين للمذهب الحنفي الحصول على إذن قاضي القضاة الحنفي قبل إصدار الحكم، وفي حالات معينة كحالات الحكم بالطلاق في غياب الزوج، وكذلك القضايا المتعلقة بالأوقاف، وهذا الإذن كان يمنح شرعية للحكم في حالة التقدم بشكوى، وكان غيابه يستخدم ذريعة في العديد من الإجراءات المختصة بالأوقاف ولا سيما عند القيام بأعمال الترميم^(١).

محاكم القسمة ، والقضاة القسامون :

كان هناك قاضٍ يسمى القسم العسكري، يعينه قاضي عسكر الأناضول ويجلس في محكمة تسمى محكمة القسمة العسكرية، ولا يعرف مكان إقامة هذا القاضي الذي كان يعالج شؤون العسكريين من مخلفات وتركات..

أما القسم المدني فهو القاضي الذي يعالج شؤون المدنيين الدمشقيين وكان يقوم بحصر مخلفات المتوفى، وتسعيرها، وبيعها، واقتطاع ما كان بذمته من التزامات وديون، وما ترتب على حصر التركة من نفقات ثم توزيع ما بقي من التركة بين الورثة، وعالج هذا القسم بخاصة أمور الأوصياء والقاصرين وثرواتهم ونفقات معيشتهم، وعرفت المحكمة التي كان يرأسها محكمة القسمة المدنية أو البلدية، وبما أن قاضي قضاة دمشق هو مَنْ يعيّن القسم والذي يعدّ نائباً لقاضي القضاة لذا فمن الراجح أن محكمة القسمة المدنية (البلدية) كانت تعقد في المحكمة الكبرى حيث مقر قاضي القضاة في فترة الدراسة ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م، أما القاضي الذي كان يسمى القسم العربي فكان يجلس في محكمة القسمة العربية وهي خاصة بتركات غير الدمشقيين المتوفين بدمشق^(٢).

وتظهر الجداول أسماء القضاة الذين باشرُوا أعمالهم في محاكم دمشق:

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢١٩-٢٢٠. مارينو، مرجع سابق، ص ٣٣.

بني جدول التاريخ المباشر، والتاريخ غير المباشر لتناول القضاة للوثائق في محاكم دمشق الشرعية، خلال الفترة الأولى للبحث ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م، والفترة الثانية للبحث ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م على السجلات والوثائق^(١).

إذا ألقينا نظرة على الجدول السابق نجد أن بعض أسماء القضاة تكاد تكون متشابهة، ولا تختلف إلا ببعض الصفات أو المفردات، مثلاً:

ورد أحمد بن عبد الحي القدسي وبعده مباشرة ورد أحمد القدسي الشافعي، وربما يكون الاسمان للقاضي نفسه ولكنني آثرت أن أسجلهما كما وردا في الوثائق بهذه الاختلافات. وكذلك الأمر بالنسبة للقاضي أحمد أفندي البكري، قد يكون هو نفسه أحمد أفندي الحنفي الموليخلفة (نائب قاضي القضاة) وكذلك أحمد أفندي الصديقي، وورد أيضاً زين الدين فقط مجرداً دون ألقاب أخرى، وبعده مباشرة ورد، زين الدين عبد الحي الوفائي، زين الدين عبد الحي بن مفلح الوفائي، زين الدين الوفائي الحنبلي، وقد تكون هذه الأسماء للقاضي. والأمر نفسه يقال عن: عبد الحي الحنبلي، عبد الحي الوفائي الحنبلي، عبد الحي بن محمد الحنبلي الوفائي، وكذلك: فيض الله الشافعي الحجازي الموليخلفة، فيض الله الشافعي الموليخلفة، وأيضاً ورد محمد أبو الصفا أفندي القسم العسكري، أبو الصفا محمد أفندي القسم العسكري. وقد سجل الاسمان كما وردا باختلافهما في ترتيب المفردات، وفي الأغلب فالاسمان للقاضي نفسه.

(١) س ١ مشوش، وثيقة ٧٣٦، ص ٣٠٧، وثيقة ٧٧٦، ص ٣٠٨، وثيقة ٧٧٦، ص ٣١٢، وثيقة ٨١٤، ص ٣٣٥، وثيقة ٨١٦، ص ٣٣٥، وثيقة ٧٥٤، ص ٣٠٤، وثيقة ٧٧٤، ص ٣١١، وثيقة ٧٧٥، ص ٣١٢.

س ٢ مشوش، وثيقة ٢٢٤، ص ١٣٣، وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧، وثيقة ٢٥٧، ص ١٣٨، وثيقة ٢٦٦، ص ١٤٣، وثيقة ٢٦٩، ص ١٤٣، وثيقة ٢٧٠، ص ١٤٤، وثيقة ٢٧٢، ص ١٤٥، وثيقة ٢٧٦، ص ١٤٧، وثيقة ٢٨٠، ص ١٤٨، وثيقة ٢٨٣، ص ١٥٠، وثيقة ٢٨٥، ص ١٥٢، وثيقة ٢٨٩، ص ١٥٣، وثيقة ٢٩٢، ص ١٥٤، وثيقة ٢٩٥، ص ١٥٥.

والملفت للنظر أن القاضي العام بدمشق أي قاضي القضاة قد يصبح في فترة لاحقة قاضياً عادياً. فمثلاً ورد: محمد أفندي بن أبي بكر القاضي العام بدمشق سابقاً، محمد أفندي القاضي العام سابقاً، وبغض النظر فيما إذا كان الاسمان للقاضي نفسه، فإن هذا القاضي الذي باشر القضية الآن قد أشير إليه على أنه كان سابقاً قاضياً عاماً. وورد في إحدى المرات أن القاضي العام نفسه قد يباشر القضية (إبراهيم أفندي القاضي العام بدمشق). وبلغ مجموع أسماء القضاة باختلافاتها المذكورة ٦١/ اسماً لقاضٍ، وكان مجموع أسماء القسامين العسكريين ١١/ أي بنسبة ١٨% تقريباً من مجموع الأسماء.

ونكرت إحدى الوثائق أن القاضي العام بدمشق (مولانا إبراهيم أفندي) بوصفه ناظراً على جميع أوقاف دمشق، صار ناظراً على الدار الموقوفة المستأجرة وذلك لموت الناظر الخاص^(١).

وقد عثرت على ترجمة لتسعة من القضاة الذين ذكرتهم الوثائق، ولم أعثر على ترجمة للقضاة الآخرين في المصادر. أما القضاة المترجم لهم فهم:

١ - أسعد أفندي البكري الصديقي القسام:

ولد بدمشق سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢-١٦٥٣م، وبها نشأ وترقى، تولى نيابة الحكم في محكمة الباب، وفي المحكمة الكبرى والقسمه مراراً، وأعطى رتبة قضاء القدس، كان صدر أعيان دمشق، مقبول الشفاعة عند الحكام، موثق لدى الخاص والعام، بنى داراً وجنينة في قرية جرمانا، فصارت نزهة للناظرين، كان يدعو الأعيان والأحباب إليها. نفاه والي دمشق إلى صيدا ١١١٨هـ/١٧٠٦م ثم أطلق سراحه بعد سنة، كانت وفاته سنة ١١٢٨هـ/١٧١٥م، بدمشق ودفن بتربة الشيخ رسلان^(٢).

(١) السجل ٢١٥، وثيقة ١١٨، ص ٧٣ رجب ١١١٢/الأحد ١٩ كانون الأول ١٧٠٠م.

(٢) منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب آل تقي الدين الحصري، قدم له الدكتور كمال سليمان الصليبي، الطبعة الأولى ١٣٣٩هـ/١٩٧٩م ج ٢ ص ٦١٨. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي، ذيل نفحة الريحانة ورشحة خلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى ١٩٧١م، ص ١١٤.

١ - أسعد أفندي البكري الصديقي القسام:

ينتهي نسبه إلى الخليفة الأول للمسلمين أبي بكر الصديق، ولد بدمشق ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م، ودرّس على جماعة من العلماء منهم محمد المحاسني خطيب الجامع الأموي بدمشق، وحضر دروس النجم القزي، ولي نيابة الباب والقسمة العسكرية وارتحل إلى الروم (ذهب إلى تركيا)، ووجهت إليه تولية مدرسة الجقمقية الكائنة بدمشق لصيق الأموي مع رتبة (موصلة الصحن) من الموالي، ثم ولي قضاء المدينة وقضاء دمشق، مات عام ١١١٧هـ / ١٧٠٥م^(١).

٤ - صنع الله أفندي :

هو صنع الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين بن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق بن عبد الرحمن المحبي الدمشقي، عم المؤلف المحبي صاحب كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. كان للمحبي بمنزلة والده حيث سافر والده إلى (بلاد الروم) وعمر المؤلف المحبي إحدى عشرة سنة فتولاه عمه صنع الله، وقال المؤلف إنه ما عاهد من عمه لحظة ما إساءة أو مقتاً، كان صنع الله لطيف الطبع مات أبوه وعمره عشر سنين فرباه شقيق والد المؤلف المحبي بكل محبة وأخوة، ولهذا فقد اشتغل بالعلم والتعلم كثيراً، فقرأ على الشيخ أحمد القلعي، وعلى الشيخ النجم الفرضي، وناب في القضاء بمحاكم الشام، كالكبرى، والقسمة، والميدان، والعوينة، وصار نائباً بالقدس في سنة ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م، ثم سافر إلى بلاد الروم وصار قاضياً بحمص، ومن ثم رجع إلى الشام وعهد إليه تولي قضاء معرة المصيرين، وقد تمكن من تنظيمها وضبطها، ثم رجع إلى بلاد الروم، ثم أُعطي قضاء معرة مصرين ثانية، وبعدها سافر

(١) الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦١٩. المحبي، ذيل نفحة الريحانية، المرجع السابق، ١٦٣، مخطوط بمكتبة الأسد، البـ التدمري، ومن الواضح أن الكلمة الأولى غير واضحة أصلاً ربما تكون ثبت التدمري، اسم المؤلف: محمد التدمري، رقم المخطوط ٣٨٧٦، ورقة ٥٩-٦٠.

على سمرمين فتولى قضاءها، وتوفي بها وهو قاضيتها في ٨ رمضان ١٠٩٧هـ/ ٢٩ تموز ١٦٨٦م^(١).

٥ - عبد اللطيف أفندي بن القاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن طريف:

هو عبد اللطيف بن طريف، على الرغم من أن اسم والده مختلف، ولكنه هو: عبد اللطيف بن محمد بن محمد المعروف بابن طريق الدمشقي الصالحي الحنبلي، قاضي القضاة في صالحية دمشق، ومرجع الحنابلة فيها، كان أمهر أهل عصره في فنه وصار رئيس الموقعين بمحكمة العونية، توفي بدمشق ودفن بمدفن والده بالروضة في سفح قاسيون^(٢).

٦ - القاضي حسين الشافعي العدوي:

هو القاضي حسين بن محمود بن محمد بن محمد بن عيسى بن موسى العدوي الزوكاري الصالحي القاضي الشافعي المذهب كان فاضلاً عجيب الفهم والمطارحة، رقيق الطبع، أخذ عن كثير من العلماء في دمشق، منهم والده، والشمس الميداني، والنجم الغزي، وبعد الثلاثين من عمره رحل إلى القاهرة وأخذ عن البرهان اللقاني، وأبي العباس المقري، والشيخ علي الحلبي، وحج، وأخذ من علماء آخرين، منهم بالمدينة عز الدين الخليلي وبمكة الشيخ محمد بن علان الصديقي، وأقرأ وأفاد بدمشق الكثير، ولي قضاء الشافعية بمحكمة الميدان، والمحكمة الكبرى، وأفتى على مذهبهم^(٣).

(١) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ٢، دار صادر، بيروت ص ٢٥٩.

(٢) أكرم حسن العلبي، تكملة شذرات الذهب في أخبار من ذهب. الجزء الأول، تراجم الأعلام في القرن الحادي الحادي عشر الهجري في العالم الإسلامي، قدم له الأستاذ الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١، دمشق دار الطباع، ص ٣٨٩.

(٣) محمد بن إبراهيم الدكدكجي، مجموع مسانيد وأجازات وتراجم لبعض علماء دمشق، رقم المخطوط (٩٢٧٣) ورقة ٣٨.

٧ - عبد الحي أفندي المحبي الحنفي:

هو عبد الحي بن عبد الباقي بن محمد بن محي الدين بن أبي بكر تقي الدين بن داود المحبي الحنفي الدمشقي ابن عم والد المؤلف (المحبي) كان على جانب كبير من لطف الطبع وسلامة الناحية، سخيّاً متودداً، وكان والده يملك ثروة كبيرة، وأموالاً وافرة، ووالدته أيضاً من ذوات الأصول الكريمة المعروفة، وقد أخذت عن القاضي محب الدين الفقه والعربية، ثم قرأ عليها ابنها عبد الحي هذا وقرأ على علماء عصره، منهم العماد المفتي، والشيخ عبد اللطيف الجالقي، وعندما مات والده لم تلبث أن نفدت أمواله في مدة يسيرة فضمه وآخاه جد صاحب خلاصة الأثر، وقد تولى عبد الحي نيابات الحكم بدمشق فولي الميدان، والعونية، ودرّس بمدرسة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وتوفي المترجم في طريق الحج بنزلة عسфан سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٢-١٦٦٣م^(١).

٨ - إسماعيل أفندي الإيجي:

هو إسماعيل بن عثمان بن أحمد الحنفي الدمشقي المعروف بالإيجي، كان يتولى نيابة الحكم بمحكمة الباب، والقسمة العسكرية وغيرها، وله معرفة بالفقه والمسائل الشرعية، قتله قطاع الطريق بين قرية قطنا وقرية عرطوز عائداً من قطنا إلى دمشق، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٦ ذي الحجة سنة ١١٠٧/الجمعة ٢٧ تموز ١٦٩١، وقد سمي الإيجي نسبة إلى (إيج) وهي قرية من بلاد فارس^(٢).

٩ - محمد أفندي المعاريكي :

هو محمد بن القاضي حسن المعاريكي الصالحي الحنفي باشكاتب محكمة القسمة العربية، المتولي غالب الأوقاف بنيابة محكمة الصالحية، ولم يكن أحسن منه توثيقاً، ولا

(١) المحبي، خلاصة الأثر، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤١. محمد مطيع الحافظ، نزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن ١١ / ج ٢، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر دمشق، ط ١، ٢٠٠٠م ص ٢٦٥.

(٢) المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (أبي الفضل محمد خليل بن علي، ولد سنة ١١٧٣هـ، وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، المجلد الأول ص ٢٥٤.

أحسن خطأ من خطّه. تخرج عليه جماعة من كتّاب الصالحية، وكان عاقلاً ديناً، طويل القامة، نير الشبية، باذخ النظر، مات وصلي عليه بجامع السلطان سليم ودفن بسفح جبل قاسيون في ١٢ ربيع الأول ١١١٩م، الاثنين ١٣ حزيران ١٧٠٧^(١).

* المفتي :

كان المفتي في دمشق وفي غيرها من الولايات العثمانية يلي القاضي بالمرتبة الرسمية، وكان يعدّ الموظف المهم الرابع في الولاية، بعد الوالي، والمتسلم، والقاضي والمفتي الرسمي كان حنفياً يعين من قبل شيخ الإسلام في استانبول، وكانت فتواه فقط هي التي تقبل في المحاكم، وبعكس قاضي قضاة دمشق الذي كان يعين لمدة عام واحد، وأصله تركي على الأغلب، فإن المفتي كان على الأغلب من أصل محلي ويبقى في الحكم (المنصب) لفترات طويلة وأحياناً طيلة الحياة، وإذا درسنا قائمة المفتين الأحناف في دمشق في الفترة من ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م تظهر لدينا صفتان أساسيتان بارزتان: أولاً: حوالي نصف المفتين بدمشق من أصل تركي أمّا الباقون فهم من أصل محلي، في القرن السادس عشر، أما في القرن السابع عشر فقد كان اثنان من أصل ثلاثة عشر مفتياً من الأتراك فقط، وكان مفتو القرن الثامن عشر من أصل عموماً، وفي الفترة من منتصف^(٢) القرن السابع عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر، فإن عائلتين من دمشق هما: عائلة العمادي^(٣)، وعائلة المرادي^(٤) قدمت عدة مفتين، وحتى حوالي عام ١٧٥٠ تقريباً كان حوالي ثلث مجموع عدد المفتين من عائلة العمادي، وفيما بعد كان المفتون ينتسبون باستمرار وينحدرون من عائلة المرادي، وغالباً كان علماء دمشق، هم

(١) يوميات شامية لابن كنان، تحقيق أكرم حسن العلي، ص ١٢٨

(٢) Damascus survey – the component parts of the province of Damascus. Rafeq. P. 48. 49

(٣) تقي الدين الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، ٢، ص ٧٦٧. محمد شريف الصواف، معجم الأسر والأعلام الدمشقية، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٨٠.

(٤) الحصني، منتخبات، مرجع سابق، ص ٨٤١، محمد شريف الصواف، معجم الأسر، مرجع سابق، ص ٤٩٤.

الذين يسمون المفتي الحنفي، ويقدمون اسمه إلى استانبول، لأخذ موافقة شيخ الإسلام، وفي بعض الأحيان، فإن شيخ الإسلام لم يكن يوافق على التسميات المرفوعة من دمشق، وكمثال على ذلك، ففي عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤-١٧٥٠م عين مفتياً آخر بدل الشخص المسمى من قبل الوالي والقاضي وعدة أعيان من دمشق، وفي مناسبة أخرى صادق شيخ الإسلام على الطلب المرسل من قبل الدمشقيين بأن يكون، ابن المرادي المفتي المعين، وكان الوكيل عن المفتي، يسميه المفتي، وتتم الموافقة عليه من قبل شيخ الإسلام في استانبول، أقول كان هذا الوكيل هو الذي يتولى غالباً أعمال المفتي في غيابه، ولمساعدة المفتي في تسجيل فتواه فقد كان يتم توظيف واحد أو أكثر من الكتبة (كاتب أو كتاب) كتاب^(١) الفتوى، وكان المفتون من غير الأحناف، يسمون من صفوف كل مذهب، ثم يعترف بهم من قبل الوالي، وكان المفتون الشافعيون على الأغلب يعينون من عائلة الغزي، ولكن لم يظهر الميل نحو عائلة واحدة بين المفتين الحنابلة^(٢). وفي فترة البحث ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م، فقد ذكرت المصادر أسماء المفتين الذين كانوا يشغلون منصبهم، وهم:

١ - علاء الدين محمد بن علي بن محمد الحصكفي الدمشقي:

ولد بدمشق سنة ١٠٢٥هـ/١٦١٦م، وقرأ على والده، وعلى الإمام محمد بن تاج الدين المحاسني الخطيب، ولازمه، وانتفع به، ورحل إلى الرملة فأخذ عن المفتي خير الدين بن أحمد (الرملي)، ودخل القدس فأخذ بها عن فخر الدين بن زكريا الحنفي وحجّ فأخذ بالمدينة المنورة عن أحمد صفي الدين القشاشي، وله مشايخ كثيرون منهم منصور السطوح المصري، والأستاذ أيوب بن أحمد الخلوني الدمشقي، وعبد الباقي الحنبلي البعلبي، وبرع في العلوم، وكان عالماً فاضلاً، فقيهاً محدثاً نحويّاً. وله تأليف كثيرة وشرح تنوير الأبصار بالفقه المسمى الدر المختار، شرح ملتقى الأبحر بالفقه أيضاً سماه الدر

(١) وقد يسمى أمين الفتوى، حوادث دمشق اليومية للبيديري، ص ١٥٥.

(٢) عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص ٤٩-٥٠.

المنتقى، وكتب شرحاً على المنار في الأصول سماه إفاضة الأنوار، وله مختصر الفتاوي الصوفية، وغيرها كان في أول عمره فقير الحال، متغير الأحوال، فارتحل للروم فنهض به خطه لإقبال الوزير الفاضل أحمد الكوبري عليه. ولي إفتاء دمشق والمدرسة الجقمقية، ولما توفى المحدث محمد بن يحيى البطني، وانحلت عنه وظيفة تدريس الحديث تحت قبة النسر، وجهت التهم لصاحب الترجمة، ثم سعى به حسّاده، وكتبوا للدولة يصفونه بالأنفة والخيلاء، وزادوا أشياء فاقترضى عزله عن الحديث المذكور والإفتاء، ثم بعد مدة عاد للروم فوجه له قضاء قارة وعجلون على وجه التأييد، وأعيدت له بقعة التحديث بسعي شيخ الإسلام يحيى بن عمر المنقاري مفتي الدولة العثمانية، وأعطى بعد ذلك قضاء حماة، وقضاء صيدا، ومدرسة التقوية بدمشق،.. وكانت وفاته في يوم الاثنين ١٠ شوال سنة ١٠٨٨/اللاتين ٦ كانون الأول ١٦٧٧^(١).

٢ - أحمد بن محمد بن عبد الوهاب المهنداري الحلبي:

نزىل دمشق، والمفتي الحنفي بها. العالم الجليل، كان من أفاضل الأجلاء. ولد سنة ١٠٢٤هـ/١٦١٥م أخذ كثيراً من العلوم، وصار علماً لا يحتاج إلى إشارة، وقدم إلى دمشق واستوطنها. وتولى الإفتاء بها سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٥-١٦٦٦م، وتولى نيابة الباب بدمشق وتدريس السليمانية، ولم يعهد منه أنه شتم أحداً. وذكره العلامة الشيخ إبراهيم الخياري المدني في رحلته، وأثنى عليه وترجم له المحبي في نفحته وأثنى عليه. وكانت وفاته في ليلة الاثنين ١٣ جمادى الثانية ١١٠٥هـ/الثلاثاء ٩ شباط ١٦٩٤ وهذا هو الحساب الصحيح، أما ما ذكر من أنه توفى ليلة الاثنين قد يكون بعد منتصف الليل أي يوم الثلاثاء^(٢).

(١) المرادي، عرف البشام، مصدر سابق، ص ١٨٤.

(٢) المرادي، سلك الدرر، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٦-١٩١.

٣ - إسماعيل بن علي بن رجب الحايك الدمشقي:

مفتي الحنفية بدمشق، كان من أجلة العلماء الفقهاء المحققين، متعبداً، زاهداً كان فقيه الشام في عصره، وكان أبوه فقيراً جداً وصنعتة الحياكة، فكان يفرّ من حانوت أبيه، ويقرأ على المشايخ، ويحضّر دروسهم، منهم محمد المحاسني خطيب دمشق، وإبراهيم الفتال، وعلاء الدين الحصكفي إمام جامع دمشق ومفتيها، وكان جلّ انتفاعه منه، صار مدرساً بالشبلية بالصالحية، وعرض عليه إفتاء دمشق فقبله مع زيادة ورعه، وعدم رغبته في طلب وظائف الدنيا. فباشرها بهمة علمية لا دنيوية، وفتاويه متداولة جمعها أحد تلامذته، وولي خطابة الجامع الأموي، مات سنة ١١١٣هـ/١٧٠١-١٧٠٢م ودفن بتربة باب الصغير^(١).

٤ - علي بن إبراهيم بن عبد الرحمن العمادي:

ولد بدمشق في شعبان سنة ١٠٤٨هـ/ بين كانون الأول وكانون الثاني ١٦٣٨ - ١٦٣٩م، قرأ وأخذ عن جماعة منهم محمود الكردي نزيل دمشق، وإبراهيم بن منصور الفتال ورجب بن حسين القصيفي وغيرهم، وتنبّل وتفوق، وولي المناصب العلمية ومنها تدريس المدرسة السلمانية، والإفتاء بدمشق، وكانت وفاته منتصف ذي الحجة سنة ١١١٧هـ/الثلاثاء ٣٠ آذار ١٧٠٦م^(٢).

(١) الحصني، منتخبات، مرجع سابق، ج٢، ص ٦١٨-٦١٩، مخطوط ذكر دمشق الشام وما فيها من الفضائل، اسم المؤلف أحمد بن يوسف بن أحمد بن سنان القرماني، رقم المخطوط ٧٣٦٩ ورقة ٢٦-٢٩.

(٢) الحصني، منتخبات، المرجع السابق، ج٢، ص ٦١٨-٦١٩، مخطوط: ذكر دمشق الشام وما فيها من الفضائل: تأليف أحمد بن يوسف بن أحمد بن سنان القرماني، رقم المخطوط ٧٣٦٩ ورقة ٢٩-٢٦.

* نقيب الأشراف :

من الناحية الرسمية، كان نقيب الأشراف يلي المفتي بالمرتبة، ولكن عملياً كانت قوته تكمن في سلطته الخاصة، وكقائد للأشراف. والشريف هو الذي ينحدر من نسب النبي محمد ﷺ عن طريق ابنته فاطمة وزوجها علي، ويمكن لهذا الأمر أن يكون عبر ابن علي الأكبر الحسن^(١) أو ابنه الثاني الحسين^(٢)، ولكي يكون المرء شريفاً، فإنه كان يحتاج إلى جدول نسب (شجرة نسب) لكي يبرهن على نسبه إضافة إلى شهود ليصادقوا على ذلك، ويمكن للنسب أن يكون مقبولاً ومعتزلاً إذا كان من طرف الأب أو من طرف الأم، وإذا كان المرء شريفاً من الطرفين يكون ذلك أفضل، ولما كانت صحة وموثوقية بطاقات النسب الشريف ذات أهمية كبرى، لذا فقد بذلت محاولات وجهود كبيرة للتزود بتلك البطاقات (الوثائق)، كانت العلامة المميزة للأشراف هي اللفّة الخضراء كما أنهم كانوا يحملون لقب السيد، لم يكن الأشراف ينتمون إلى فئة خاصة من المجتمع الإسلامي، ففي حلب حيث كان الأشراف أقوىاء، كانوا يحاكمون أمام محاكم خاصة، يترأسها نقيب الأشراف، في القضايا التي ينجم عنها وتؤدي إلى السجن أو العقوبة الجسدية، وكانوا أيضاً يتمتعون بامتيازات خاصة، كالإعفاء من ضرائب معينة، كان نقيب الأشراف يدير شؤونهم، ويعين على أساس سنوي من قبل نقيب أشراف استانبول. يمكن لفترته أن تجدد، وهذا كله ينطبق على أشراف دمشق أيضاً، عملياً كان نقيب الأشراف يبقى في منصبه لعدة سنوات، ففي إحدى المناسبات احتكر السيد علي العجلوني هذه الوظيفة (استبد بها) من عام ١١٧٢هـ/١٧٥٨-١٧٥٩م إلى ١١٨٣هـ/١٧٦٩-١٧٧٠م هذا في القرن الثامن عشر، وكان يمكن أن تحدث حالات مشابهة في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

كان النقباء في دمشق من أصل محلي، وكانت منصب نقيب الأشراف ينتقل من النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. إن هذا المنصب كان ينتقل بين ثلاث عائلات دمشقية، هي: العجلاني، والحمزاوي، والكيلاني،

(١) المرادي، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، مصدر سابق، ص ٩٢-٩٧.

(٢) أحفاد الحسن يسمى أحدهم (شريف)، وأحفاد الحسين يسمى أحدهم (السيد)، المجتمع الإسلامي والغرب، هاملتون جب، هارولد بوين، ترجمة عبد المجيد القيسي، ج ١، ق ٢، ص ١١٠ هـ (٣٣).

وكان غالباً ما يستلم منصب النقيب أفراد من عائلة واحدة بالتتابع. ومن الواضح أن النقباء كانوا ينحدرون من الشافعيين ومن الأحناف أيضاً، وكمثال على ذلك من الحمزاويين والعجلانيين وعلى العكس من حلب، التي كانت ربما المكان الوحيد في الإمبراطورية العثمانية، الذي أدى فيه الأشراف دوراً رئيساً لأسباب خاصة تعود لمحلية حلب، أمّا الأشراف في دمشق فقد كانوا متأخرين في الوصول إلى الدور السياسي الفعال، فعندما دخلوا معترك النضال حوالي منتصف القرن الثامن عشر للوصول إلى القوة السياسية في دمشق كفئة أو مجموعة منفصلة فإنهم لم ينجحوا بذلك، وكان سبب فشلهم يعود إلى حد بعيد لعدم تمتعهم بالخبرة السياسية، ولا سيما وأن هناك قوى عسكرية تسمى (فرق اليرليا) تدافع عن مصالح الدمشقيين التي هي مصالحها في الوقت نفسه وعندما ضعفت اليرلية برز الأشراف كقوة موازنة لقوى القابي قول العسكرية الغربية^(١).

* القوات العسكرية:

كان هناك ثلاثة أنواع من الفرق العسكرية بدمشق خلال فترة الدراسة، وهي:
أ- القوات الإقطاعية. ب- الإنكشارية^(٢).

(1) عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١. أحمد قدامة، معالم وأعلام في بلاد العرب، القسم الأول، القطر السوري، ١٩٦٥ ص ٣٨. هاملتون جيب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ج ١ ق ٢، ص ١١٠-١١١-١١٩-١٢٠.

(2) الإنكشارية أو الينكجيرية: تعني Yeniçeri ، يني: جديد، وهنا بمعنى محدث، وتشري: جيش وجند، فهؤلاء الجنود الموظفون كانوا في الأصل يشكلون المشاة وحدهم، وكانوا أول الأمر متمركزين بالعاصمة، وأسس هذا الجند حوالي القرن الرابع عشر الميلادي من قبل السلطان أورخان بن السلطان عثمان ٧٢٦-٧٦١هـ/١٣٢٥-١٣٥٩م وباقتراح الوزير، قره خليل حاندارلي. وقد كان قوام هذا الجيش أولاد البلدان المسيحية التي افتتحها العثمانيون، كالبوشناق، والروم، والصرب، والبلغار، والألبان، وغيرهم. فكانوا يأخذون هؤلاء الصغار أو بالأحرى يخطفونهم وهم بسن العاشرة إلى الخامسة عشر، فيربونهم تربية إسلامية، ويروضونهم على الحياة العسكرية الخشنة، ويعودونهم على شطف العيش واحتمال الجوع الطويل، والآلام المبرحة، وقبل انتظامهم في الجندية يعرفون باسم الغلمان الأعاجم «عجمي أو غلانر» ومن ثم تعليمهم، استخدم بعضهم في قصور السلطان، ونقل الآخرون إلى التكنات في استانبول ليكونوا على استعداد للمهام العسكرية التي يكلفون بها.

أحمد قدامة، معلم وأعلام، ص ٧٧، شرف الدين موسى بن يوسف الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، القسم الأول حققه عدنان محمد إبراهيم، راجع تحقيقه عدنان درويش، ص ١٦٩.

ج- القوات الخاصة (المرتزقة).

* القوات الإقطاعية:

إن الصورة التي يمكننا رسمها من حيث أعداد القوات الإقطاعية في ولاية دمشق هي صورة سطحية غامضة نوعاً ما، بسبب المعلومات القليلة والمبعثرة عن هذا الموضوع، ففي بدايات القرن السابع عشر كما ذكر الأخباريون، فإن القوات الإقطاعية في ولاية دمشق كان عددها /٣١٩٧/ فرداً مما مجموعه /١٢٠٥٣٥/ فرداً بالنسبة لكل الإمبراطورية العثمانية، وذكر أنه في عام ١٦٨٧ كانت دمشق تؤمن ٧٠٠ تيمار من الفرسان السباهية^(١)، يبدو أن المهمة الأساسية للقوات الإقطاعية كانت حماية القلاع الكائنة على طول طريق الحج وكذلك الحجيج، ومع اضمحلال النظام الإقطاعي فإن الكثيرين من مالكي الإقطاعيات دبروا أمر إعفائهم من الخدمة العسكرية بدفع النقود والذي يعرف بالبدل، على كل حال فقد استمر وجود الجيش الإقطاعي (السباهي) حتى القرن الثامن عشر، ولكن من دون أن تكون له مهمات محددة، كان يتم اللجوء لهذا الجيش بصورة رئيسة في حالات الطوارئ عن طريق استدراج عواطف أفراده الدينية، كانت قيادة القوات الإقطاعية تتم من قبل الآلاي^(٢) بك الذي كانت له زعامة. والزعماء في فترة الدراسة كان

(١) تصرف العثمانيون بعد فتحهم بلاد الشام بأراضي الدولة المملوكية (وهي الأراضي الأميرية التي آلت إليهم من هذه السلطنة المملوكية)، فأعطوا معظمها على شكل إقطاع بأنواعه الثلاثة:
أ- خاص: ويقدر إيراده ما يزيد على ٩٩,٩٩٩ أقة، وأعطى إلى أفراد الأسرة المالكة وكبار الموظفين، أو ألحق بمناصب الولاية.

ب- الزعامت، ويزيد إيراده على عشرين ألف أقة، وأعطى للضباط.

ج- التيمار، الذي قدر إيراده بأقل من عشرين ألف أقة وزع على أفراد الجيش من السباهية، وعرف قائد السباهية بـ (آي بك)، والسباهية: جمع سباهي، المركبة من سباه الفارسية بمعنى عسكر خيالة أو جند ويا النسبة العربية، وكان السباهيون هم الذين يؤلفون جيش الفرسان في مقابل الينكجيرية الذين كانوا يؤلفون جيش المشاة.

رافق، دراسات اقتصادية اجتماعية في تاريخ بلاد الشام، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) الآلاي بك: تعني آمر الآلاي، والآلاي معناه رتبة عسكرية. أما هاملتون جب، هارولد بوين، فذكر أنها طابور، مرجع سابق، ط ١ قسم ١، ص ٨٩ ج ٢، ص ١٩٠، ولا تقتصر وظيفة الآلاي بك على دعوة الجيوش الإقطاعية إلى الحرب فقط، بل تتعداها إلى قيادة تلك الجيوش في المعارك تحت أمره حاكم السنجق.

لهم نفوذ أيضاً، وفي أوج النظام الإقطاعي ربما كان هناك آلاي بي واحد في كل سنجق بالولاية^(١).

* الإنكشارية في دمشق:

منذ بداية الفتح العثماني لبلاد الشام وحتى عام ١٠٧٠هـ/١٦٥٩-١٦٦٠م تقريباً كانت هناك فرقة إنكشارية واحدة في دمشق تحت قيادة آغا^(٢) معين من استانبول مباشرة. فالروميون (الأتراك) وهم إنكشاريون من أصل رومي (تركي)، كانوا يتمركزون في قلعة دمشق بعد فتحها من قبل السلطان سليم الأول، وبعد القضاء على ثورة جان بردي الغزالي من قبل الإنكشاريين الروميين (الأتراك) قويت حامية دمشق. وكانت الواجبات الرئيسية للإنكشاريين في القلعة كحامية عسكرية هي حماية القلعة وأبواب المدينة والعمل بصفة شرطة محلية، وعلى كل حال فإن أفراداً من الإنكشاريين رافقوا ولاية دمشق في حملاتهم العسكرية في داخل الولاية وخارج ولايتهم.

- الصفات المتغيرة للفرق الإنكشارية بدمشق:

عندما احتل العثمانيون بلاد الشام، فإن الإنكشاريين على الرغم من أنهم كانوا موطدي الأركان في الإمبراطورية، إلا أن علامات الفساد والتفسخ بدأت تظهر عليهم، وقد عاش إنكشاريو دمشق خارج تكتلاتهم مثلهم مثل غيرهم من زملائهم في كل مكان آخر، وانضموا للمهن واشتغلوا بها وأصبحوا تجاراً ومرايين، إن مثل هذا الاختلاط بالسكان المحليين، لم يكن وحيد الجانب، ذلك أن الكثير من الفنيين والتجار وغيرهم من

(١) البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٦٣، ج ٢، ص ٧.

(٢) آغا: لفظة تركية أخذت معاني مختلفة واستخدمت في اللغة التركية الشرقية، بمعنى الأخ الأكبر، بشكل عام وأحياناً أطلقت على الأخ الأصغر، وفي اللغة العثمانية كانت تلفظ كلمة آغا «آ- آ» وحتى (آ) وكانت تعني الرئيس أو السيد، وأحياناً مالك الأرض، كما أطلقت على رئيس خدم القصر السلطاني وأكثر الأغوات أهمية كان آغا الإنكشارية. تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق يوسف نعيصة، ص ١١ هـ (٤). محمود عامر، معجم اللغة العثمانية، حرف الألف، دمشق ٢٠٠٣.

الأشخاص الآخرين ذوي النفوذ، انضموا إلى الفرق الإنكشارية، للاستفادة من ميزاتھا التي تمتع بها، وقد تم اختراق النفوذ الإنكشارية من قبل الكثيرين من أبناء البلد، ومن الأجانب غير الأتراك كالأكراد مثلاً.

في فرمان بتاريخ ٤ جمادى الأولى ٩٨٥هـ/ ٢٠ تموز ١٥٧٧م موجه لوالي دمشق أمره السلطان بأن يمنح الشواغر في فرق الإنكشارية ويعطيها للشباب من الروم (الأتراك)، بدلاً من أبناء البلد والأجانب، ولم تلغ حتى عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩-١٦٦٠م، لم يكن الأفراد ذوو النفوذ في الفرق الإنكشارية من أبناء البلد، وعلى الرغم من أن العديد منهم سواء كانوا من الروم (الأتراك) أو من أصل أجنبي قد (تدمشقوا) لكنهم كانوا يشكلون ولا يزالون مجموعات متميزة، كان الأفراد والتابعون لعائلة حسن التركماني، وهو إنكشاري بارز، يشكلون ربع مجموع عدد الإنكشاريين في دمشق في النصف الأول من القرن السابع عشر، كما إن علي الأرناؤوط (من أصل ألباني)، كان عضواً بارزاً في هذه الفرق في أوائل القرن (١٧)، وبعد موته عام ١٠٣٥/ ١٦٢٥-١٦٢٦م فإن ابنه خدادوردي^(١)، وعلي ميّزا نفسيهما في هذه الفرق.

وكانت أكثر المجموعات نفوذاً خلال هذه الفترة. مجموعة كيوان، الذي كان سابقاً مملوكاً لرضوان من غزة، استخدم نفوذه بشكل جيد، وسيطر بقوته ونفوذه وسمعته على فرق الإنكشارية بدمشق بحيث أن أي شخص تابع له^(٢) أصبح يعرف بأنه «ابن كيوان». كما أن أشخاصاً آخرين من أصل رومي، توصلوا إلى مناصب ذات نفوذ في الفرق الإنكشارية، جاء العديد منهم إلى دمشق بالأصل وهم في خدمة الوالي، أو جاؤوا مع آبائهم الذين كانوا ضباطاً أو لأسباب أخرى.

عندما كان ينخرط أي شخص في فرق الإنكشارية لأول مرة، كان يوصف على أنه من (الجند الشامي) أي جندياً أو نفراً، فإذا كانت لديه مبادرة، وصار له نفوذ فإن الرتب

(١) خدادوردي أو خدا بردي تعني (عطية الله). يوميات شامية تحقيق العلبي ص ٥٨٦.

(٢) رافق، مرجع سابق، ص ٢٦-٢٧. نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٣١-٢٤١.

الأعلى في الفرقة الإنكشارية كانت تفتح له أيضاً، وكان آغا هذه الفرقة يشار إليه غالباً من قبل مؤرخي الأحداث الدمشقية خلال القرنين (١٦) (١٧) على أنه (ضابط الجند الشامي)، ولكن نفوذه كان يتلاشى شيئاً فشيئاً بسبب العصيان المتنامي للفرقة، لأنه كان من أصل رومي أيضاً، ولذلك فإنه يعدّ غريباً بالنسبة لأكثرية الفرقة الإنكشارية، كان يلي الآغا بالمرتبة الكاهيا (كتخدا^(١)) من الجند الشامي وكان يليه يايا باشي^(٢)، وهي رتبة ذات نفوذ كبير، ويبدو أن البلوك باشي^(٣) كان ذا مرتبة أدنى من يايا باشي، أما رتبة شوربجي^(٤) فنادرًا ما كانت تظهر في كتابات المحبي، ولكن إسماعيل المحاسني فقد ذكر الشوربجيون في النصف الثاني من القرن السابع عشر. وفي القرن الثامن عشر أدى اليايا باشيون والشوربجيون من فرقة اليرليا أدواراً ذات نفوذ في دمشق، وكان مؤرخو الأحداث الدمشقيين يطلقون ألقاباً على الشخصيات التي ذكرناها سابقاً والتي كان لها نفوذ في فرقة الإنكشارية مثل: كبراء الجند الشامي، كبار الإنكشاريين الشاميين، أو من (أعيان الشام) أو أعيان دمشق، أو من أعيان الجند بالشام أو من أعيان الإنكشاريين الشاميين.

قبل عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠ حينما كان هناك فرقة إنكشارية واحدة في دمشق فإن مؤرخي الأحداث الدمشقيين بخاصة كانوا يشيرون إليها باصطلاحات مختلفة، فالغزي مثلاً استعمل مصطلح ينكجيرية، وكذلك المحبي استعمل هذا المصطلح ولكنه أيضاً أطلق

(١) كتخدا أو كيخيا جمعها (كواخي) الأمين العام أو المساعد وهي حلت محل كلمة الدوادر المملوكية، يوميات شامية، محمد بن كنان الصالحي، تحقيق أكرم العلبي، ص ٥٨٨، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية تأليف محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ٩٩٨ بعد ١٠٧١هـ/١٥٨٩م بعد ١٦٦١م، تقديم وتحقيق وتعليق د. ليلي الصباغ دار البشائر للطباعة والنشر، ص ١٥٠ هـ (٥).

(٢) يايا باشي، كلمة تركية تعني رئيس الجند المشاة: الحلاق، مصدر سابق، ص ١٩٥.

(٣) البلوك باشي: مجلة دراسات تاريخية، رافق، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) شوربجي أو جوربجي: هو ضابط في عساكر الينكجيرية (الإنكشارية) كانت رتبته تعادل رتبة يوزباشي، ويمكن أن يقال أن الجوربجية (الشوربجية) هم أعيان الإنكشارية حيث تبدأ رتب قواد الإنكشارية بآغا الإنكشارية الذي يلقب بالشوربجي أي مطعم الحساء. الدراري اللامعات، ص ٢١٧، حوادث دمشق اليومية، للبديري، ص ٢٠٧ هـ (٢)، يوميات شامية لابن كنان تحقيق العلبي ص ١٥٨٧، معالم وأعلام في بلاد العرب لأحمد قدامة ص ٧٨، نعيصة، مجتمع دمشق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣٢.

على الإنكشاريين صفة (الجند الشامي) واستعمل ابن جمعة لفظة إنكشارية. في القرن الثامن عشر وكان يطلق أيضاً صفة (أوجاق الشام) أو عسكر دمشق.

بجانب اصطلاح (جند الشام) الذي كان يستعمل عادة من قبل مؤرخي الأحداث للإشارة إلى الإنكشاريين وفرقتهم بدمشق قبل عام ١٠٧٠هـ/١٦٥٩-١٦٦٠م.

كان هناك مصطلح آخر هو عسكر الشام أو عسكر دمشق، مع أنه كان يستعمل من حين إلى آخر بالمعنى نفسه على أنه جند الشام، وغالباً ما كان هذا الاسم يدل على طاقم كبير من الجنود الذين كانوا يصحبون ولاية دمشق في حملات داخل وخارج الولاية، ويتألفون بنسب مختلفة من الإنكشاريين والقوى الإقطاعية، والمجموعات الخاصة من الجنود وكانت تسميتهم هنا تأتي شاملة (عسكر الشام أو دمشق)، ولكن بعد عام ١٠٧٠هـ/١٦٥٩-١٦٦٠م بدأ مؤرخو الأحداث جميعهم يشيرون إلى كل فرقة من الجنود باسمها.

- القوات الخاصة أو القوات المرتزقة

تُعرف القوات الخاصة هنا، على أنها قوى الخيالة والمشاة التي كان يستعملها ولاية دمشق في مساعدتهم على تصريف شؤون واجباتهم، وهذه القوات غير سورية الأصل وتبحث عن بيع خدماتها مقابل النفوذ، فمثل هذه القوات يمكن أن تسمى مرتزقة، في دمشق كانوا يتألفون من الدالاتية^(١)، واللاوند^(٢)، وكلاهما من الفرسان

(١) الدالاتية: مفردا دالاتي، وهي مشتقة من الكلمة التركية (Deli) وتعني الأهوج أو الطائش، وعرفت هذه القوات بالدالاتية بسبب طيشها واندفاعها، واستخدمت أول الأمر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ودب الفساد في صفوف الدالاتية في القرن الثامن عشر، وجندوا آنذاك من الأتراك الأناضوليين والكرواتيين، والبوسنيين، والعرب. وعرف قائدهم بلقب دلي باشي، وكان لهم في دمشق خان خاص بهم عرف بخان الدالاتية واعتمد ولاية الشام على الدالاتية في حملاتهم وفي حماية قافلة الحج، واستخدموهم كذلك في كبح البرلية، ولم يؤمن جانب الدالاتية باستمرار، وكثيراً ما روّعوا الأهليين، وتسببوا في الفساد الأخلاقي بدمشق. رافق، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الأول لسنة ١٩٨٠، ص ٧٧. هاملتون جب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ص ٢٣٠ هـ ٣١٦.

(٢) اللاوند، استخدمت هذه التسمية في الأصل للبحارة وذلك تحريفاً لكلمة (ليفانتينو) التي أطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (من المشرق أي الليفانت) الذين استخدموا في أسطولهم، وأطلق=

والتفنجية^(١) والمغاربة، الذين كانوا من المشاة ، تزايد الاعتماد على مثل هذه المجموعات المختلفة، وبخاصة في القرن الثامن عشر. وفي الوقت الذي ضعفت فيه القوى الإقطاعية بدرجة كبيرة، فإن اليرليا كانوا نظرياً موكلين بحماية القلاع على طول طريق الحج. وأصبحوا الآن أكثر اهتماماً بمصالحهم الخاصة في دمشق ضد الدخيل بما في ذلك الوالي. أما القابي قول فقد بقوا يحرسون كفرقة في القلعة وعملوا على إبقاء التوازن مع قوة اليرليا، ونتيجة لذلك ومن أجل فرض سلطانهم، فإن ولاية دمشق اعتمدوا على فرق خاصة، وكان هذا أكثر ضرورة بسبب التزامهم القيام بالدورة، والأهم من ذلك لتأمين سلامة الحجيج، وعندما كانت واحدة من المجموعات تشق عصا الطاعة كان الولاة

= العثمانيون على بحارتهم الأوائل تسمية لاوند (Lauend) التي استعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند، وسرحوا ، واستبدلوا بآخرين، أطلقت الكلمة على المتمردين، ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم، وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسة وجندوا مثل السكبان من بلاد الروم، وفي القرن ١٨ / اقترن اسم اللاوند في دمشق بالأكراد، ومن هنا القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الأكراد، وذكر اللاوند إلى جانب السكبان وفي خدمة فخر الدين المعني الثاني، وترأس اللاوند قائد عرف بالآغا، وأقاموا في دمشق في خان عرف بخان اللاوند نسبة لهم، وقامت الدولة العثمانية بعدة محاولات للقضاء عليهم، وتمكن من أفلت منهم من الالتحاق بخدمة محمد باشا العظم والي دمشق ١٧٧١-١٧٨٢، وأحمد باشا الجزائر والي صيدا ١٧٨٥-١٨٠٤م. رافق، مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول آذار ١٩٨٠. مرجع سابق، ص ٧٦. هاملتون جب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ص ٢٣٠ هـ ٣١٦.

(١) التفنجية، تعني هذه الكلمة جملة (التفنج) أي البارود، ومعظمهم من المشاة، وقد اشتهروا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، وكان يقودهم التفنجي باشي ولا نعرف بالتأكيد المناطق التي جند فيها التفنجية، ويلاحظ أن التفنجي باشي في عهد والي دمشق أسعد باشا كان بغدادياً، كما أن التفنجية انحازوا إلى جانب البغدادية والموصلية في صراعهم مع الأكراد في دمشق، مما يوحي بأصل مشترك بين الطرفين، وقد عهدوا إلى التفنجية بإقامة الأمن في دمشق، كما أنهم كلّفوا في أوقات الأزمات بمهام عسكرية خارج دمشق، وكانوا على وجه العموم، أكثر انضباطاً، وأقل تمرداً من القوات العسكرية الأخرى، ولكنهم كانوا أقل أهمية عسكرية منها. رافق، مجلة دراسات تاريخية، المرجع السابق، ص ٧٧.

يعتمدون على مجموعة خاصة أخرى لتحبيدها، ومن الواضح أن ذلك أدى إلى زيادة أعداد أنواع الفرق الخاصة، وأدى إلى الكثير من التوتر والفوضى في دمشق، ولدى دراسة الأنواع المختلفة من الفرق الخاصة يمكن التأكيد على ناحيتين:

١ - أصلهم وجلبهم للخدمة.

٢ - وظيفتهم الرئيسية^(١).

* المغاربة :

وفي سياق الحديث عن القوات الخاصة (المرتزقة) لا بد لنا من التطرق إلى المغاربة.

كانت هذه القوات من المشاة عموماً، وقلة منها من الفرسان، وقد جندوا بوجه عام من الجزائر وتونس، وتواجد المغاربة في بلاد الشام قبل الحكم العثماني بوقت طويل، ويذكر أن زاوية للمغاربة بنيت في دمشق عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩-١٤٠٠، مما يدل على أن جالية مغربية وجدت فيها، كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس، وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي في زيارته للقدس زيارة جامع المغاربة وذلك في ربيع الأول ١١٠٥هـ/تشرين الأول - تشرين الثاني ١٦٩٣، ومما تجدر ملاحظته أنه وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر، رأس كل طائفة منها شيخ مسؤول أمام شيخ المشايخ وهو رئيس المغاربة الأعلى في دمشق، وأسماء هذه الطوائف هي: الفاسية، الجزائرية، السوسية، التونسية، الطرابلسية، الدراوية، المراكشية، وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراساً في الخانات والحارات والأسواق، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة، وكان شيوخ الطوائف وعلى رأسهم شيخ المشايخ، مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم.

(١) رافق، مرجع سابق، صفحة ٣٥، ٤٢. نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥١.

والعسكريون من المغاربة خضعوا لآغا المغاربة، وإذا ما تركوا الخدمة العسكرية أصبحوا في عهدة شيخ الطائفة التي ينتمون إليها، ومع أن المغاربة أقاموا في بلاد الشام، بغية المجاورة أو طلب العلم أو التجارة، فإن تواجدهم كطائفة عسكرية لها شأنها، وأدت دوراً مهماً في بلاد الشام ولا سيما في القرن /١٨/ .

إن ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة أدى إلى ازدياد أعداد هذه القوات ولكن التدفق المستمر للمغاربة إلى المنطقة آنذاك لا يوازيه تدفق أية قوات أخرى.

والسؤال لماذا تدفق المغاربة إلى بلاد الشام؟ وكيف استخدموا فيها؟ إن تدفق المغاربة إلى بلاد الشام في القرن /١٨/ عن طريق صيدا بصورة رئيسة، يدل على أنهم أتوها عن طريق البحر، ويتفق هذا مع اشتهار المغاربة كغزاة بحر، وليس هناك ما يدل على أن جميع قوات المغاربة كانت من أصول مغربية، وكثيراً ما ضمت أسرى حرب من جنسيات مختلفة، ولكن عناصرها الرئيسية وقياداتها، كانت مغربية^(١)، ويفسر توافر هذه القوات في المغرب (الكبير) ولا سيما الجزائر بأسلوب التجنيد الذي اتبعه داي الجزائر، إذ كان يرسل سفنه كل خمس أو ست سنوات إلى المشرق، وبخاصة إلى أزمير وقرمان على الساحل الغربي للأناضول، لتجنيد القوات منها، ولم يسمح في الجزائر لأبناء هؤلاء المجندين الذي عرفوا (بالقولوغلية) بالانتساب للجيش إلا في حالات خاصة، وهكذا وجد عدد من أبناء المجندين العاطلين عن العمل الذين تطلّعوا إلى خارج الحدود بحثاً عن فرص العمل، ونظراً لأصولهم المشرقية والحاجة إلى خدماتهم في بلاد الشام، حيث انعدم الأمن في القرن الثامن عشر فقد توجهوا إلى تلك البلاد ليبيعوا خدماتهم، كما توجهوا إلى مصر حيث استخدمهم علي بك المملوكي في جيشه. وقد وجد للجنود المغاربة خان خاص بهم في دمشق عرف بخان المغاربة، وأشركهم الوالي في حملاته، وفي حماية قافلة الحج،

(١) رافق، مجلة دراسات تاريخية، مرجع سابق، ص ٧٨-٧٩. نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٩.

وكثيراً ما اصطدمت قوات المغاربة في دمشق باللاوند والقابي قول، وأحياناً بالوالي نفسه، ولم يقتصر استخدام قوات المغاربة على ولاية دمشق بل استخدمهم أمير جبل لبنان، وظاهر العمر^(١)، ووجد المغاربة في أكثر من مناسبة في جبهتين متقاتلتين كما حدث فعلاً حين هاجمت قوات علي بك دمشق في حزيران ١٧٧١ وكان في صفوفها مغاربة، كما وجد مغاربة ضمن القوات المدافعة عن دمشق^(٢).

* السكبان :

وكانوا أول من أبرز القوات الخاصة (المرتزقة) في بلاد الشام. وذلك في خدمة علي باشا جانبلاط، الأمير الكردي الذي ثار في منطقة كلس - حلب في عام ١٦٠٥م، وحاصر دمشق في العام التالي، ثم قضت عليه الدولة، وفي خدمة حليفه الثائر أمير جبل لبنان فخر الدين المعني الثاني ١٥٩١-١٦٣٥م^(٣).

وكلمة سكبان فارسية الأصل تتألف من مقطعي سك وتعني الكلب، وبان وتعني الحامي. والسكبان في الأصل «هو مَنْ يحمل البندقية على ظهره، ويقود الكلب في ساجوره، ويمشي أمام الأمير أو الكبير، حين يسير إلى الصيد» ثم أطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم لقاء المال، وكلمة سكران التركية تحريف لكلمة سكبان^(٤)، ولا يعرف المكان الأصلي للسكبان، ويقال إن أصلهم من تركيا وإنهم ظهروا لأول مرة في صنجق نابلس التابع لولاية الشام، في النصف الثاني من القرن السابع عشر من قبل الأمراء الثائرين في بلاد الشام، وقد وصفوا بأنهم متمرسون في فنون القتال، وتمت

(١) ظاهر العمر، ذكرت بعض المصادر والمراجع بـ (ظاهر العمر) تولى ولاية صيدا ١٧٥٠ -

١٧٧٥، تحالف مع محمد علي بك الكبير، ولكن الدولة العثمانية تمكنت من القضاء عليهم. رافق،

العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٢) مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، مرجع سابق، ص ٢١١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

الاستفادة من السكان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان، وسمح أحياناً للمتزوجين منهم بإيواء أسرهم في القلاع، وتتألف السكان من فرق متعددة، يقود كلاً منها قائد برتبة بلوك باشي، وكانت أعداد السكان كبيرة إذا ما قورنت بأعداد القوات المرتزقة الأخرى، وذكر أن فخر الدين المعني كان في خدمته من السكان بعد معركة عنجر التي جرت عام ١٦٢٣ والتي أسر فيها والي دمشق مصطفى باشا /٣٠٠٠/ ثلاثة آلاف سكباني، وعند يوسف باشا سيف الكردي والي طرابلس مثل هذا العدد. بينما كان عند علي باشا جانبلاط عشرة آلاف من السكان. ولم يكن للسكان قائد أعلى، بل قادة فرق، بلوك باشية، اختير أحدهم أحياناً ليكون قائداً لهم برتبة سردار^(١)، وسميت مرتباتهم التي كانوا شهرياً يتقاضونها بالعلائف جمع (علوفة)، كما أعطوا بالإضافة إلى ذلك أعطيات، دعت بخشيش وتجاوزت أحياناً قيمة مرتبتهم.. وإذا لم يسيطر مستأجرهم عليهم فسرعان ما ينقلب السكان إلى فوضويين، ويروعون الريف^(٢).

* القوات الرديفة:

تشمل بصورة أساسية المجندين من القرى والمدن والقبائل البدوية، وكان الزعماء المحليون في جبل لبنان يعتمدون على أسرهم بالدرجة الأولى، وأبناء مذهبهم ومؤيديهم من الحزبين القيسي واليمني. ثم أخذوا في استئجار قوات المرتزقة. وأشير إلى قوات الدعم المحلية باسم العشير، وكانت تسمى باسم المنطقة التي قدمت منها وكانت تدعم أميرها لأسباب أسروية أو حزبية أو غيرها. وأحياناً كان الولاة يجندون قوات من بين الفلاحين ويجبرونهم على تقديم المؤونة والمرتبات لهم، وفي الحالات الطارئة كان سكان المدن يدافعون عن مدينتهم أو عن قافلة الحج إذا تعرضت للخطر وكانوا يحملون السلاح،

(١) تشارشلي، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٤٠.

(٢) رافق، دراسات تاريخية، مرجع سابق، ص ٧٤-٧٥-٧٦. معظم كتابات رافق ركزت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي أعداد كثيرة من مجلة دراسات تاريخية.

وكان يشار إليهم بتسمياتهم عرب وأعراب وعربان، وكان لهم دورٌ مهمٌ في العهد العثماني في بلاد الشام، فقد سيطروا على المنطقة الممتدة من حلب إلى العقبة، وتسربت القبائل الصغيرة إلى داخل المناطق الزراعية فمنها ما استقر ومنها ما هدد الاستقرار والزراعة. أما القبائل الكبرى فكان مجالها بادية الشام. وقد سيطرت مجموعة قبائل حواسي على البادية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ثم حلت مكانها منذ مطلع القرن الثامن عشر قبائل العنزة، وكان من القبائل التي هاجمت قافلة الحج في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية حالياً قبائل بني صخر^(١). وقلما تحالف البدو مع السلطات العثمانية وكثيراً ما هاجموا هذه السلطات ورعوا التأثيرين عليها. وحاولت الدولة تطبيع البدو من خلال الاعتراف بزعيمهم شيخاً أو أميراً، وتقديم الأعطيات له^(٢).

* قافلة الحج الشامي :

بين عامي ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م، ١٠٨٢هـ/١٦٧١م كان هناك ميل لتعيين قادة لقافلة الحج من أشخاص يقيمون في دمشق، وعلى الأغلب من الإنكشاريين، لم تتوقف العائلات المحلية عن تقديم القادة لكنهم كانوا أقل تكراراً من ذي قبل، وفي حال عين الإنكشاري قائد لقافلة الحج فإنه كان يعين والياً على أحد الصناجق التالية: غزة، نابلس، عجلون، اللجون، القدس، الكرك. وذلك من أجل تمكين هؤلاء القادة من جمع عائدات الضرائب في تلك المناطق لتغطية جزء من فراغ القوة بعد ضعف العائلات المحلية من الأعيان. لم يكن الإنكشاريون بعد عام ١٦٦٠م أقوىاء مثلما كانوا عليه في وقت مضى، لأنهم قد خضعوا للقمع من قبل ولاية دمشق، كان للهجوم المشؤوم على قافلة الحج من قبل أمير حوران

(١) البدو ومشجرات الأنساب وانتشار القبائل العربية في فلسطين، سيناء، الأردن، الحجاز، ما بين النهرين، العراق الشمالي، سورية، شمال ووسط الجزيرة العربية، والعراق الجنوبي، وخوزستان، إيران، عربستان، وفهرس الأعلام والقبائل والأماكن، تأليف: ماكس فراهيرفون أوبنهايم، آرش برونيلش وفرنر كاسكل، (٤) أجزاء، ترجمة محمود كيبو تحقيق وتقديم ماجد شبّر، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، المملكة المتحدة (لندن)، ص ٣٣٨ جـ ٢.

(٢) رافق، دراسات تاريخية، ١/١٩٨٠، مرجع سابق، ص ٨٠-٨١.

البدوي (ابن رشيد) حيث كانت القافلة بقيادة الإنكشاري موسى التركماني عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م. أثره الكبير في جعل السلطات العثمانية تعتمد إلى تعيين موظفين أقوياء، مثل ولاية الولايات بمنصب قيادة القافلة بين عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م. وفي عام ١١٠٢هـ/١٦٩١م عيّن عدد من الموظفين العثمانيين من أصل رومي قادة لقافلة الحج، وكان بين هؤلاء الموظفين بعض ولاية دمشق، وإن كان لا يزال يعين إنكشاريون وأفراد من الأعيان المحليين أحياناً، ولكن العدد القليل للقادة المنحدرين من الفئتين السابقين يعكس نفوذهم الأقل بعد مهاجمة ابن رشيد للحج اضطرب الأمن لبضع سنين، وكان هذا يعزى جزئياً لتعيين موظفين عثمانيين (ضباط) قادة لقافلة الحج، الذين أنقصوا الدفعة السنوية العادية المألوفة «الصر» وهذه الكلمة أقل استعمالاً من أمين الصرة^(١) الذي يقدم أيضاً هدايا للقبائل في طريق الحج، وبذلك عرضوا الحج للخطر^(٢).

وفي محاولة استعادة أمن الحج، عينت السلطات العثمانية خليل كيوان قائداً عاماً ١٠٨٨هـ/١٦٧٨م وهو إنكشاري بارز في دمشق وسليل كيوان، مملوك رضوان الغزي أو الغزاوي، وقد استمر بهذه الوظيفة لمدة أربع سنوات متتالية، وعند الحجة الرابعة عام ١٠٩١هـ-١٠٩٢م/١٦٨٠-١٦٨١م، توفي إثر نوبة قلبية^(٣).

ونتيجة لبقاء قوات كثيرة في دمشق فقد اضطرب حبل الأمن، ففي عام ١١٠٢هـ/١٦٩٠م عندما تكرر بقاء قادة الحج في دمشق مع قواتهم فإن مراد المرادي^(٤) توسّل إلى السلطان لإزاحة قيادة الحج عن ولاية دمشق، فقد كان يريد أن تعاد إلى ولاية القدس، وعجلون، والمناطق المجاورة، لأنه بناء على ما قاله المرادي كانت دمشق قد عانت

(١) أمين الصرة أو صرة أميني، وهو الموظف المختص بشؤون الهدايا التي يرسلها السلطان لأشراف مكة. هاملتون جب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المعين العشي، ج ١ قسم ٢، ص ٦٦.

(٢) Vayage et Egypte et en Syrie. par C. F. Volnet sixième édition. Tome Second. P. 372. 373. 374. (٢) Damascus survey. The component parts of the province of Damascus. Rafeq. P. 55, 56.

(٣) جودت باشا، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٥٠.

(٤) مراد المرادي، وهو الجد الأكبر لمؤرخ الأحداث المشهور «المرادي» مؤلف سلك الدرر في القرن الثاني عشر.

الشيء الكثير من جشع القوات وميلها إلى السلب والنهب لدى تجمعها بدمشق، وقد استجاب السلطان بشكل إيجابي، وأبعد القيادة عن دمشق، حيث إنه عين الشريف يحيى لهذه الوظيفة منذ عام ١١٠٢هـ/١٦٩٠-١٦٩١م وأعطاه في الوقت نفسه ولاية القدس وخلصت دمشق عندئذٍ من عدوان القوات وظلمها وجورها، والجرائم التي كانت في موسم الحج. لم يثبت الشريف يحيى أنه كان أهلاً للمهمة الموكلة إليه، حيث هاجم البدو موكب الحج الذي كان يقوده بسبب إهماله، فعزل بعد هذه المصيبة، وأعيدت قيادة الحج لدمشق.

من عام ١١٠٣هـ/١٦٩٢م حتى ١١١٩هـ/١٧٠٨م كان واضحاً أنه لا إنكشاريين ولا أفراد من العائلات المحلية من الأعيان قد عينوا خلال هذه الفترة قادة لقافلة الحج، والذين تبوؤوا هذا المنصب كانوا من أصل رومي. والسلطان بصفته حامياً للحرمين الشريفين، ومسؤولاً عن سلامة الحجيج، فقد كانت لديه الرغبة لإطالة فترة ولاية الولاة الذين كانوا يؤمنون سلامة الجميع. ولذلك عين ولاية دمشق باستمرار قادة لقافلة الحج منذ عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولذلك فلم يطلب من هؤلاء الولاة مغادرة سورية^(١) وكسب ولاية دمشق كقادة لقافلة الحج الكثير، فالحجاج الذين كانوا يموتون في أثناء الرحلة كانت تصادر أموالهم من قبل والي دمشق قائد قافلة الحج، وكان معدل الوفيات العالي، سببه تقدم عمر العديد من الحجاج، وبسبب هجمات البدو المميتة، والكوارث الطبيعية التي كانت تحدث كالفيضانات، والتعرض للعطش، والحرارة الزائدة عن الحد^(٢).

(١) Karl Harbir. From pasha to effendi assimilation of ottoman into Damascus society. 1516-1782. p. 68+75. Damascus survey. The component parts of the province of Damascus. Rafeq. P. 56, 57, 58.

(٢) مات يوسف النابلسي، شقيق عبد الغني النابلسي الذي عاين وفاته عام ١٦٩٤، ولم تتوقف القافلة حتى صباح اليوم التالي لأنها تسير ليلاً.

- تجمع الحجيج:

إن حقيقة أن دمشق كانت نقطة التجمع للحجاج الآتين من الشمال، وقد شارك هذا الأمر في صياغة تاريخها، إذ إن الحجاج كانوا يأتون دمشق على شكل جماعات، وغالباً ما كان ذلك يحدد صفتهم الجغرافية، كانت المجموعات الرئيسية من الحجاج هم الحجاج الروم (الحج الرومي)، والحلبيين من الحجاج (الحج الحلبى)، والحجاج الفرس (الحج العجمي)، ولم تكن هذه التقسيمات دقيقة على كل حال، لأن العديد من الحجاج الآتين من أجزاء أخرى، حتى من خارج الإمبراطورية العثمانية، كانوا ينضمون إلى واحدة من هذه المجموعات أو أخرى، أما الحجاج الروم فكانوا يأتون إلى دمشق لوحدهم، بسبب أعدادهم الكبيرة، ولأنهم لم يكونوا يمرون عبر حلب، لذلك لم تكن لديهم الفرصة للانضمام إلى حجاجها، أما الحجاج الفرس الذين كانوا يمرون عادة بحلب، حيث كانوا ينضمون إلى الحجاج الحلبيين عندما كانوا يتمكنون من ذلك، وفي بعض الأحيان كان الحجاج الفرس يصحبون قوافل التجار التي كانت تذهب مباشرة من بغداد إلى دمشق.

جرت محاولات متعددة من قبل حكام فارس، ليكون لهم حجيجاً منفصلاً، لكن السلطان رفض منح ذلك لأنه كان متردداً للمشاركة بهذا الامتياز الديني مع حاكم آخر ولا سيما مع حاكم شيعي، كما كان حكام فارس مهتمين بالدرجة الأولى بهيئة الحج، والحجاج الفرس الذين كانوا يصلون دمشق متأخرين عن موكب الحج، كانوا مضطرين للمكوث بدمشق حتى العام القادم.

كان معظم الحجاج يخيمون في أثناء وجودهم في دمشق في مكان خارج المدينة إلى الشرق من المدرسة السليمانية، إلا أن بعضهم كان يبقى في خان الحرمين الشريفين قرب باب البريد، أما الحجاج الشيعة فكانوا يسكنون بصورة رئيسة في حي الخراب، الذي كان يسكنه ويزوره الشيعة.

وثمة معلومات قليلة عن عدد الحجاج في الحجيج الدمشقي، كانت معظم التقديرات كانت تجري بمناسبة الهجمات على قافلة الحج، ولكن حصيلة تلك التقديرات تذهب إلى أن عدد الحجاج كان يتراوح بين ١٥,٠٠٠-٢٠,٠٠٠ ألف حاج وبين ٣٠,٠٠٠-٥٠,٠٠٠ حاج. وكان الكثير من الحجاج يذهبون للحج لأغراض تجارية. وكان عدد الحجاج يزداد بعد حدوث كارثة طبيعية، أو حرب مدمرة، إذ تحدث موجة عارمة من التقوى والورع الديني تجعل كثيراً من الناس يتوجهون إلى الحج طلباً للمغفرة والحماية.

- مغادرة الحجيج:

كان بعض الحجاج يصلون إلى دمشق قبل أربعة أشهر أو خمسة من مغادرة الحجيج، ولكن الأكثرية كانوا يأتون في شهر رمضان. أما المتأخرون بالمجيء فقد كانوا يصلون قبل أيام قليلة من مغادرة قائد الحج مع المحمل ومجموعة الحجاج الكبيرة. كانت المغادرة من دمشق تتميز بموكب عظيم يشارك فيه الوالي يصحبه المحمل^(١)، والعلم المقدس (السنجق)^(٢) مع نخبة من قواته. وكان تاريخ المغادرة من دمشق عادة بين ١٢ و ٢٠ شوال، على كل حال، لم يكن^(٣) هذا التاريخ ثابتاً دوماً. فقد كانت الضرورات المالية أو العسكرية تتيح تأخيراً إضافياً أو بداية أبكر.

(١) المحمل: (هيكل خشبي مغطى بقماش مخلي أخضر، كتب عليه بالقصب آيات من القرآن الكريم يحمله جمل مزين بأقمشة مزركشة وجلود جميلة، خيطة عليه أصداف صغيرة ومرايا، يرافق أمير الحج من دمشق إلى الأماكن المقدسة في الحجاز واعتبر شعاراً للسلطان العثماني ورمزاً لسيادته على الحرمين الشريفين). د. نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦٧.

(٢) السنجق: (أو الصنجق فهو علم النبي العربي ﷺ كان يحمل على جمل ويمسك بهذا الجمل موظف خاص يلبس هنداماً خاصاً مزركشاً، وكان الدمشقيون يحترمون هذين الجميلين، ويتمسحون بهما تبركاً ويخرج موكبهما من دمشق إلى الحج في ١٦ شوال). انظر المصدر السابق، ص ٦٦٧.

(٣) Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter. A. D. 1697 by Henry Murrall. M. A. . p. 171-172. (٣)
Damascus survey. Rafeq. The province. P. 60, 61, 62.

كان قائد الحج الذي يصحبه المحمل والصنjq والقوات العسكرية يتوقفون لفترة قصيرة في (قبة الحج) في ضواحي دمشق، ينتظرون لحاق الحجاج بهم، كان الحجاج عادة يتأخرون لأنهم يريدون مشاهدة الموكب، كما أنه كان عليهم أن يتمموا استعداداتهم ووداع الكثير من أقربائهم الذين كانوا يبقون في دمشق.

تحدث الدكتور يوسف نعيصة في كتابه مجتمع مدينة دمشق عن موكب الزيت والشموع في أثناء التحضير لخروج قافلة الحج الشامي إلى الديار المقدسة فقال^(١):

(أقيم هذا الموكب في السابع من شوال من كل عام، وكان هذا الاحتفال خاصاً بموكب الزيت والشموع التي سترسل من دمشق إلى الحرم النبوي الشريف مع القافلة، فكان الزيت يؤتى به من قرية كفرسوسة في ظروف مزخرفة تحملها جمال مزينة أيضاً، ويسير في مقدمتها بيرق أخضر بشرائيب حمراء داكنة وتكتب على تلك البيارق بعض العبارات الدينية، وتتقدم الجمال جوقة موسيقية ، وينطلق هذا الموكب من قرية كفرسوسة إلى دمشق. أما الجوقة الموسيقية فكانت مكونة من أربعين شخصاً. منهم عشرة رجال ينفخون في آلات موسيقية، وتسعة آخريـن يضربون بالسـنوج النحاسية، وكان يشارك في هذا الموكب عدد من أهالي كفر سوسة بألعابهم ، فمنهم من يلعب بالسيف والعصي حتى يصل الموكب إلى باب السريجة بالقرب من ضريح الصحابي زيد بن ثابت، حيث يتجه الموكب إلى سوق باب الجابية، فسوق الدرويشية، فباب السرايا، فمركز الكلار في منطقة السنجدار حيث يوضع الزيت إلى جانب أدوات الحج الأخرى. وكانت الشموع تصنع في دار أحد ذوات دمشق لينال من وراء ذلك البركة، وكانت تصنع بمقاييس مختلفة وعند الانتهاء من صناعتها يؤتى بها في موكب خاص ويحمل كل شبكة رجالان، وتلف تلك الشموع قبل حملها بشال من الكشمير الفاخر وترافق موكبها الموسيقي السلطانية ويسير خلفها مؤذنو الجامع الأموي وجمع كبير من الأشراف والنوات والعامـة ويرأس المؤذنين

(١) نعيصة، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٦٦.

رئيس مؤذني الجامع الأموي حيث يعتمر بقلنسوة سوداء^(١) ويسير وراءه سبعة رجال يحملون المباخر إحداها مصنوعة من الفضة وأما المباخر الأخريات فهي من الفضة إلا أنها مطلية بالذهب، إلى أن يصل الموكب إلى الكلارخانة حيث توضع تلك الشموع في أكياس خاصة بها) وكان هذان الموكبان يسبقان ما عداهما من مواكب الحج كالمحمل والصنق والقافلة نفسها^(٢).

- حماية الحجاج (الجردة):

كانت هناك فرق عسكرية تصاحب قائد الحج، وحاميات تتمركز في عدة قلاع على طول طريق الحج، لكن كان هناك جزء آخر من القوات تعرف بـ (الجردة)، كان غرضها بالدرجة الأولى حمل التموينات للحجيج الراجعين، وذلك بسبب التهديدات على طول الطريق، كانت الجردة مسلحة تسليحاً جيداً. وكان يطلق على قائد الجردة لقب باشا الجردة أو الجردجي أو أمير الملاقاة أو أمير الجردة، كانت المجموعة التي يجند منها تتغير مع مرور الزمن. ففي القرن (١٧) كان قادة الجردة ينتخبون من العائلات المحلية من الأعيان ومن إنكشاريي دمشق، وأيضاً كانوا أحياناً يجندون من الضباط العثمانيين عند نهاية القرن (١٧)، وعندما كان أحد الضباط الموكلين بهذه المهمة، لا تكون لديه القوات الكافية لتمكنه من القيام بواجباته، كانت توضع تحت قيادته قوات إضافية، وقد كان بعض أولئك المعنيين قادة للجردة «ولاة» أو كانوا يعينون مباشرة ولالة للسناجق في ولاية دمشق مثل سنجق القدس، نابلس.. قبل أن يعهد بقيادة الحج بصورة مستمرة لولاية دمشق، وكان قائد الجردة يعين عادة من قبل السلطان، وكان ولاية دمشق قبل أن يصبحوا بصورة منتظمة قادة لقافلة الحج، يعينون أو يسمون قادة للجردة والحج.

خلال شهر من مغادرة الحجيج كان قائد الجردة عادة يصل إلى دمشق، إذا لم يكن مقيماً فيها، وكانت مغادرته دمشق تعتمد على تاريخ وصوله وعلى إتمام استعداداته،

(١) نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٦٧.

وعلى مدى حاجة الحجيج للمساعدة. وعادة ما كان يغادر دمشق في شهر ذي القعدة، أو في أوائل ذي الحجة^(١)، ومع تزايد تهديدات الحجيج أصبح دور قائد الجردة مهماً جداً. كانت قوات الجردة ترابط عادة مع قائدها في دمشق، وكان هذا يضيف عاملاً آخر من عوامل عدم الاستقرار السياسي في دمشق. وعلى الرغم من أن الجردة تغادر دمشق في موكب إلا أنه لم يكن بمستوى موكب قافلة الحج، وكانت نقطة التقاء الجردة مع الحجيج غير معينة، إلا أنها كانت تعتمد على التاريخ الذي تغادر فيه الجردة دمشق، والتهديدات للحجيج، وعموماً كانت نقطة الالتقاء في أواخر القرن /١٧/ تبوك، ولكن تهديدات البدو كانت تجعل نقطة الالتقاء غير محددة، وعادة كان قائد الحج وقائد الجردة يدخلان دمشق معاً في العودة ولا سيما إذا كانا من نفس العائلة، أو قد يدخل قائد الجردة أولاً لتنظيم وتهيئة الاستعدادات لاستقبال قافلة الحج وقائدها. وكان يمكن أن تشكل جردة ثانية في حالات الطوارئ.

- تمويل الحجيج :

على الرغم من مصادر الحجيج المالية المختلفة فإن هذه المصادر كانت تؤخذ إلى حد بعيد من عائدات الميري. ويمكننا أن نميز بين مصدرين ماليين مخصصين لقافلة الحج. وللجردة، قبل عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨-١٧٠٩م كان قادة الحج والجردة عادة ولاية لأحد السناجق أو أكثر من ولاية دمشق، ولذلك فقد كانوا ملتزمي ضرائب عن المناطق التي كانوا ولاية فيها، ويبدو أنهم كانوا يستعملون جزءاً من العائدات لتمويل الجردة، والنقود المقدمة لتمويل الحج تسمى (مال الحج أو مال ملاقة الحج على التوالي). ولكن بعد عام ١١٢٠هـ/١٧٠٧-١٧٠٨م كان ولاية دمشق يعينون بانتظام قادة للحج، لذلك كانوا يأخذون المسؤولية المباشرة لتمويل القافلة، ومن أجل هذا كانوا يقومون بالدورة كل عام. وكانت صيدا وطرابلس وحلب ملتزمة أيضاً بالمشاركة بمصاريف الحج والجردة بغض النظر عن مَنْ يعيّن قائداً للجردة. وفي بعض الحالات كانت تفرض الضرائب

(١) أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٩م، ص

١٣٥ وما بعد. Damascus survey. Rafeq. The province. P. 65, 66, 67 .

وتجبي من التجار من أجل تجهيز الحج وتزويده بالمؤن، إذ إن قائد الجردة كان يتوقف عادة في دمشق، فكانت المدينة تشارك بمصاريفه^(١).

كما أن حال البدل الذي كانت تدفعه الزعامات والثيماوات عند انهيار النظام الإقطاعي كان يخصص من قبل السلطان لتمويل قافلة الحج، ومصدر آخر للتمويل هو دخل بعض المالكات التي كانت تعطي لولاة دمشق بصفتهم قادة للحج. وبالإضافة لمصاريف حراس القلاع والعسكريين الآخرين كان هناك مصروف ضروري ذو طبيعة أكثر ثقلًا أو عدم استقرار وهو الدفعة المقدمة للبدو على طول طريق الحج أعني (الصرة). ولم تكن كل القبائل على طول طريق الحج تتلقى مثل هذه الدفعة. فقد كانت تدفع فقط إلى تلك القبائل المقاتلة التي يمكن أن تسبب مشاكل وتقطع طريق الحج. إذ كان يقصد من تلك المبالغ المدفوعة إلى هذه القبائل تأمين طريق آمن عبر المناطق التي تسيطر عليها وكان هذا يدل ضمناً بأن البدو كانوا يقومون بدور الأدلاء للحجيج عبر الطريق الصحراوي. وفي القرن ١٨/ حاول عدد من قادة قافلة الحج بدرجات مختلفة من النجاح أن يوقفوا دفع جزء من المبلغ المخصص للبدو، وكان البدو يردون على ذلك عن طريق مهاجمة الحجيج، وعادة ما كانت الهجمات تحدث في رحلة العودة، عندما كان يُغزى المهاجمون بسبب الكميات الكبيرة من البضائع والسلع التي كانت تصاحب الحجيج. وكانت بعض القبائل تتلقى دفعة أخرى مقابل حمل الحجاج وأمتعتهم إلى الحجاز، بما أن الرحلة كانت تتطلب عدداً كبيراً من الجمال للرحلة، لذا كانت مساعدة البدو ضرورية، ففي عام ١١٦٠هـ/ ١٦٩٨-١٦٩٩م حملت قبائل العنزة، وقبيلة صخر^(٢)، الحجاج مقابل مبلغ محدد من المال. وكانت القبائل المحاربة هي نفسها التي تشارك في حمل الحجاج، وبهذا الشكل كانت تثير حسد القبائل الأخرى، ويمكن أن يحدث بأن قبيلة ما كانت تهاجم الحجيج لا لمجرد السلب والنهب، ولكن لإثبات عدم رضاها عن كونها قد أهملت. وكان السلطان يقدم هبة سنوية إلى الأشراف والعلماء وفقراء مكة والمدينة، كما أنه كان يشارك

(١) . Damascus survey. Rafeq. The province. P. 67, 68, 69, 70 .

(٢) البدو، ماكس فرايهر فون أو بنهايم، أرش برونيش، فرنر كاسكل، ج ٢ ص ٣٣٦-٣٣٧، ٤٩٠، وفي فترة دراستنا ١٠٨٦هـ/ ١١١٢م، ١٦٨٠-١٧٠٠ كانت قبائل صخر في الحجاز على طريق الحج قبل أن تنتقل إلى الأردن بعد ذلك.

في إكساء الكعبة وفي بعض الأحيان كانت القدس تتلقى هبة السلطان أيضاً ولكن ليس هناك دليل ثابت بأن القدس كانت تتلقى بصورة منتظمة نصيبها من الصرة^(١).

- الصرة أميني:

كان الصرة أميني^(٢) يصل عادة دمشق في النصف الأول من رمضان وبسبب الهيبة والمكانة التي يتمتع بها لوظيفته، كان يمارس نفوذاً سياسياً هناك، وكان هناك موظف رسمي يصاحبه من استانبول وهو السقا باشي الذي كانت وظيفته تزويد الحجاج بماء الشرب، بعد رجوع الحجيج إلى دمشق كان الصرة أميني عادة يغادر إلى استانبول بين ١٥ صفر و ١٦ ربيع الثاني، وهذا يعتمد على تاريخ عودته، وكان الحجاج الروم مع بعض التجار الدمشقيين غالباً ما يصاحبون الصرة أميني إلى استانبول. ونظراً لأهمية الصرة أميني فقد كانت له حاشية كبيرة من الحرس الذي يرافقه والصفة الدينية لوظيفته، ولتأمين سلامة الصرة من قطاع الطرق واللصوص، كان السلطان يأمر ولاية الولايات التي تمر بها الصرة أن يحرسوها ضمن الأراضي التابعة لهم، وأن يقدموا تقريراً عن وصفها له.

- الأهمية التجارية لقافلة الحج :

كان الحج يؤمن وسيلة آمنة نسبياً لحركة البضائع، طبعاً كان كل حاج يحمل معه بضائعه الخاصة به. كانت زيادة عدد الحجاج تعزى جزئياً لازدياد عدد التجار الذين كانوا يحجون لأغراض تجارية، مع أنه من الصعب تقرير فيما إذا كان للهدف الديني أو التجاري الأولوية في هذا المجال، ومن الواضح أن قائد قافلة الحج كان يميز بين الحجاج والتجار، وكانت له مسؤوليات خاصة تجاههم، من وجهة نظر البدو كان الحجيج كله يشكل جزءاً واحداً متكاملًا. كانت البضائع التي يحملها الحجيج إلى دمشق وإلى أماكن أخرى تختلف في طبيعتها وفي منشئها فقد كانت عادة تتألف من التوابل والمنسوجات

(١) . Damascus survey. Rafeq. The province. P. 70, 71, 72 .

(٢) تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق يوسف نعيسة، مرجع سابق، ص ١٢٩ هـ (٦).

والحجارة الثمينة والقهوة. وكان معظم القهوة من اليمن، وفي إحدى السنوات بلغت كميتها ٦٠٠ كيس وسببت هبوطاً بأسعار السوق، وكان معظم البضائع الأخرى يأتي من سوررات في الهند إلى ميناء جدة على البحر الأحمر، ثم يحمل بعدئذٍ إلى مكة^(١).

أما الوسيلة الأساسية التي استخدمت في نقل الحجاج وأمتعتهم إلى مكة فهي الجمال، وكان يتم استئجار الجمال من مناطق حوران ومن منطقة السخنة شمال شرق تدمر. وكان يتفق على الأجرة من خلال عقد يتم في المحكمة. ووجدت طوائف حرفية تشرف على نقل الحجاج إلى الديار المقدسة كطائفة الدوجية أو الدعوجية المستخدمة بالتركية نقلاً عن العربية من الفعل يدعو. تتعهد بنقل الحجاج أو الحاج الراغب بالحج من دمشق إلى مكة، وتعيده بحسب الاتفاق إلى مكان بدء الرحلة، ويركب المسافر في محارة من الخشب المغطى بالقماش وتتسع لراكب واحد. وتوضع اثنتان منها على ظهر الجمل كل واحدة في طرف. ويمكن أن توضع حمولة في أحد الأطراف بدل مسافر ما. واستخدمت تسمية أخرى للمحارة في القرنين /١٧/ و /١٨/ وهي الشقدوفة. واستخدمت كذلك كلمة محفة وهي عبارة عن تخت خشبي وضع على ظهر الجمل، واستخدم لنقل الحجاج، ويبدو أن للحفة ميزات ميزتها على المحارة أو الشقدوفة.

وأسهمت طائفة العكامة^(٢) في عملية نقل الحجاج، ولكن دورها كان ثانوياً، إذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها والعكام هو الذي يقود الجمل ويخدم راكبيه، واختلفت أسعار نقل الحجاج تبعاً للخدمات المقدمة، ففي عام ١٦٣٦ كلفت عملية النقل من حلب إلى مكة والعودة مسافراً وأمه /٤٤/ قرشاً سلفاً ومعجلاً^(٣). ولكن في فترة الدراسة ١٠٨٦-١١١٢هـ/١٦٧٥-١٧٠٠م فإن أجرة حمل الراكب من مكة إلى دمشق كانت تكلف /٦٠/ قرشاً أسدية^(٤).

(١) . Damascus survey. Rafeq. The province. P. 73, 74 .

(٢) قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص ٣١٨-٣٣٩. العكام معناها الحمّل.

(٣) رافق، مرجع سابق، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.

(٤) السجل ١٥ مشوش، وثيقة ٧١٦، ص ٢٣٤.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في دمشق

أ- الصناعة .

- ١- صناعة الحرير .
- ٢- صناعة الغزل والنسيج.
- ٣- صناعة الرماد .
- ٤- صناعة الخشب.
- ٥- صناعة الزيت والصابون.

ب- الزراعة .

ج - الواقع الاقتصادي لدمشق.

الحياة الاقتصادية في دمشق

يزداد الاهتمام يوماً بعد يوم، في الكتابات العربية وغير العربية، بدراسة التاريخ الاقتصادي للأقطار العربية، عبر العصور المختلفة وطبيعي أن التاريخ السياسي الواعي الذي يتتبع تحليل الأحداث السياسية أفقياً وفي العمق ويربط بعضها ببعض الآخر، بكل شامل وواعٍ، حيث يشمل الإطار الأساسي الذي من خلاله تدرس أنماط التطورات الاقتصادية وتساعد دراسة هذه التطورات بدورها على تصحيح فهمها للتاريخ السياسي ولبواعثه العميقة وجعله أكثر عقلانية فالأمس الاقتصادي لأي حادث أو موقف أو اتجاه سياسي أو ثقافي هي وحدها التي تفسر الدوافع العميقة لهذه الأحداث والمواقف والاتجاهات.

أ - الصناعة :

لا نستطيع دراسة الحياة الصناعية في بلاد الشام ومعرفة صناعاتها، إلا من خلال دراسة نظم الحرف الموجودة، التي تعدّ أساس الصناعة في بلاد الشام.

فالحرفة هي صنعة الرجل وما يكتسب به^(١) بمعنى آخر هي أي صناعة يستطيع الإنسان أن يؤمن لنفسه الرزق بواسطتها، كما يمكننا القول أن الحرفة هي إنتاج يوظف لخدمة الآخرين.

كانت الحرفة في أكثر الأحيان وراثية ينقل سرها الأب لابن حيث كان الولد يطبع بصنعه أبيه، يرافقه إلى حانوته يعاونه ويساعده ويحمل أغراضه ويحضّر له بعض ما يلزمه للHANOT والبيت، ولقد أدى انتساب العائلات للحرف التي تزاولها إلى اتخاذها

(1) خليل الجر، لاروس المعجم العربي الحديث، مكتبة لاروس ١٩٧٣، ص ٤٤١. وقد تمت معالجة الحياة الاقتصادية على ضوء ما ورد في وثائق فترة الدراسة، وليس بحسب المفهوم العام. الباحث

كُنِيَّات لها مثل آل الحداد، آل النحاس، آل البيطار، آل البستاني، آل الصباغ والدباغ والخباز، والطحان، والسكاف، وفبنجين سمان، لحام، لبان، حلال، حطاب^(١). ومن العائلات المشهورة العطار في دمشق والمرادي والمسلماني وغيرهم.

ولكل حرفة من الحرف درجات ترقى في الخدمة، حيث ضمت كل واحة ثلاث فئات من العاملين هم: المعلمون، الصناع والمبتدئون أو الأجراء، ويرى أحمد شعبان في دراسته عن الطوائف الحرفية في دمشق أنه لا بد للمنتمي لأية حرفة من المرور بخطوات مدروسة ومنظمة للوصول إلى امتلاك الحرفة وليصبح معلماً فيها قادراً على منافسة الآخرين ومقارعتهم حرفياً ويمكن تصنيف هذه الخطوات إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى:

وهي تعرف بمرحلة الأخذ باليد، أما ما يعرف بمرحلة التعلم، وفيها يعتمد المعلم على تربية الصبي سلوكياً والسير على مبادئ الحرفة، ولاكتساب الرجولة والخشونة والحذر والانتباه يتعرض الصبي لكثير من الضرب والضغط والإهانات، كما يقوم على خدمة معلمه من خلال إحضار الغذاء من المنزل والماء... ويطلق على المرحلة، التي يعلن رسمياً قبول الصبي من الطائفة وذلك من خلال احتفال كبير ينتج عنه البدء بالتحضير للمرحلة الأخيرة المعروفة بمرحلة التلميح وفيها يشارك الحرفي الجديد الحرفيين بتناول الخبز والملح معهم كتعبير عن مقاسمتهم الخير والشر والدفاع عن طائفتهم وبانتهاء هذه المراحل الثلاث يصبح الحرفي الجديد ضالماً في الحرفة فيلجأ إلى افتتاح محل يستأجره أو يكون جزءاً من بيته^(٢).

وللحرفة تنظيم مشغلي دقيق، حيث كان الحرفيون العاملون في مشغل واحد متخصصين بنوع واحد من العمل، كما كان لا يحق للحرفي أن يبيع بسعر أكثر من الذي تحدده الحكومة ولا يحق له تصنيع أو بيع بضائع ليست من ضمن اختصاصه كذلك تغيير

(1) سجل دمشق، رقم ١٥، ص ٢٣٧، ٥ صفر ١٠٣٧ (١٦ تشرين الأول ١٦٢٧).

(2) سجل دمشق الشرعي، رقم ٤٥، ص ٨٥.

أو تطوير الطرق المتبعة في العمل، أما أدوات العمل فقد كانت تنتقل بالوراثة وتعدّ ضمن جهاز العرس الذي تحمله ابنة الحرفي مع حق فتح مشغل وممارسة الحرفة^(١).
لقد كان على كل طائفة حرفية أن تقدم الطاعة والولاء للسلطة السياسية ويتم ذلك من خلال تعيين شيخ للحرفة الذي يصبح تعيينه رسمياً بعد موافقة الوالي عليه، وذلك من خلال محضر رسمي في المحكمة الشرعية^(٢).

٢ - شيخ الحرفة أو الطائفة:

تعدّ الطائفة الحرفية إحدى الركائز الأساسية للنظام الاقتصادي حيث كان من الضروري لكل حرفي أن ينتسب إلى إحدى الطوائف ويعدّ عضواً فيها وقد ساعدت هذه الطوائف على قيام تضامن اجتماعي متين بعدما أوقفت المنافسة الخفية بين الحرفيين وهذا ما ساعدها على مستوى الحرف.

كان أبناء الطائفة الحرفية الواحدة، يتفقون فيما بينهم على اختيار شيخ لحرفتهم وذلك من بين معلمي هذه الحرفة يكون بمنزلة الناطق الرسمي باسمهم أمام المحاكم الشرعية ومدافعاً عن حقوقهم وعاملاً على حل المشكلات بعدها يذهب نفر منهم إلى الحاكم الشرعي ليلتمسوا منه تعيين هذا الشيخ ويتم ذلك بعد الموافقة من خلال محضر رسمي في المحكمة الشرعية وهذه القضية تتحدث عن تعيين شيخ لطائفة الحمامين:

بمجلس الشرع الشريف المشار إليه بعد أن حضر كل من أخي بابا السيد علي بن السيد جمال شيخ السبعة و...، وباقي الحلاقين ومعلمي الحمامات بدمشق واختاروا من بينهم الرجل المدعو محمد سامي المرادي وطلبوا من الحاكم الشرعي بأن ينصبه شيخاً عليهم لكون شيخ حرفتهم الحاج حسن بن ملوخية مات وشغرت وظيفة المشيخة فأجابهم إلى طلبهم ونصب لهم الحاج بكر المزبور شيخاً ومتكلماً عليهم وأذن له بتعاطي أمور المشيخة سالكاً بذلك تقوى الله تعالى في السر والعلانية^(٣)...

(١) سجل دمشق، رقم ٣٣، ص ٩١، ٢٤ رمضان ١١١٩، ١٩ كانون الأول ١٧٠٧م.

(٢) إيرينا سيميليا نسايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي، سلسلة تاريخ الشرق العربي الحديث، ١٩٨٩، ص ٢٠٤.

(٣) سجل دمشق، رقم ٢٢، ص ٦٠، ٥ ربيع الأول ١١٠١ (كانون الأول ١٦٨٩م).

وكان شيخ الحرفة يسمى كيخيا وهو كان ينوب عن الباشا في حال غيابه أما مجموع المشايخ فيشكل حلقة تمثيل الطوائف لدى السلطات وكان المشايخ يوزعون الضرائب على أعضاء طوائفهم ويتولون جبايتها، كما يجب على كل شكوى أن تتوجه عبر شيخ الطائفة الذي يحكم في نطاق الدين والعادات والتقاليد مما يؤمن لتلك الطوائف حرية نسبية من الحكم الذاتي والاستقرار والقابلية للتكيف تبعاً للظروف السياسية^(١).

مما تقدم يظهر أن علاقتهم بالقاضي أو الحاكم تقوم على أساس مراقبة الحاكم الشرعي لاختيارهم وعزلهم لشيوخهم حيث ينبغي الحصول على موافقة القاضي الشرعي لكي يصبح اختيارهم لشيخهم نافذاً، كما كان يتم في أوقات معينة تعيين شيخ من قبل السلطات العليا بموجب براءة سلطانية أو بيورلدي (أمر سلطاني)^(٢).

من ناحية شيخ الحرفة يجب أن تتوفر فيه صفات الاستقامة والعفة والمعرفة الجيدة والدقيقة بأمور الحرفة كما عليه القيام بخدمة المشيخة سالكاً فيها تقوى الله في السر والعلانية، وقد يصادف في بعض الأحيان تواجد شيخين لطائفة واحدة والسبب إما لدى تواجد خلل كبير بين أبناء الحرفة الواحدة أو أن عدد أفرادها كان أكثر مما يستوجب وجود شيخين لها، وكان يتم أيضاً عزل الشيخ إذا كان شريراً يؤذي عناصر الطائفة ويأخذ منهم خوة أي رشوة وبعد أن يشهد عليه مشايخ الحرف والحرفيون يتم عزله وتعزيره وزجره ونفيه من البلدة حتى لا يشكل خطراً على الدولة من قبل أنصاره داخل الحرفة الذين ربما مانعوا في عزله^(٣)، كما يمكن لهذا العزل أن ينتج أحياناً عن خيانة أو تلاعب بالأسعار والإنتاج زيادته أو نقصانه، ويمكن أيضاً إذا كان مريضاً أو عاجزاً فيعين الحاكم الشرعي بدله.

٣ - العلاقة بين الطوائف وأهميتها:

لقد حظيت فئة الحرفيين والصناعيين في دمشق التي تعدّ الأكثر عدداً والمحدودة الدخل بنوع من الاستقلال النسبي في الداخل، صحيح أن كل حرفة كانت تشكل طائفة

(١) مسعود ضاهر، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، بيروت ١٩٨١، ص ٣٢٤.

(٢) سجل دمشق، رقم ١٥١، ص ٢٦٠، ذي القعدة ١١٦٨ (١٤ آب ١٧٥٥).

(٣) سجل دمشق، رقم ١٥١، ص ٢٦١، ٦ ذي القعدة ١١٦٨ (١٤ آب ١٧٤٤).

مستقلة عن غيرها من الحرف إلا أن هناك بعض الطوائف الحرفية ترتبط أعمالها بعضها ببعض، فإذا أخذنا مثلاً على ذلك صناعة النسيج فهي بحاجة إلى تضافر أكثر من حرفة حيث يشارك الحلاجون والصباغون وطابعو النقوش على القماش واختصاصيو التلميع وغيرهم إلى جانب ما يزيد على عشر حرف من مهن مختلفة أخرى^(١).

انطلاقاً من هذا الواقع بدأت بعض الطوائف تعمل على انتخاب شيخ المهنة مهمته تنظيم العلاقة بينها وتجدر الإشارة هنا إلى عدم أهمية تقارب أو تباعد هذه الطوائف في الإنتاج، أما الأفضلية لهذا المنصب فكان من نصيب شيخ الحلاقين أو الدباغين، وهذا ما لوحظ في كثير من القضايا^(٢)، كان شيخ السبعة ينوب عن الطوائف أمام الحاكم الشرعي، كما أنه يحضر قضايا في المحكمة ويكون شاهداً على ما يتفق عليه في آخر الدعوى. أما صفات شيخ السبعة فكثيرة ومتعددة إذ عليه التمتع بالمناقبية الحسنة والسمعة الجيدة بالإضافة إلى هذا كله كانت له مكانة مرموقة ويتمتع بحقوق ملزمة للحرفيين من بينها إيداء المشورة كما من واجبهم أن لا يخرجوا عن مشورته^(٣).

كما كانت بعض الحرف بحاجة ماسة إلى تنظيم الأمور فيما بينها لذا كانت هذه الطوائف بمشايعها تختار من بينها من يتولى منصب أخي بابا عليهم ليحل مشكلاتهم وكانت هذه الوظيفة وراثية إلى حد بعيد، وقد كانت تعدّ أيضاً شرفية بمعنى أن على من يتولاها أن يكون من الأشراف أو بالأحرى من العائلات العريقة في البلد، وقد كانت وظيفة الأخي بابا مهمة ومقدرة جداً، كما كان يتقاضى بدل أتعاب من الذين يوكلونه حل مشكلاتهم^(٤). كما كان الحاكم الشرعي يتدخل في بعض المشكلات التي تستوجب تدخله وذلك من قبل تفاقم الخلاف ومثلاً على ذلك تدخله مع الدباغين أو مع الخبازين حين اختلفوا على تقسيم الضرائب فيما بينهم^(٥).

(١) جودت، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤١٧..

(٢) سجل دمشق، رقم ٢٢، ص ٦١، ٥ ربيع الأول ١٧/١١٠١ كانون الأول ١٦٨٩م.

(٣) سجل دمشق، رقم ٢٣، ص ٢١-٢٢، ٥ ربيع الأول ١٧/١١٠١ كانون الأول ١٦٨٩م.

(٤) نهدي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، ص ١٣٣.

(٥) طرابلس، المحكمة الشرعية، سجل ٢، ص ٩١ وثيقة أواخر شوال ١٠٩٧هـ، موجودة في محكمة دمشق الشرعية.

من ناحية أخرى كانت الخلافات تدب بين الطوائف إذا عمدت إحداها على رفع أسعارها مما يضر بغيرها من الحرف وأكبر مثال على ذلك طوائف الدباغين والأساكفة والسراجين والشعارين والقوافين التي تعدّ مرتبطة إلى حد كبير مع طائفة القصابين فإذا بدل القصابون أسعار الجلود ينعكس بالتالي ذلك سلباً على الدباغين وغيرهم كما كانت الخلافات تقع داخل الطائفة الحرفية الواحدة كما حدث في طائفة العلبية الذين يعملون في صناعة الصناديق والتوابيت مما اضطر الحاكم الشرعي للتدخل قبل استفحال الخلاف فيما بينهم^(١). كما كانت الصراعات والخلافات تتدلع أيضاً بين تجار جلود الماشية وصانعي الأحذية وذلك بشأن تزويدهم بالجلود للأحذية وكان صانعو الأحذية يطالبون بزيادة حصتهم من الجلود المدبوغة لأن العدد المحدد كان ست قطع لكل معلم في اليوم الواحد وكانت الخلافات تنشب أيضاً بسبب الغش وهذا اقتضى إقامة قضية على النحو الآتي:

بمجلس الشرع الشريف المشار إليه حضر كل من السيد محمد بن علي الحافظ وباقي طائفة الطحانيين والخبازين في دمشق وتقرروا بأن الرجل المدعو علي بن زين الدار الكيال بأنه رجل خاين ينقص الكيال وقد تكرر بفعله ذلك وظهر وتبين للحاكم الشرعي في خيانتة... وأمر الحاكم الشرعي بتعزيزه.. بأن لا يعود إلى صناعة الكيالة^(٢)..

وتتحدث سجلات محاكم دمشق الشرعية التي اطلع عليها الدكتور عبد الكريم رافق عن توحيد بضعة اختصاصات متقاربة في مشغل واحد كمشغل الحبالين حيث توحيد صانعو الحبال وبائعوها وفي مشغل اللحامين عمل تجار اللحم أيضاً في مهنة ذبح الماشية بصفة مساعدين^(٣).

نخلص إلى القول بأن العلاقة بين الطوائف الحرفية كانت على أوجه متعددة أولاً اقتصادية حيث حتمت وجود ارتباط وتعاون اقتصادي بين طائفتين أو أكثر ثم دينية إذ كانت بعض الطوائف تلتقي في إتباع طريقة صوفية معينة مما يجعلها ترتبط ارتباطاً دينياً (صوفياً) مع بعضها بعضاً يضاف إلى ذلك العلاقات التنظيمية والإدارية لبعض الحرف

(١) دمشق، المحكمة الشرعية، سجل ٢، ص ١٥٠ وثيقة ٢٩ ذو الحجة ١٠٨٩هـ.

(٢) دمشق، المحكمة الشرعية، سجل ٣، ص ١٢٨ وثيقة أواخر ربيع الثاني ١٠٩٨هـ.

(٣) جودت، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٩٠.

التي كانت تلتقي مع بعضها لتختار من بينها شيخ السبعة أو لتصلح الخلافات بين طائفتين أخيراً كانت بعض الطوائف الحرفية تلتقي مع بعضها عند الحاكم الشرعي لتقر بقبض ثمن ما قدمته لمطبخه إقراراً شرعياً^(١).

هكذا نستنتج أن العلاقة بين الطوائف الحرفية لم تكن سهلة في الواقع مما وجب عليها التضافر والتقارب لتحل مشكلاتها من جهة ولتنظيم العمل فيما بينها من جهة أخرى وذلك لمصلحة الحرفة وتطورها وازدهارها.

٤ - الحرف: أماكن تواجدها، التقنيات المستخدمة، المواد التي تنتجها:

إن تموين المدينة والريف بكثير من البضائع والسلع كانت مؤمنة من خلال حشد كبير من الحرف والمهن ويمكننا تفسير قضية الإنتاج والتوزيع من خلال وصف أكبر عدد ممكن من الاختصاصات والمهن وما تنتجه والطرق والأدوات التي تستخدمها في صناعتها ويمكننا القول هنا إن هذه الحرف والمهن اعتمدت على تقنيات يدوية بسيطة ومألوفة وهي تستغرق مدة زمنية طويلة، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصناعات الحرفية المبنية على العمل اليدوي كانت مسيطرة على الإمبراطورية العثمانية بعمامة وعلى الشام بخاصة^(٢). وصناعات ولايات بلاد الشام كانت متنوعة وعلى جانب كبير من الازدهار أبرزها صناعة الحرير الطبيعي الذي تنتجه دودة القز وصناعة الأقمشة والمفروشات فضلاً عن صناعات أخرى مختلفة ومع أن هذه الصناعات كانت تعتمد في معظمها على الأساليب التقليدية والطرق البدائية فقد جاء بعضها ليكشف عن قدر كبير من المهارة والجودة ومن الصناعات والحرف التي وجدت في دمشق التي تميزت بمهارة صناعاتها، وبراعتهم في إعطاء صناعاتهم جمالية جذابة تدفع السواح إلى التهافت على شرائها.

(١) السجل ١٥٧ وثيقة ١٩٥ ص ١٠٤، وفي هذا السجل أبرز الحالات الاقتصادية والاجتماعية من خلال استعراض أملاك الوقف.

(٢) السجل ١٤٢ وثيقة ٢٧٩ ص ١٣١.

هذا التواصل الاقتصادي، أسهم في ازدهار المدينة من حيث وفرة المواد الزراعية والصناعية فيها، وغدا رواد دمشق من الزوار وغيرهم يشترون حاجتهم من دون أي إكراه، لأن الدمشقيين، كانوا يقدمون بضائعهم الصناعية والزراعية بطريقة أنيقة ومرتبطة، ويذكر السجل رقم ١٦٧ أن تشابك العلاقات الاقتصادية لمدينة دمشق، نقل الحياة الاقتصادية إلى قرية حرستا ، وقد شكلت قرية دوما إحدى أكبر قرى الغوطة الشرقية، وكان السواح ينتقلون إلى هذه القرية ولا سيما في الصيف لشراء الخضر والفواكه الطازجة، علماً بأن ما كانوا يريدون شراءه كان متوافراً في معظم حوانيت دمشق^(١).

والجدير بالذكر إن الحياة الاقتصادية في دمشق خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر، لا تختلف كثيراً عن القرون التي سبقتها، لكن القرن الثامن عشر أدخل دمشق وصناعاتها إلى نوع من الاضطراب، صحيح أن آل العظم أسهموا في ضبط الأمن وتأمين الطريق وسلامة الحج، إلا أن الضرائب التي فرضها العثمانيون على الأهالي أرهقت كاهلهم، ولا سيما أن الدولة العثمانية بدأت تواجه أزمات اقتصادية انعكست سلباً على دمشق وتجارها وصناعاتها. ومما قاله أحد التجار إن بيع الصناعات الدمشقية بأقل من الصناعات المستوردة يعرض التجار إلى ضائقة اقتصادية، وبالتالي هذا ينعكس على تهريب الذهب من دمشق إلى الدول الأوروبية^(٢).

لقد قامت الحياة الاقتصادية في دمشق، إضافة إلى الصناعات والمزروعات على العائدات مثل الحج الذي تزدهر فيه الحياة الاقتصادية، ويذكر دفتر ١٩٣ أن ما ينفقه الحجاج من أموال في دمشق خلال موسم الحج، يرفع من معنويات سكان دمشق سواء للموسر والمعسر في آن معاً^(٣).

(١) إن الوثائق لا تقدم لنا المعلومات الاقتصادية، وإنما تعرفنا بمنتجات دمشق، وأماكن بيع كل نوع من الفواكه والخضروات، وما هي الأسواق التي تغص بمثل ذلك.

(٢) سجل ١٧٥ وثيقة ٤٥٣ ص ٣١٧.

(٣) سجل ١٩٣ وثيقة ٣٤٨ ص ١١٩.

١ - صناعة الحرير:

من أفضل صناعات بلاد الشام ولا سيما مدينة دمشق كانت بلا شك صناعة حل الحرير أو تربية دودة القز التي اعتنى بها السكان اعتناءً كبيراً وأفلحوا به، أما بزر القز فدخل بلادنا قرابة سنة خمسمائة وخمس وخمسين إذا كان استحصل عليه الإمبراطور يوستينان من الصين بواسطة راهبين كان قد انتبذهما لهذه الغاية فأتياه بكمية من بذر القز وبذر التوت مخبأة في عصيهما لوقايتها من المراقبات الشديدة في الهند والعجم والصين استثنائاً بغلة هذه الصناعة^(١).

اعتمد السكان في حل الشرائق أو الفيالج على الطريقة المسماة الحل العربي أي على الدولاب العربي وبأيديهم كان الحلال ينصب وقت الموسم خيمة يبني تحتها موقدة يركب عليها خلقيناً من النحاس يعرف بموضع الحل هذا بالحلالة فيضع الشرائق في الخلقين تباعاً كما ترده وكما هي بدمها أي من غير أن تتقى وتطرح على دولاب كبير قطره ثلاثة أمتار ويحرك بالرجل وعند انقطاع طاق الحرير كان الحلال يحرك الشرائق بواسطة قضيب رفيع ويأخذ الطاق ويلصقه على الدولاب من غير وصل فكان الحرير يحصل هكذا من دون عيار ذي طاق خشن وغير منسوب ويسمى هذا الحرير بالبلدي كما كانوا يخنفون في الشمس الشرائق التي يتأخر حلها وكل من يقطف شرائقه يحلها بيده أو باستئجار من هو بارع بذلك وقد كانوا ينقون أيضاً الشرائق فينقون منها الموانة والبغلية والضعيفة وينقونه ما أمكن من النمش والجلط ويحلون ما بقي منها على نفس الدولاب العربي^(٢).

كان للتنوع المناخي في مختلف مناطق بلاد الشام أثرٌ كبير في إنتاج الحرير تبدأ تربية دودة القز في السهول خلال الأيام الأولى لشهر نيسان ويبدأ جمع الحرير في نهاية شهر أيار وتبدأ حضانة البذور في منطقة الروابي في أوائل نيسان ويجمع الحرير في

(١) إسماعيل حقي، لبنان مباحث علمية واجتماعية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠، الجزء الثاني، ص ٤٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٩.

أوائل حزيران^(١). أما أوقية بزر القز البلدي فكانت تعطي ستة أرطال من الحرير المحلول وأحياناً اثني عشر رطلاً.

انتشرت تربية دودة القز في مناطق دمشق وقراها، وفي سائر مناطق بلاد الشام، وتمدنا سجلات المحكمة الشرعية في دمشق بكثير منها نذكر على سبيل المثال.. وذلك جميع البستان الشجري الحراجي الكائن بأرض بحنين تابع الزاوية من أعمال حمص. وجميع الأربعة بيوت الكاينة بنفس القرية المزبورة المعدة لتربية دودة القز^(٢)...

كما كانت صناعة الحرير الشغل الشاغل الرئيسي لمناطق غوطة دمشق، غير أن مناطق طرابلس وبيروت نافست دمشق بأشجار التوت، حيث كانت ترتفع فوق سطح منزلها الأطباق المعدة لتربية دودة القز^(٣)، وتجدر الإشارة إلى أن حل الشرائق وصناعة الحرير ظلت على الدولاب أي على الطريقة العربية حتى أنشئ أول معمل لحل الحرير في القرن التاسع عشر على الطريقة المستعملة آنذاك في أوروبا وكان ذلك في بيروت سنة ١٨٣٦م.

يقول السيد لامبرور قنصل فرنسا في دمشق في تقريره حول النشاط التجاري وذلك في ٢٢ حزيران سنة ١٦٨٥م: وأجمل النسيج الذي تنتجه هذه البلاد هو نسيج الآلاجه والبوشيات الذي يصنع في دمشق، وهناك صناعة حرير أقل جودة يعرف بالشوفي وآخره بالبيروتي وهو أبيض أو أصفر اللون والصيداوي وهو أقله قيمة^(٤).

(١) دمشق، المحكمة الشرعية، سجل ١، وثيقة ١٢ صفر ١٠٧٨هـ.

(٢) دمشق، سجلات المحكمة الشرعية، رقم ٢١٧ وثيقة ٣١٨ ص ١٥٤.

(٣) عادل إسماعيل، تاريخ لبنان الحديث، القسم الأول، الجزء الأول، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٩٠، ص ٤١.

(٤) أحمد شرمند، دور طرابلس الاقتصادي في القرن الأول من العهد العثماني، طرابلس ١٩٩٥، ص ٤٨

وبعد إجراء المقارنة بين هذه الأنواع يظهر أن حرير بيروت والمعروف بالببيروتي هو أبيض أو أصفر اللون خيطه رفيع وقوي، الأصفر يستعمل للأقمشة الحريرية حيث يلزم دهنها أو تلوينها إذ ليس بمقدورها أن تصبح بيضاء كلها ولأنها تحافظ دائماً على بعض الاشقرار وقت غسلها أما الأبيض فيلزم لصناعة الأقمشة البيضاء مثل الساتان والتفتا وغيرها، هذه الفئة غير ناعمة ويمكن أن تساعد على صناعة الأشرطة الفضية التي يزين فيها الملابس والأثاث لأنها قوية وثقيلة، أما حرير صيدا فهو أقل جودة ويساعد على التخييط وصناعة الشراشيب والتطريز ومن ناحية حرير الشوف فلونه أصفر ويصبح أبيضاً عند غسله بماء الساقية.

ومن جهة ثانية يمتاز حرير طرابلس بمتانة خيوطه ووحدة لونه ويصلح لحياكة النسائج المقصبة بخيوط الذهب والفضة^(١)، في هذا المجال يقول السيد مونهينو قنصل فرنسا في طرابلس في تقريره حول تجارة هذه الأسلكة وذلك في الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٧١٧م وقد أصبح حرير هذه البلاد (طرابلس) ضرورياً لصناعات بلادنا بحيث يصعب الاستعاضة عنه بأي حرير ينتج في فرنسا أو يستقدم من إسبانيا أو من إيطاليا نظراً لميزاته الخاصة فهو ثقيل الوزن ويحتوي على كثير من القطن وهذا ما يجعله أصلح لصناعة الأشرطة بالخيوط المذهبة أو الفضية، أما حرير قبرص فيتصف بذات النوعية تقريباً إلا أنه أقل جمالاً وهذا ما يجعل حرير هذه البلاد مرغوباً أكثر من الحرير القبرصي وأعلى منه ثمناً بنسبة ١٠ إلى ١٢%.

أما كاتشياماري فقد ذكر في تقريره الذي رفعه إلى غرندوق توسكانة سنة ١٦٠٥م أن مادة الحرير هي من أهم المواد التي يمكن اعتمادها في التجارة مع المدن اللبنانية بالنظر لحاجة مصانع توسكانة ولومبارديا إلى هذه المادة وبالدرجة الأولى الحرير

(١) أحمد شرمند، مرجع سابق، ص ١٩١.

البيروتية ذو اللون الذهبي والحرير الطرابلسي الأبيض المتين الذي يصلح لحياكة الأقمشة الحريرية الموشاة بالذهب والفضة^(١).

٢ - صناعة الغزل والنسيج والحياكة :

تعدّ صناعة النسيج قديمة في بلاد الشام، وقد برع فيها حياكوها وأخذوا شهرة كبيرة من حيث جودة ومتانة وتطريز الكثير من منتوجاتها لقد كانوا يحيكون لوازمهم فيحلون الحرير ويستحضرون القطن من نابلس ويغزلونه وينسجونه نسجاً صقيلاً يسمونه خاماً ويصبغونه ألواناً كانوا ينسجون أيضاً الصوف والشعر ويأخذون من هذه الأقمشة ملبوساتهم.

لقد أخذت معظم المدن حظها من هذه الصناعات ويمكننا القول أن صناعة الغزل والنسيج والحياكة والتطريز اشتهرت بها معظم مدن ومناطق بلاد الشام من دمشق إلى حمص وحماة وحلب وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وبعبك والجنوب اللبناني حيث شارك في هذه الصناعات الكثير من الطوائف والمهن والحرف، وقام بينهم تبادل تجاري جيد، كما كانوا يتبادلون الخبرات في مختلف أعمال التطريز.

ولتبيان مهارة صناعة الغزل مثلاً يمكننا الاطلاع على التقرير الذي أرسله السيد لامبرور قنصل فرنسا في صيدا إلى الكونت دي بونشتران أمين سر الدولة للشؤون الخارجية في باريس وذلك في شهر نوار من سنة ١٦٩٢م حيث قال: ويجب أن نأخذ أيضاً بالحسبان أنه يتعذر علينا غزل القطن في فرنسا الطريقة المتبعة بنفسها في هذه البلاد التي تجعله ناصع البياض ناعم الملمس طرياً ولو فرضنا أن مهارة عمالنا كفيلة بإعطائه هذا الجمال الذي هو فيها، وهذا غير ممكن فإن تكاليفه تصبح ٤٠% أكثر من ثمنه في هذا البلاد. مما تقدم يدلنا على مهارة أهل هذه الصناعات وهي مهارة تجمع إلى

(١) جودت، مصدر سابق، ج٤، ص ٢١٥.

المتانة الإبداع في الصناعة وبالرغم من التطور العربي بدخول الآلات إلى معظم صناعاتهم بقي الحرفي الشرقي يعتمد على مهارته وتقنيته وإبداعه يستعمل الطرق القديمة واليدوية وينافس فيها الصناعة الإفرنجية من حيث المتانة أو الذوق والجمال وفي هذا المجال مثلاً لم يبرح حلاجو القطن من استعمال الطرق القديمة في الحلج وذلك بالقوس والنداف والغزل في مغازل تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يفي الحاجة.

ودعماً لكل ما تقدم يمكننا التوقف عند رأي السائح بارت الذي أشار في بداية حديثه إلى المثل العربي الشائع الذي يقول: إن ورقة التوت لا تلبث أن تتحول بقليل من الصبر إلى قطعة من الساتان. ويتابع قوله بأنه يفضل الطريقة التقليدية في الحياكة وذلك حين شاهد بعض الأقمشة المنسوجة وهي لا تزال تحتفظ ببريقها ومتانتها رغم مرور ثلاثة قرون عليها ثم يخلص إلى القول إن الآلة اليوم شرع في إنجاز العمل الذي لا يلبث وبسرعة أيضاً أن يتعرض للتلف^(١).

وبعودتنا إلى طائفة الخياطين التي يعرف شيخها بالتزري باشا فإنها قد برعت بحياكة الملابس والأدوات المنزلية والأثاث كالسجاد، الفراش، المخدات، المسند، الصداري والعبي^(٢)، أما الملابس أو اللباس فهو مرآة تعكس لناظرها الكثير من المعطيات المجتمعية المعاشة وله دلالات عن الطبقة الاجتماعية والانتماء العقائدي أو السياسي بالإضافة إلى المستوى الاقتصادي للفرد في المجتمع لذا كانت الملابس من أوليات واهتمامات الرجل الشرقي لأنها على علاقة مباشرة بمركزه الاجتماعي وبوجاهته كذلك الحال بالنسبة للمرأة الشرقية، وتمدنا سجلات المحكم الشرعية بالكثير من الأزياء التي امتاز بها حائكونا والتي استخلصناها من خلال تركات الأشخاص وأهمها: القمصان، العبي المطرزة والمقصبية، الصداري المطرزة، الطربوش وهو غطاء للرأس متنوع الأشكال مصنوع من الجوخ الأحمر له ذؤابة حريرية (شرابة) باللون الأسود أو الأزرق إضافة إلى المشلح (المعطف

(١) سجل دمشق، رقم ١١، ص ١٢٢، ٢٢ محرم ١٢٦١ (٣١ كانون الثاني ١٨٤٥).

(٢) شرمند: مرجع سابق، ص ١٢٤.

الكبير) الغنبار وهو يصنع من قماش الألاجة وتعني الميل أو قماش الديمة وهي تصغير لكلمة دمسكو ويلبس من قبل الرجال والنساء على حد سواء كذلك الشكاية وهي جاكيت مطرزة العضودية أو الفشورية وهي من ألبة الرجال الفرملية وهي الصدرية للإناث التقميطة أي الكفية ويوجد منها الأبيض والأسود من ناحية أخرى يمكننا أن نميز بين الملابس المصنوعة من الصوف كالكبوت الشروال والعباءة ومن القطن هناك القمصان، الصدرية، المنتان، وهو قسم من الثوب يغطي ما بين العنق والخصر وهو من لباس النساء والرجال إضافة إلى القلاشين وهي جوارب تلبس في الرجلين. من المنسوجات الحريرية لدينا الزنار، المنديل، الشال العبيدية وهي قطعة غطاء للرأس من الحرير الأسود بالإضافة إلى المشالح، أما ملابس الجوخ فهناك الفروة السلطة وهي جاكيت طولها أحياناً حتى الركبة، كذلك الفستان وهو من الأثواب النسائية، ويضاف إلى هذه المنسوجات الثمالات وهو نسيج يصنع من خيوط الصوف ووبر الماعز ويلقى على الكتفين النجود وهو ما يزين به البيت من فرش وبسط وسواها.

وفي الختام لا يمكننا أن ننسى الطنطور الذي كانت تزين به المرأة الشرقية رأسها وهو كناية عن قرن فضة مجوف مئثل بتزيينات منقوشة أو بارزة يصل طوله أحياناً إلى بضعة أقدام وعلى صفحته الأمامية صفاح من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة غير المصقولة.

كما انتشرت في ريف دمشق المحلات المعدة لنسج الأقمشة وقد تبين لنا ذلك من خلال الوثائق التي تذكر لنا بعضها إحدى هذه الوثائق تقول: وجه تحرير الأحرف هو أنهم حفروا أماناً: مصرية أم المرحوم الحاج يعقوب وأوقفوا على روح المتتيح ابنه الشماس يوسف كل الحوش التي ملاصقة لحوشهم مع الدكان المبنية لأجل النوال الكاينين في حارة الصليبية بحلب المحمية وكان ذلك سنة ١٦٨١م مسيحية^(١)....

(١) محفوظات المكتبة المارونية في حلب، سجل رقم ١٦٨، ص ١٩ القسم الموجودة في محكمة دمشق الشرعية.

واشتهرت دمشق بالثياب المصنوعة من الصوف وخصوصاً الكبوت الواسع الفضفاض، وحمص بالمناديل المزينة بخيوط من ذهب وألوان الأبيض والأحمر والأصفر وصناعة الأقمشة وغيرها مزدهرة في دمشق منذ القديم. ويقول البديري: ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش وهو النسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله ومنها عمل القماش الأبيض القطني^(١)، ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشيا وحسن طرازها عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال: الداماسكو وهو ثوب غليظ برسوم جعلت في جسم الثوب. وقد قال ابن عربشان إن الحريريين في دمشق نسجوا لتيمورلنك قباء الحرير والذهب ليس له درز فإذا هو شيء عجيب..

كما كان يصدر من حماة الحرير والأقمشة المتنوعة والأقمشة الموشاة بالذهب والشراشف والمناديل والزنانير والحرير المزخرف كما يصدر من الشام، وقد تخصص صانعو القماش في حماة أيضاً في صناعة القماش المعد لملايس الحجاج وقد ظلت صناعة النسيج مزدهرة في حماة طوال القرنين السادس والسابع عشر حيث تواجد حوالي مئة معمل لغزل القطن وأكثر من ثمانمئة مهنة لغزل الصوف والقطن والحرير كذلك اشتهرت أنسجة بعلبك ورأس بعلبك^(٢).

وقد بقيت حتى العصر الحديث صناعة النسيج في دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد، لكنها تقهقرت في بعلبك كذلك اشتهرت خيوط القطن المغزولة في مدينتي الرملة والقدس وضواحيها وخصوصاً الأقمشة القطنية في الرملة إضافة إلى القماش الدميبي نسبة إلى قرية دميت في الشوف القطنية من النوعية المتوسطة والتي تستعمل في نسج أشربة

(١) محمد كرد علي، خطط الشام دار العلم للملايين، بيروت، جزء ٤، طبعة ثالثة، ١٩٨٣، ص ٢٠١.

(٢) جودت، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣١٠.

السفن وكان يعمل في صدف من الثياب ما يقال له الصدفية، وتعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربي حلب كما انتشرت صناعة الشقق الحريرية والقطنية وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع حيث اشتهرت بصناعاته دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس وكانت لباساً عاماً للأهلين نساءً ورجالاً فقراء وأغنياء، كما أتقنت طرابلس وبيروت وحلب ودمشق صناعة الشال القطني والحرير والزنانير والشملات كما انتشرت صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تتسج من الصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور^(١).

لقد تفاخر سياح الإفرنج باقتناء الملابس الشرقية بعامة والشامية بخاصة كالشال والأعبئة وغيرها من الملابس التي كانت غاية في الروعة والجمال والمتانة والمشبعة بسلامة الذوق بوشياها وألوانها وما أدهش الأجانب صناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب التي كانت راقية جداً في دمشق منذ قرون بعيدة حيث وصفها أحد سياح القرن الحادي عشر الهجري بقوله: وبباب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبين، وهي أماكن يمدّ فيها خيوط الذهب غلاظاً أولاً ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق وكل ثان أضيق من قبله حتى تنتهي إلى الرقة إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطرق لطيفة وصناعة محكمة ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة وسمى هذه الصناعة البديري صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجروح والمرفوع والممدود والمرصوع، وكان القوم يغالون في لبس الأردية والأكسية والمعاطف والسراويل التي تعمل من هذا القصب على الجوخ ويلبسه المترفون وأرباب النعيم وبقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول والرؤساء الروحيين^(٢).

(١) كرد علي، مرجع سابق، ص ٢٠٠-٢٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

ومن ضمن صناعة الغزل والنسيج هناك طائفة القاوقجية وهم حرفيو صناعة القاوق نسبة إلى قاووق من التركية (Kayouk) وهي قلنسوة كبيرة من جوخ مطبن بقطن وتير كان يلبسها الشرقيون القدماء كذلك طائفة الطاووقجية ومفرده طاوقجي (التركية) وهم صانعوا أو بائعوا قلنسوة الرأس الضيق المصنوعة من الكتان^(١). وقد راجت صناعة نسج أقمشة الخيام من وبر الماعز التي كان البدو الرحل يستعملونها كبيوت لهم كما اشتهرت برجا بصناعة الأنسجة القطنية والنبطية بغزل خيوط القطن.

طائفة الحدادين:

انتشر الحدادون في جميع مناطق ولايات بلاد الشام وخصوصاً في مدنها حيث أمنوا الكثير من المعدات اللازمة للحياة العملية اليومية تضمنت المهنة فروعاً كثيرة وظهر اختصاصيون في تحضير أدوات الحرف مثلاً من هم متخصصون بإنتاج أدوات النجارة بالإضافة إلى أدوات الزراعة، وهناك صانعوا أدوات التخصص الضيق أي صانعوا الأقفال والإبر والمغزل والمكوك ونول الحياكة ومركب النول. كذلك الرزازون وهم صانعوا الرزات الحديدية، أما الحداد القروي الموجود في كل قرية فيصنع الحدوات وأدوات الحراثة والزراعة للفلاحين من سكك للمحراث ومناجل ومعاول والسكك الحديدية على نوعين السكك الكبيرة حوالي الذراع أي أطول من نصف متر بقليل وأخرى طولها شبر واحد أي حوالي ٢٢,٥ سنتمتراً.

صنع الحدادون أيضاً المجارف المعدنية بالإضافة إلى الرفش، المنكوش، المكواة الحديدية، المسامير، الأقفال، سياخ حديدية، جنازير، حدوات توضع في أرجل الأحصنة، مناقل الحديد أبواب الحديد للقلاع والحصون كذلك الهاون وهو إناء من معدن صلب يدق

(١) نهدي الحمصي، مرجع سابق، ص ١٣٥.

فيه الدواء وبعض الحبوب بالإضافة إلى الأسلحة من خناجر وسيوف^(١)، وقد اشتهرت معظم مدن الشام ومنذ عرف التاريخ بصناعة القيانة أو القردحة أي صناعة عمل السلاح، حيث يكثر الحديد في الجبال ولا سيما في لبنان وحلب، أما صايغ السلاح فيسمى القين، وقد حققت سيوف دمشق شهرة واسعة حيث عرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وإرهاف حدها ولطف فرندها، كما كتب عليها الآيات القرآنية بماء الذهب، وكذلك الخناجر والرماح، كما صنع الحدادون النبال والدروع والخوذ والصنارات والأسياخ والقيود والمباضع والأواني، أما أدواتهم فهي السندان والمطرقة عموماً، ومن صناعاتهم أيضاً السرج والمصابيح والمواقد والشمعانات والمباخر والدلات وهي أوعية للقهوة، والطسوت والمغارف والملاعق والقذور والمناشير والحقاق والمناجل والمطارق والسكاكين والفؤوس والقدم (جمع قدوم) إضافة إلى البراميل^(٢).

طائفة النحاسين والمبيضين:

عمدت طائفة النحاسين على تأمين جميع الأدوات النحاسية التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية إضافة إلى أدوات خاصة ببعض الحرف، فقد صنعوا الصواني الأناكر، وهو صحن مصنوع من النحاس الجنطاس وهو نوع من الوعاء النحاسي السياخ الصاخ، صدور، الدع وهو وعاء نحاسي تخزن فيه الحبوب والسطول والطاسات الأطباق، الطواية، وهو وعاء كبير يطبخ فيه الطعام غالباً على الحطب كما صنعوا دسوتة خاصة للمعاجن^(٣).

(١) جودت باشا، مصدر سابق، ج٦، ص ١٤٥.

(٢) سجل دمشق، رقم ٢٤، ص ١٥٩، ٢٢ ذي الحجة ١١٠٣هـ، ٤ أيلول ١٦٩٢.

(٣) سجل دمشق، رقم ١٥، تشرين ثاني ٢٤ محرم ١٠٣٩هـ، ٩ أيلول ١٦٩٢.

وتمدنا سجلات المحكمة الشرعية في دمشق بكثير من أسماء الأواني النحاسية الموجودة في تركات الأشخاص ومثال على ذلك ما جاء في أحد السجلات:

حلة كبيرة من النحاس نحو مائة رطل وحلة أخرى صغيرة نحو خمسة عشر رطلاً من النحاس وحلة نحو عشرة أرطال وأربع طشوات وميزان من النحاس^(١). وفي وثيقة أخرى ثمانية قطع من أواني النحاس ما بين صحون وتناجر وأغطيتها، وفي وثيقة ثالثة وتركت عنده طبقين من النحاس معدة لحلاله الحرير وطبق للغسيل ودست وطنجرة ولحوف وسفرتين نحاس^(٢).

استخدم النحاسون في عملهم تقنيات وأدوات متواضعة كالسنبك الحديدي الصغير والمطرقة والمسند الحديدي، وقد عرف شيخهم بالباقرجي باشي أي رئيس النحاسين، وتعدّ صناعة النحاس من الصناعات القديمة في بلاد الشام وجميع ما صنع قديماً واستعمل في البيوت أو الحوانيت هو من صنعها وآجله ما صنعه النحاسون في دمشق وريفها.

وقد أدى انتشار الأواني النحاسية إلى ظهور طائفة المبيضين الذين عملوا على تبييض هذه الأواني، أما عملهم فكان إما ثابتاً ومكانه الحارات، أو منتقلاً بمعنى أنه كان ينقل إلى الأماكن السكنية حيث يشعل النار وتحمي الأواني النحاسية ويضع عليها مواد كيماوية، وبعد حفها تصبح بيضاء خالية من الصدأ، وقد اشتهرت الحرفتان في مختلف ولايات بلاد الشام وقد وجدت في حماة^(٣) كما في دمشق وحلب وصيدا وطرابلس.

(١) سجل دمشق، رقم ٣٨٨، ص ٢٢٥، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤/١٩ أيار ١٨٤٨.

(٢) سجل دمشق، رق ٣٨٨، ص ٣٣٨، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤، ١٩ أيار ١٨٤٨.

(٣) كرد علي، مرجع سابق، ص ٢١٦.

طوائف الصباغة والدباغة وصناعة الجلود:

يمكننا القول إن الصباغة هي من الصناعات القديمة في بلادنا وما من أحد يجهل شهرة الأرجوان الذي كان يصبغ به الحرير في الشواطئ الفينيقية، كما اشتهر بعده الصبغ الدمشقي في سائر الأقطار لثبات ألوانه ولطافة لمعانه^(١).

اعتمدت الصباغة على نوع من النبات اسمه الجرانس التي كانت تستخرج منه أصباغ أرجوانية اللون^(٢). كما استعملت دودة القرمز أو حشرة المغافير وهي نوع من الحشرات تعطي صبغة حمراء إضافة إلى عشبة النيلة التي تستعمل أيضاً في صباغة الأقمشة كما اعتمدوا في صباغ أقمشتهم على تلك المادة المستخرجة من ثمار جوزة الفحص وهي من فصيلة السنديان^(٣) ومن الحشرات التي استعملوها في صباغتهم هناك البقم أيضاً^(٤).

انتشرت المباني والمنشآت المستخدمة لصباغ الأقمشة في مختلف ولايات بلاد الشام فقد وجدت المصانع في حلب ودمشق^(٥)، من ناحية أخرى كان يوجد في حماة حوالي أربع عشرة مصبغة وذلك لصباغة الأقمشة^(٦)، كذلك انتشرت حرفة الصباغة في صيدا وبيروت كما اشتهرت طرابلس بجودة صباغتها^(٧).

وما يجدر ذكره هنا أنه بين صناعة النسيج والصباغة ارتبطت بعض المهن مثل مهنة المسدي الذي يعدّ لفافات الخيوط للصباغ وفقاً لقياس نول النسيج ومهنة لوزايبكي

(١) حقي: مرجع سابق، ص ٤٤٤.

(٢) إسماعيل، مرجع سابق، ص ٦٨-٧٥.

(٣) أميرة، مرجع سابق، ص ٩٥-٩٧.

(٤) شرمند: دور طرابلس الاقتصادي، بيروت ١٩٨٤، ص ٥٣.

(٥) جودت، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٥٥.

(٦) حقي، مرجع سابق، ص ٢٠٦. تفيد الوثائق أن دمشق تفننت أكثر في أعمال الصباغة.

(٧) الحمصي، مرجع سابق، ص ١٤٣.

الذي يشبه دومنيك شوفالييه بالرباط أي الحرفي الذي يعدّ الخيوط بطريقة خاصة للصباغ ثم ينشرها لتجف.

وكان للدباغة شأن مهم في هذه البقعة، إذ انتشرت هذه الصناعة واستحضر الجلود في أماكن عديدة من ولايات بلاد الشام ولدباغة الجلود كانوا يستعملون الكثير من المواد أهمها الخرنوب وقشر الرمان، كذلك جوزة العفص التي استعملت في الصباغة والدباغة معاً أما المدايع فقد انتشرت في حماة والمناطق التابعة لها^(١).

كما انتشرت في دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وصيدا وصور ونابلس وهنا لا بد أن نشير إلى أن طائفة اليهود قد تخصصت في صناعتي الصباغة والدباغة. أما استحضر الجلود فكانت من الحرف المنتشرة في مختلف المناطق الشامية، وقد استخدموا وبر الجمل وشعر الماعز لصناعة البسط بالإضافة على جلود الثعالب إلى جلود النمر والغزال وقد اشتهرت شحيم بإقليم الخروب في حياكة شعر الماعز وحماة في صناعة الجلود.

طوائف وصناعات أخرى :

إضافة إلى هذه الطوائف المذكورة هناك طائفة الصياغين التي أجادت في صياغة الذهب والفضة وتفننت في تصويرها ووضع الأحجار الكريمة عليها، وتعدّ الصياغة من الصناعة اليدوية الدقيقة جداً، وقد امتاز أفراد هذه الحرفة بالذكاء والمهارة والذوق حيث أجادوا في صناعة الحلق والأساور والسلاسل والخواتم واليغامق، بالإضافة إلى الأفرطة والدمالح وكافة أنواع الحلي. ومن أشهر المجوهرات هي تلك التي تصنع في دمشق، ولقد اختص المسيحيون واليهود في هذه الحرفة وكان شيخ الحرفة شيخاً مسيحياً يقع سوق الذهب فيها بجانب باب الجابية.

ومن الصناعات التي كانت تجود في بلاد الشام هي صناعة الخزفيات إذ تعدّ من الصناعات القديمة لأنها نمت منذ القرن الثاني للميلاد وازدهرت في القرن السابع عشر،

(١) سجل ١٢٥ وثيقة ٢٥٣ ص ٢١١.

وقد أبدع الخزافون في صنع الأباريق الفخارية التي تمتاز بتبريد المياه لأنها كثيرة المسام ينفذ منها الهواء، وهناك نوع آخر من الأباريق الخزفية ذات البطون المسطحة تشبه المخرزات التي يصحبها المسافرون معهم وهي مزدانة بأطر ملونة ولكل منها عروتان يمكن معهما حملها بكل سهولة كما تحمل البطات، واشتهر في هذه الصناعة خزافو بيروت وراشيا، كما اشتهرت مدن يافا وصور وبيروت ودمشق، بحسن شغل أهلها للفخار المطلي، لكن خزفيات دمشق المنقوشة والملونة كانت تفوق سواها بلطفها وألوانها الزاهية ونقوشها.

مهن مختلفة:

ومن المهن، هناك مهنة تقليم الأشجار ومهنة تطعيم الأشجار، وهناك مقدمو القهوة في الحمامات والخانات، والحجاب، والحنوتيون، والكناسون، ومضيئو المصابيح، وحاملو الماء، ومركبو مواسير المياه، والمشرفون على نظام الأقنية والأنابيب، وجامعو النفايات، وحراس الأسواق والشوارع ونواظير الحدايق والبساتين، والغسالون، والطباخون، ورتاؤو الجوارب والكواؤون. وهناك أيضاً مهن مرتبطة بتحضير مواد البناء: كقطع الحجارة ونقلها صناعة الآجر، صناعة أنابيب الآجر، صناعة الكلس، بالإضافة إلى صناعة البرادع والسروج (عدة الدواب) ومنفاخ الحدادة، كذلك بناء السفن، تحضير نترات البوتاسيوم أحجار الطواحين، قطع الخشب، نشر الخشب، إصلاح حجارة الطواحين، جمع الحطب، تنظيف مجاري المياه، حباك الحصر والسلال والأطباق والأكاليل، صناعة المخللات والزبيب، جمع مواد الخام للحرف كغراء الخشب والقشر، حياكة السجاد. وكانت الأعمال المشينة كالسرقة والزنى والتسول تعدّ من الحرف أيضاً. هناك ضاربات الوشم، المشاركات في الأعراض، الندابات، منظمو مراسم الصلاة، المسحراتية في رمضان، السحرة، الضاربون بالرمل، المشعوذون، الموسيقيون، العازفون على آلة واحدة، المغنون

ورواة القصص المتخصصة بأحد الفنون الشعبية، حواة الأفاعي، مروضو الحيوانات، أصحاب مسارح الظل (الكركوزاتي)، المصارعون والحواتية. وفي دمشق كانت عدد الحرف التي تقدم خدماتها للقافلة لا تقل عن خمس عشرة حرفة، مثل إعداد الهودج، صناعة القرب والشم والصناديق والرماح وساسة الجمال، والطباخين والخدم وغيرهم.

أما في مجال النقل، فهناك التراس (ناقل الحبوب من مكان إنتاجه إلى بائع الحبوب بالجملة)، السواق (ناقل الطحين من المطاحن إلى الأفران)، العناب أو الرجاد (ناقل العنب إلى الأسواق والسنايل من الحقول إلى البيادر)، العرجي، الكميونجي، الطنبرجي، الجمال، العكام (سائق جمال الحج)، الشيال (صاحب الجمال المقدمة للحجاج)، المستأجر (وهو من يستأجر دواب العمل، لاستخدامها في الزراعة أو النقل في المدينة)، المكارى (صاحب الخيل أو البغال أو من يسوقها).

هناك أيضاً البرادون، الخراطون، صانعو الأقفال، بالإضافة على المجارفي (الذي يحضر محلولاً لطلي السطوح)، الطيان (رئيس جماعة المورقين الذين يغطون سطح المنزل وجدارنه بالطين، لمنع نش المياه إلى الداخل، الدقاق (باني جدران المنازل الطينية)، العقاد (تاجر الأشرطة ويعمل معه صانع يحيك له الأشرطة)، الأتوني (صاحب أتون الكلس الذي يعمل في تجارة الكلس وغيرها من مواد البناء). أخيراً هناك المجبر، والخطاطون اللغويون، وجالبو البقر، واللحامون، والسمانون، والقزازون أو صانعو الزجاج، والطاوقجية أو بائعو الدجاج، والوتارون والمنجدون^(١).

ب- الزراعة :

ساد نمط المعيشة الريفي الزراعي في بلاد الشام لزمن طويل، وارتبطت حياة أهل الريف بالأرض، حيث عدّت الزراعة نواة القرية بكل ما تعني اقتصادياً وحضارياً. وتعدّ

(١) جودت باشا، مصدر سابق، ج٦، ص ٢٠٠.

سورية ولبنان وفلسطين من المناطق الزراعية العالمية، التي وصفها فافيلوف بقوله إنه فيها ولدت وتكونت وتتكون زراعة عظيمة^(١). وعلى الرغم من ضيق رقعة الأراضي الزراعية بعامة، فإن الزراعة عرفت منذ أقدم الأزمنة، ولكنها نشطت وازدهرت بخاصة، بدءاً من القرن السادس عشر، وخصوصاً في عهد الإمارة المعنية. لكن العمل الزراعي اقتصر عموماً، على سكان الجبل، أما سكان الساحل، فقد انصرفوا إلى التجارة، مع الإشارة إلى وجود مقومات زراعية مهمة في المدينة، منها مرور الأنهر الكبيرة والمتوسطة في وسطها، والتي تساعد على الري وعلى استصلاح الأراضي الزراعية.

لقد اتخذ الفلاح طابعه الخاص، من علاقته بالأرض الزراعية، ويعدّ القروي، حتى أعماق لا وعيه، أن الكرامة في الأرض. إنها مورد رزقه ومصدر طموحاته وآماله ومكانته ومحور علاقته. من هنا، يخاف الفلاح من فقدان أرضه ربما أكثر من فقدان حياته. ولقد أدّت الزراعة دوراً مهماً في حياة ولايات بلاد الشام الاقتصادية، حيث أمنت احتياجات السوق المحلية، كما جذبت المنتجات المحلية، البلدان المجاورة كما الأوروبية وذلك لنوعيتها الجيدة، العائدة لتنوع المناخ ونوعية التربة وغيرها من براعة الفلاح والسماء والمياه... وقد أخذت الزراعة بالانتساع شيئاً فشيئاً، ممتدة إلى السهول، وذلك منتفعة من أشغال الري وكثرة الأنهار، التي أدت بها إلى المدن والساحل بعامة، مع بقاء مركز النقل القرية والريف والسهول.

في هذا الباب من بحثنا، لا يمكننا إلاّ الامام بكل جوانب المسألة الزراعية، وتحديد حجم وكمية الإنتاج، ونسبة كل نوع من أنواعه، ومساحات زراعته. فدراسة هكذا موضوع، تحتاج إلى كميات كبيرة من الوثائق والمراجع، وهي غير متوافرة، ولذلك سنقوم باستعراض تاريخي لمزروعات دمشق ولكن من خلال دراسة تاريخ بلاد الشام، فدمشق ليست مدينة زراعية، صحيح فيها مزروعات لكنها محدودة.

(١) حقي، عثمانلي تاريخي، مصدر سابق، ج٥، ص ٣١٧.

٥ - المزروعات: أنواعها وأماكن زراعتها:

انتشرت المزروعات في مختلف ولايات بلاد الشام، حيث كثرت البساتين والسهول المزروعة. فدمشق وحدها، كانت محاطة بحوالي أربعة عشر ألف بستان، كما أن السهل الممتد بين حلب وإدلب، يعدّ من أكبر مناطق الزراعة البعلية، بالإضافة إلى السهول المحيطة بمدينتي حمص وحماة، وسهل حوران الذي وصفه بارسكي وقال إنه كثير الأشجار، ترابه أحمر نقي، خالٍ من الحجارة، تنبت فيه كل المزروعات لا سيما القمح والشعير، وبذوره كبيرة الحجم وليس لها مثيل في جميع الأراضي العثمانية^(١). هذا إضافة إلى الغوطات المحيطة بدمشق وحمص وحماة وحلب. كما يعدّ سهل عكار، من السهول الغنية بجميع أنواع المزروعات، أما سهل البقاع فهو من المناطق الزراعية الأكثر خصباً في بلاد الشام حيث أطلق عليها سترابون لقب الوادي الملكي، إشارة إلى خصوبة تربته ووفرة إنتاجه^(٢).

وتقسم المزروعات إلى عدة فئات : هناك الحبوب، الأشجار المثمرة، زراعة الخضار والزراعات الصناعية.

أ - زراعة الحبوب :

تعدّ الحبوب من المزروعات المهمة في منطقة بلاد الشام، حيث يتعرض إنتاجها للتأرجح بسبب اختلاف كمية الأمطار المتساقطة. وأهم هذه الحبوب: القمح والشعير والذرة بالإضافة إلى الفاصولياء، الفول، الحمص، البازيلاء، العدس، الترمس، الأرز.

(١) بارسكي، مذكرات الرحالة فاسيلي غريغورييفتش بارسكي، الراهب الأنطاكي الذي زار الأماكن المقدسة في أوروبا وآسيا وأفريقيا خلال سنة ١٧٢٣-١٧٤٧، سان بطرسبورغ، ١٧٧٨، ص ٤٠٠.

(٢) جبر: مرجع سابق، ص ٢٧٧.

- الشعير:

يزرع الشعير في منتصف كانون الأول وينضج بين نيسان ونهاية أيار، وهو يتطلب تربة كثيرة النعومة. ويعدّ الشعير من المزروعات المهمة في بلاد الشام، إذ تكثر حاجة الشرق إليه لأنه أساس علف الحيوانات، كما أنه يستخدم في كثير من الأماكن في صناعة الخبز. ومن المعروف أن للشعير دوراً غذائياً مهماً، وخصوصاً في المجتمعات الريفية المحدودة الدخل، كالتى في بلاد الشام، وهو يُسهم بقسط وافر من الطاقة الغذائية في مثل هذه المجتمعات، إلا أن النسبة العظمى لاستهلاك الشعير تتمثل في صناعة الأعلاف.

- الذرة :

إضافة إلى زراعة القمح والشعير، هناك الذرة التي تأتي في المرتبة الثالثة بين الحبوب الغذائية التي يستهلكها الإنسان. تحتاج الذرة إلى وفرة في المياه والحرارة، وتلائم زراعتها الاستوائية في المناطق الرملية والسفوح الجبلية. وتزرع الذرة الصفراء في أنحاء بلاد الشام خصوصاً في المناطق التي تروى، أما الذرة البيضاء فتزرع في أنحاء فلسطين^(١). تؤكل الذرة مشوية أو مسلوقة قبل تمام نضجها، وتارة يمزجونها مع طحين القمح. تستعمل أيضاً لعلف المواشي وتزرع في البقاع كما تزرع أيضاً في الزاوية والضنية^(٢). وعلى الرغم من وفرة إنتاجها من الذرة لا تدخل في التجارة إلا بنسبة صغيرة وذلك لأسباب كثيرة أهمها: أن وزنها خفيف فهي تأخذ حجماً كبيراً في النقل، كما أن إنتاجها في كثير من المناطق مخصص لغذاء الحيوانات، يمكن تأمينه بنفقات أقل مما يصرف على الذرة .

(١) كرد علي، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٢) أسطفان الدويهي، تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤٧٤.

- الأرز :

أما الأرز فهو من النباتات الاستوائية، حيث يجمع علماء الزراعة على القول بأن أساس الأرز نبات وجد في آسيا الجنوبية منذ حوالي ألفي سنة، وانتقل إلى منطقة البحر المتوسط مع الفرس، ولم تنتشر زراعته بالفعل إلا بعد الفتوحات الإسلامية. ليست هناك شروط خاصة لزراعته ولا يحتاج إلى نوعية تربة خاصة سوى أن تكون غير ماصة، إنما يحتاج إلى حرارة ومياه، مما يجعل زراعته تتجح في السهول الساحلية وعلى ضفاف الأنهار الجارية. أما المناطق الجبلية، حيث تنخفض الحرارة وتقل المياه فهو محدود الإنتاج، وهو يحتاج أو يتطلب يداً عاملة وفيرة. ولعل هذه الشروط، هي التي تتسبب في عدم انتشار زراعته، وفي الفقر والجوع للمناطق التي تعتاش من زراعته فقط. وقد عرف في منطقة بلاد الشام منذ زمن بعيد حيث انتشرت زراعته في معظم السهول وخاصة في سهل الحولة^(١).

- الحمص والفل:

يعدّ الحمص والفل من البقوليات الأساسية، حيث يعتمد الكثير من السكان وخصوصاً الفقراء وذوي الدخل المحدود، على الفول مثلاً كوجبة رئيسة مهمة. ومن المعروف لدى علماء الزراعة، أن محصول الفول له أهمية زراعية، حيث يعمل على تحسين خصوبة التربة، بما يبثه من آزوت جوي عن طريق العقد البكتيرية^(٢). وقد كانت تحيط بحمص أراضٍ خصبة صالحة لزراعة الحبوب على أنواعها، من هنا، فقد زرع الحمص في الغوطات المحيطة بحمص وحماة وحلب، وبالإضافة إلى البساتين المجاورة لدمشق^(٣). كما انتشرت زراعة الفول والحمص في مختلف السهول الشامية وبخاصة في

(١) Abdel-Nour, Antoine, Op cit, pp: 219.

(٢) إيلي صادق، الأمن الغذائي، بحث في مجلة العربي، عدد ٣٢١، أغسطس ١٩٨٥، ص ١٥٦.

(٣) حقي، مرجع سابق، ج ٥، ص ٤٠٠.

حوران والبقاع^(١). كما عمد الأمير فخر الدين الثاني إلى زراعة الفول وسائر الحبوب في إمارته^(٢).

وما يمكن قوله إن مدينة دمشق كانت عنبراً لحوران وما تنتجه من بقوليات وغيره من المنتجات الزراعية الأخرى، ولهذا فإن القرى المحيطة بدمشق ضمنت لها مختلف أنواع المزروعات التي تقوم عليها القوى الاجتماعية.

بقي علينا قراءة دمشق من خلال الجداول التي قد تعطينا صورة عن واقع المبيعات والمشتريات المتنوعة وحسب ما ذكرته الوثائق.

ج - الواقع الاقتصادي لدمشق من خلال جداول البيع والشراء:

لقد قمنا بإعداد جداول بيع وشراء معتمدين فيها على الوثائق، وعلى الرغم من الوثائق كانت تقدم إلينا معلومات مبهمة، إلا أنها أقرب إلى الواقع، لأنها دونت لزمانها وليس لزماننا، ولهذا فقد تقرأ فيها البراءة وصدق المعلومة، تطلعاً لاستخلاص الأوضاع أو الحياة الاجتماعية لمدينة دمشق خلال فترة البحث .

(١) Abdel-Nour, Antoine, Op cit, pp: 219.

(٢) ف. فوستنفلد، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

حسبت النسب في جداول المشترين والبائعين للفترة الأولى ١٠٨٦-١٠٩١هـ
١٦٧٥/ - ١٦٨٠م، كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات = ٣٨، عدد القرارات = $\frac{1}{2}$ ، ٦٥٩، مجموع
التمن = ١٠٨).

٢ - العقارات التجارية: (عدد العقارات = ٤٠، عدد القرارات = $\frac{1}{2}$ ، ٨٢، مجموع التمن
/١٠٨/).

٣ - العقارات التجارية: (عدد العقارات = ١٠، عدد القرارات = /٢٣٤/، مجموع التمن
/٤٠٠/).

٤ - أمور أخرى: (عدد العقارات = /٣٨/، عدد القرارات = $\frac{2}{9}$ ، ٨٥٥)، مجموع التمن
/٢٢٧٥/). وكان عدد المشترين /٥٦/، وعدد البائعين /٨٤/.

وحسبت نسب البائعين والمشترين بناء على أعدادهم في الرقمين السابقين، وذلك في
العقارات السكنية والزراعية والتجارية وفي الأمور الأخرى. وقد فرزت القرى في هذه
الفترة في مجموعة مستقلة وحسبت النسب فيها كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات (٦)، عدد القرارات (١٢٠) مجموع التمن
((١٠١)).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /١٦/، عدد القرارات ١٥١، مجموع التمن
/٣٠٠/). ولم أعثر على عقارات تجارية في هذه الفترة الأولى من عمليات البيع
والشراء. وكان عدد المشترين في هذه القرى /١٦/ وعدد البائعين /١٥/.

٣ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات /٢/، عدد القرارات /٣٠/، مجموع التمن /١١,٥/).

أما جداول الفئات المشترية والبائعة في الفترة الثانية من البحث ١١٠٧-١١١٢هـ/
١٦٩٥ - ١٧٠٠م، فقد حسبت نسبها كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات /٢٨/، عدد القرارات /٦١٤/، مجموع الثمن /٧٩١٢/).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد القرارات /٢٤/، مجموع الثمن /١٠/، عدد العقارات /١/).

٣ - العقارات التجارية: (عدد العقارات /٣/، عدد القرارات /٧٢/، مجموع الثمن /١٢٥/).

٤ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات /٧٤٧/، عدد القرارات /١٧٨٦٧/، مجموع الثمن /٢٣٥٥/).

أما فيما يتعلق بالقرى في هذه الفترة الثانية من عمليات البيع والشراء فقد جمعت كذلك في مجموعة مستقلة وحسبت فيها النسب أيضاً بالاستناد إلى المجموع العام للعقارات السكنية والزراعية والأمور الأخرى، وهو السياق نفسه الذي اتبعناه سابقاً.

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات /٥/، عدد القرارات /١٤٠/، مجموع الثمن /٣٦٦٦/).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /٦/، عدد القرارات /١٢٠/، مجموع الثمن /٤٢١٠/).

٣ - العقارات التجارية: (لا يوجد).

٤ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات /٩٩/، عدد القرارات /٧٠٢/، مجموع الثمن /٥٨٨٠/).

وكان عدد المشترين في هذه الفترة الثانية في دمشق /٦١/ وعدد البائعين /١٢٩/، أما في مجموعة القرى بالفترة نفسها فقد بلغ عدد المشترين /٨/ وعدد البائعين /١٢٩/، أما في مجموعة القرى بالفترة نفسها فقد بلغ عدد المشترين /٨/ وعدد البائعين /١٣/، وقد قمت بعمل جداول أخرى، ظهرت من خلالها الفئات المستأجرة والمؤجرة للعقارات السكنية، والزراعية، والتجارية، والأمور الأخرى، وذلك في الفترة الأولى للبحث وكذلك في الفترة الثانية. وقد تمّ حساب النسب فيها كما يأتي: في الفترة الأولى ١٠٨٦ -

١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م حسب النسب بالاستناد إلى المجموع العام للعقارات السكنية والزراعية والتجارية والأمور الأخرى في دمشق:

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات /١٤/، عدد القرايط /٣٠/، ومجموع الأجرة /٢٠٠/).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /١١/ عدد القرايط /٣٠٠/، مجموع الأجرة /١٢٧/).

٣ - العقارات التجارية: (عدد العقارات /٢٥/، عدد القرايط /٦٧٦/، مجموع الأجرة /٨٠٩/).

٤ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات /٦/، عدد القرايط /١٦٨/، مجموع الأجرة /٢٢٣/).

هذا وبلغ عدد السنوات المفردة /٦٦/، كما بلغ عدد العقود ذات السنتين /١٠/، أما عدد العقود ذات ثلاث السنوات فقد بلغ /١٦/، وبلغ عدد العقود ذات خمس السنوات /٣/. أما فيما يتعلق بالقرى التي جمعت في هذه الفترة الأولى ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م فقد تم حساب النسب كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (لا يوجد).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /١٤/، عدد القرايط /١٥٤/، مجموع الأجرة /٣١٦/).

٣ - العقارات التجارية: (لا يوجد).

٤ - الأمور الأخرى: (لا يوجد).

وبلغ عدد السنوات المفردة في هذه القرى /١١/، وعدد العقود التي تحوي سنتين /٥/، ولم تكن هنا عقود ذات ثلاث السنوات. كما بلغ عدد المستأجرين في دمشق في هذه الفترة /٤/ وعد المؤجرين /٥٧/، وفي مجموعة القرى لهذه الفترة الأولى من البحث: ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م فقد بلغ عدد المستأجرين /٧/، وعدد المؤجرين /٢٢/.

أما في جداول الفترة الثانية لعمليات الاستئجار: ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م فقد تم كذلك حساب النسب بالاستناد إلى مجاميع العقارات السكنية والزراعية والتجارية في مدينة دمشق كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (عدد العقارات /١١/، عدد القرارات /٢٦٤/، مجموع الأجرة /١٤٣/).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /٢٠/، عدد القرارات /٢٧٤/، مجموع الأجرة /٤٦٧/).

٣ - العقارات التجارية: (عدد العقارات /٤/، مجموع القرارات /٩٦/، مجموع الأجرة /٧٣٨/).

٤ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات /٥/، عدد القرارات /٩٦/، مجموع الأجرة /٣/ قروش).

أريد أن أشير هنا أيضاً إلى أن الأجرة كانت دائماً بالغروش أو القروش الفضية الأسدية، وذكرت الوثائق أحياناً الغروش العددية أو الغروش الفضية الكبيرة، كما ذكرت قطع مصرية، وسوف نتحدث عن ذلك لاحقاً. وقد كان عدد المستأجرين في هذه الفترة الثانية من البحث /٥٨/ والمؤجرين /٣٧/. كما كان عدد السنوات المفردة /٧٤/، وعدد العقود ذات ثلاث السنوات /٤٤/ عقداً ولم تكن هناك عقوداً أخرى. كان ذلك فيما يتعلق بالمستأجرين والمؤجرين للعقارات السكنية والزراعية والتجارية والأمور الأخرى في دمشق خلال الفترة الثانية ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م وقد جمعت قرى غوطة دمشق في مجموعة مستقلة حسب النسبة فيها استناداً إلى مجاميع العقارات السكنية والزراعية والتجارية والأخرى وذلك خلال الفترة المذكورة سابقاً وهي الفترة الثانية للبحث ١١٠٧هـ-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م:

١ - العقارات السكنية: (لا يوجد).

٢ - العقارات الزراعية: (عدد العقارات /٣٣/، عدد القرارات /٥٩٨/، مجموع الأجرة /٣٣٧/).

٣ - العقارات التجارية: (عدد العقارات ١١/، عدد القرارات ٢٤/، مجموع الأجرة ٣١٢/).

٤ - الأمور الأخرى: (عدد العقارات ٣/، عدد القرارات ٢١/، مجموع الأجرة ١٨/).

وفي الفترة الثانية، كان عدد المستأجرين في قرى الغوطة ٢٤/ أربعة وعشرون مستأجراً، وعدد المؤجرين ٢٦/.

وفي الفترة الأولى من البحث ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م، بلغ عدد السنوات المفردة في أثناء عمليات الاستئجار في مدينة دمشق، وكذلك عدد العقود ذات السنتين والعقود ذات ثلاث السنوات أو أكثر في العقارات السكنية، والزراعية، والتجارية.. والأمور الأخرى كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (السنوات المفردة ٢٢/، العقود ذات السنتين، لا يوجد، العقود ذات ثلاث السنوات ١١/ عقداً، العقود ذات خمس السنوات ٣/ عقود يتيمة).

٢ - العقارات الزراعية: (السنوات المفردة ١٩/ سنة، عدد العقود ذات السنتين ١٠/، عدد العقود ذات ثلاث السنوات ٥/ ولا توجد عقود أخرى.

٣ - العقارات التجارية: (عدد السنوات المفردة ٢٤/، ولا توجد عقود.

٤ - الأمور الأخرى: (السنوات المفردة ١/ سنة واحدة. ولا توجد عقود، وقد حسبنا نسب السنوات والعقود في هذه الفترة الأولى استناداً إلى مجاميع العقارات التي رأيناها سابقاً.

أما فيما يتعلق بقرى غوطة دمشق في الفترة الأولى من البحث ١٠٨٦-١٠٩١هـ / ١٦٧٥-١٦٨٠م، فلم تكن هناك إلا إحدى عشرة سنة مفردة، وخمسة عقود ذات السنتين في العقارات الزراعية فقط. ولم أعثر على سنوات أو عقود في العقارات السكنية، والتجارية، وفي الأمور الأخرى. أما في الفترة الثانية من البحث في مدينة دمشق ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م فكانت السنوات والعقود في كافة العقارات كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (السنوات المفردة /٣٣/، عقود ذات السنتين لا يوجد، عقود ذات ثلاث السنوات (٩)، ولا توجد عقود أخرى .

٢ - العقارات الزراعية: (السنوات المفردة /٢٤/، العقود ذات السنتين لا يوجد، العقود ذات ثلاث السنوات /١٤/ ولا توجد عقود أخرى .

٣ - العقارات التجارية: (السنوات المفردة /٦/، ولا توجد عقود هنا).

٤ - الأمور الأخرى: (السنوات المفردة /١١/، عقود ذات سنتين لا يوجد، عقود ذات ثلاث السنوات /٢١/ واحد وعشرون عقداً).

هذا وبلغ عدد السنوات والعقود في العقارات السكنية، والزراعية، والتجارية والأمور الأخرى في قرى غوطة دمشق في الفترة الثانية من البحث ١١٠٧-١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م كما يأتي:

١ - العقارات السكنية: (لا توجد عقود أو سنوات).

٢ - العقارات الزراعية: (السنوات المفردة /٥٣/، عقود ذات السنتين /١٢/، عقود ذات الثلاث سنوات /١٣/).

٣ - العقارات التجارية: (السنوات المفردة /١/ سنة واحدة، ولا توجد عقارات).

٤ - الأمور الأخرى: (لا توجد سنوات أو عقود).

إذا ألقينا نظرة إلى جداول البيع والشراء في الفترة الأولى من البحث ١٠٨٦-١٠٩١هـ/١٦٧٥-١٦٨٠م نجد أن الفئات الأساسية في التعامل في سوق العقارات بيعاً وشراءً هم العسكريون، وقد أطلقت هذه اللفظة على الفئات التي حملت صفة (بشه)^(١) أو آغا^(٢)، أما بشه فحاملوا هذا اللقب لم يكونوا مجرد جنود، بل كانوا عسكريين، شغلوا على

(١) بريجيت مارينو، حي الميدان بدمشق العصر العثماني، ترجمة ماهر الشريف، ص ١٧٨.

(٢) (آغا) هي لفظة تركية، أخذت معاني مختلفة واستخدمت في اللغة التركية بمعنى الأخ الأكبر عموماً، وأحياناً أطلقت على الأخ الأصغر، وفي اللغة العثمانية، كانت تلفظ كلمة آغا (آ) وحتى (أ)، وكانت تعني الرئيس أو السيد، وأحياناً مالك الأرض، كما أطلقت على رئيس خدم القصر السلطاني، وأكثر الأغوات رفعة وأهمية كانت آغا الإنكشارية. يوسف نعيصة، تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق، ص ١١ هـ (٤). محمد علي الأنسي باشكاتب، الدراري اللامعات في منتخبات =

مستوى الرتبة موقعاً أدنى من موقع الآغا، وتوحي ألقاب بعضهم بأنهم قد يكونون من الوجهاء، ومن الناحية اللغوية، يبدو أن هذا المصطلح قد نجم عن تحويل باش آغا إلى (بشه)، وقد شغل بعض هؤلاء العسكريين وظائف في إطار قافلة الحج الشامي التي تحدثنا عنها في فصل سابق.

ومن الصفات التي شملت بلقب «العسكري» الصوباشي^(١)، فقد وصفته الوثيقة، مفر الأكاير من أعيان اليايا باشية^(٢)، كما ورد في الفئات الاجتماعية البائعة والمشتريّة صفة بلوكباشي التي ذكرت في فصل الحياة الإدارية بدمشق سابقاً، وأطلق على صاحبها أيضاً لقب عسكري، ولفتت نظري ظاهرة تكررت في الوثائق مثلاً: اشترى بشه داراً من يهوديين بدمشق، ولكن ذكر أن هذا البشه ينكجري (رجل إنكشاري) بالباب العالي أي في

= للغا ص ٢٨. محمد التونجي، المعجم الذهبي، فارسي عربي، ص ٤١. محمود عامر، المعجم التركي - العربي، دار الصفدي، دمشق، ص ١٤.

(١) الصوباشي: كان مسؤولاً في الأساس عن الأمن، ثم أنيطت به مسؤوليات مالية، إذ استخدم صلاحياته العسكرية للإسراع في جمع الضرائب، ووجد أكثر من صوباشي في بعض القرى وأشارت إليهم المصادر بالشوابصة، وخصص للصوباشي ربع ضريبة خاصة به عُرفت بمال الصوباشية، أو عوايد الصوباشية، وقد جبيت وقت الغلال، وقام الصوباشي بتقديم الديون للفلاحين، والصوباشي من (صو) بالتركية وتعني جيش، و (باشي) وتعني رأس، وعرفت وظيفة الصوباشية في العهد العثماني ولم تكن معروفة في العهد المملوكي، وكان الصوباشي يُختار من الفرسان الإقطاعيين (الزعماء) ويعمل في الأقضية، وفي السلم يقوم بواجبات الشرطة ويساعد القاضي، وكان السباهيون يأترون بأوامر الصوباشي الذي يقودهم ويتلقى التعليمات من قائد فرق السباهية الذي يخضع في كل تصرفاته إلى الصنقق باي أو أمير الأمراء بوصفه الضابط العام المشرف على اللواء أو الصنقق والمعين مباشرة من الباي لارياي (أمير الأمراء) الحاكم العام للولاية. مجلة دراسات تاريخية السنة ١١/ العددان ٣٥-٣٦/ آذار-حزيران ١٩٩٠ من مقالة لرافق بعنوان: (الفئات الاجتماعية وملكية الأرض في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن ١٦/ ص ١٢٠.

(٢) اليايا باشية: رتبة ذات نفوذ كبير ولكنها كانت تلي رتبة الكتخدا في الجند الشامي (اليرليا) وأعلى من رتبة بلوك باشي مرتبة، وهي كلمة تركية تعني رئيس الجند المشاة. البديري الحلاق، حوادث دمشق، ص ١٩٥ هـ (٥).

الأستانة عاصمة الدولة، فما تفسير ذلك؟ هل هذا العسكري كان إنكشارياً في العاصمة وما زال، وفي أثناء زيارته لدمشق اشترى هذه الدار؟ أم أنه نُقلَ وظيفياً إلى دمشق، ولما يُنه عمله في إستانبول؟ ولا يمكننا الجزم بأي من الفكرتين المطروحتين، وقد أوردت الوثيقة اسم هذا البشه الذي يعمل كينكجري بالباب العالي^(١) مرة كمشتري للعقار^(٢)، ومرة أخرى كبائع^(٣)، وفي الفترة الأولى للبحث ١٠٨٦-١٩٠١ هـ/١٦٧٥-١٦٨٩ م ورد اسم الروزنامجي^(٤) بدمشق كمشتري لأحد العقارات، أما صفة أفندي^(٥) فكانت تطلق على الشخصية المتمتعة بالاحترام، فكان يذكر مثلاً: (القاضي أبو بكر أفندي الحنفي)، وبالنسبة للنساء البائعات والمشتريات فكانت هناك المرأة العادية (بدون لقب) والمرأة (القادن)^(٦) أو المرأة (خاتون)^(٧). إن صفة (فخر المخدرات) التي أوردتها الوثائق مرة كمشترية وأخرى كبائعة، إن هذه الصفة لا تقل عن خاتون أو قادن تعظيماً.

(١) الباب العالي: يعني الحكومة العثمانية، ما دام السلطان يدير الدولة منه. ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط٣، جامعة دمشق ١٩٩٢، ص ١١٧. الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، قسم ٢، ص ١٨٧ هـ. عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، ص ٣٧١.

(٢) السجل ٢ مشوش: وثيقة ٢٦٩، ص ١٤٣.

(٣) السجل ٢ مشوش: وثيقة ٣٥١، ص ١٨٥.

(٤) الروزنامجي: الروزنامة كلمة فارسية مركبة من كلمتين (روز) وتعني اليوم، ونامة أي كتاب أو وثيقة أو رسالة، فهي دفتر يومي أو صحيفة، وصاحب الروزنامة في الدولة العثمانية هو الذي يسجل الواردات والنفقات، أو هو الذي يسجل تنقلات الإقطاعات يوماً بيوم، والروزنامة هي أحد الأقسام الثلاثة التي تضمنها دائرة الدفترخانة. ليلى الصباغ، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، ط١، ١٩٩٥ م، ص ١٧٥. حوادث البديري، ص ٤٨.

(٥) أفندي، مولى، سيد، الدراري اللامعات، ص ٣٢.

(٦) قادن: لفظة عثمانية تعني السيدة، ست، امرأة. الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، ص ٣٩٦، محمود عامر: المعجم التركي العربي، ص ١٧٠، جب وبوين، المجتمع الإسلامي والعرب، ط١، ص ١٠٦.

(٧) خاتون، سيدة عريقة الأصل، سيدة جمعها خاتونات وهي تركية. محمد التونجي، المعجم الذهبي، فارسي - عربي، ١٩٩٣، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ص ٢٥٤. الدراري اللامعات، ص ٢٣٢.

وذكرت الوثائق البيك^(١)، مرة كشار^(٢) للعقارات وأخرى كوكيل^(٣) عن أحد الأغوات الزعماء بدمشق كمشتري. وفي أغلب الأحيان كان ينوب عن المرأة وكيل في المحكمة ولكنها في أحيان قليلة كانت تحضر شخصياً إلى المحكمة^(٤). وكان يمكن أن تذكر المهنة في المحكمة، فمثلاً كان هناك وكيل لمفتي بغداد وهو الشيخ - المؤذن بالجامع الأموي حيث اشترى بالوكالة عن موكله المفتي مملوكاً في دمشق^(٥)، وجاء في عداد الفئات الاجتماعية التي تعاملت بيعاً وشراءً بالعقارات السكنية والزراعية والتجارية المعلم^(٦). كما ذكر الشيوخ والحجاج والأشراف.

(١) البيك بمعنى كبير، أمير، رئيس، أمر، وأصل الكلمة تركي. محمد علي الأنسي باشكاتب، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، ص ١١٥. طوبيا العنيسي، تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، ص ١٥، محمد التونجي، المعجم الذهبي فارسي - عربي، ص ١٣٨.

(٢) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٦١٧، ص ٢٤٩.

(٣) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٤٧٥، ص ١٨٥.

(٤) السجل ١ مشوش: وثيقة ٨١٤، ص ٣٣٥.

(٥) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٤٤٣، ص ١٧٠.

(٦) معلم: تعادل كلمة أوسطة المحرفة عن أستاذ الفارسية الأصل. عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، ١٩٨٥، ص ٤١.

القرى بالغوطة في الفترة الأولى من البحث

١٠٨٦ - ١٠٩١ هـ / ١٦٧٥ - ١٨٠٠ م

كان عدد الشيوخ أربعة شيوخ، منهم مشترين اثنان للعقارات وبائعان اثنان ، أما الرجال العاديون فكان عددهم /١٥/ منهم /٧/ مشترين و /٨/ بائعين، أما النساء العاديات فكنّ أربع، مشتريتان اثنتان لعقارين مختلفين، وبائعتان اثنتان لعقار واحد، وبلغ عدد الأشراف أربعة رجال، مشتريين اثنين وبائعين اثنين. وقد حسبت النسب بالنسبة لكل فئة اجتماعية استناداً للعدد الإجمالي للبائعين والمشتريين، وبلغ عدد العقارات السكنية /٦/ وعدد القرارات /١٥١/ ومجموع الثمن /٣٠٠/. ولم نعر على عقارات تجارية، أما في الأمور الأخرى فكان هناك عقاران اثنان، وثلاثون قيراطاً، وبلغ مجموع الثمن /١١,٥/ غرشاً. وحسبت هنا بناء على هذه المجاميع. وبلغ عدد القرى التي ذكرتها الوثائق في هذه الفترة الأولى ١٠٨٦ - ١٠٩١ هـ / ١٦٧٥ - ١٦٨٠ م / ١٠ / عشر قرى هي: ١ - المليحة (كما ذكرتها الوثائق). ٢ - زملكا. ٣ - زبدین. ٤ - عربین. ٥ - بيت سحم. ٦ - جسرین. ٧ - حرستا. ٨ - بابيلا. ٩ - القابون. ١٠ - جرمانا.

ومن خلال استعراض جداول هذه القرى نجد أن قرية زبدین بلغت قراراتها /٤٨/ قيراطاً من العقار السكني ثمنها /٤٦/ غرشاً بنسبة ٤٥,٤٥ %، وكان في المنيحة أيضاً عقار سكني واحد بنسبة ١٦,٦٦ %، وعدد القرارات /٢٤/ قيراطاً بنسبة ٢٠ %، ومجموع الثمن /١٠/ غروش فضة أسدية كبيرة. أي أقل من نصف الثمن في زبدین وفي حرستا، وبابيلا كان هناك عقار سكني واحد ولكن أضيف له في حرستا عقار زراعي، بلغت أعداد قراراته ٢٤ بنسبة ١٥,٨٩ % كما بلغ الثمن ٤٠ غرشاً أي بنسبة ١٣,٣٣ % بالنسبة للعقارات الزراعية، ويجب أن نشير هنا إلى أن النسب حسبت في العقارات السكنية

والزراعية والتجارية استناداً إلى المجاميع في كل مجموعة أي أن العقارات السكنية كانت مستقلة في حساباتها، وكذلك العقارات الزراعية وأيضاً التجارية وفي الأمور الأخرى، ولذلك فإن المراقب الذي يدون في الجدول يجد أن هناك اختلافات كبيرة في النسبة بين عقار وآخر، وهذا طبيعي. وحتوت زملكا وعربين وبيت سحم وجسرين وجرمانا عقاراً زراعياً واحداً لكل منها، ولوحظ أنه بالإضافة إلى ثمن العقار السكني في زبدین والذي أشرنا إليه سابقاً كانت هناك صرة فلوس مجهولة العدد وخاتم فضة بحجر معدن مجهول القيمة. وفي بابيلا فقد تم الفراغ عن مشد مسكة^(١) ربع فدان، وما هي مشد المسكة: إن المستأجر لأراضي الوقف أو غيرها، عندما يُعَدّ هذه الأرض للزراعة فيسمدها ويفلحها ويبدل جهداً كبيراً فإنه بذلك يكتسب حق استئجارها للمرة الثانية (لكي لا يُضار بضيايع ما بذله بها) ويسمى هذا الحق مشد المسكة. وإذا اشترى شخص ما قرار أرض مستأجرة كمزروعات أو بيوت فالبائع الذي يملك حق مشد المسكة، يمكن أن يتفرع لهذا المشتري عن حق مشد المسكة هذا، وتكون بنفس نسبة المزروعات أو الأبنية المباعة ويمكن أن تنقل ملكية مشد المسكة من دون أن تكون مصحوبة بأي صك بيع كحالة الأراضي السليخ (أي البياض فقط). ربع فدان خطاط^(٢).. وعند ذكر الأراضي الزراعية فقد كان يذكر دائماً مصدر المياه التي تسقي تلك الأراضي، فمثلاً: (جميع الكرم بقرية حريستا ويعرف

(١) محمد وحيد الدين سوار، شرح القانون المدني، ص ٨٩٠.

City and Country side in a traditional setting the case of Damascus in the first quarter of the eighteenth century. Abdul Karim Rafeq. P. 307.

City and Country side in Ottoman Syria. Abdul Karim Rafeq. P. 107. in the proceedings international conference on urbanism in islam (ICUIT) vol. 3. October 22-28-1989. the middle eastern culture center. Tokyo . Japan.

(٢) الفدان الخطاط = ٥٧٠٠ م^٢ = ٣,٢٥ قيراط. أما الفدان الروماني فيساوي أربع وعشرين ضعف أي ١٣٦٨٠٠ م^٢ ويساوي ٧٨,١٥ قيراط.

Abdul Karim Rafeq, Economic Relations between Damascus and the Dependent Countryside 1743-1771 In The Islamic Middle East 700-1900, Studies in Economic Social History, Edited by A. L. Udovitch, The Darwin Press Inc. Princeton, New Jersey. P. 672.

بدف السعدية شربه من نهر يزيد^(١) ... (جميع الجنية المعروفة بجنية القباني وشربها من نهر ثورا... من ماصبة أمير المؤمنين)^(٢). وكانت تحدد حصة كل قطعة أرض من المياه.. (جميع قطعة الأرض بقرية زملكا وتعرف بحقلة الحرث.. وشرب الأرض من ماء ثورا ساعتان في كل أسبوع)^(٣). وكذلك .. جميع الحقل الكاين بأراضي مزرعة أرزونا بقرية عربيل، شربه من ماصبة السيلون نصف ساعة كل أسبوع)^(٤)، وكما ورد معنا في السطور السابقة فقد ذكرت الوثائق الأنهار التي كانت تسقي بيوت دمشق وأراضي غوطتها، كما ذكرت المواصي والعيون.

- أنهار دمشق :

١ - نهر يزيد: يتفرع من نهر بردى من الجهة اليسرى على بعد ٤٠٠ م إلى الجنوب من قرية الهامة وعلى ارتفاع ٧٥٠م فوق سطح البحر وهو يأخذ $١٨/٢٤$ قيراطاً من تصريف النهر الكلي، يبقى نهر يزيد من نقطة تفرعه حتى وصوله إلى الربوة معلقاً على سفح الكتلة الجبلية حيث حفر مجراه داخل الصخر وقد يختفي مجراه عن الأنظار في بعض الأحيان في أثناء مروره داخل الأنفاق كما هي الحال فوق ضاحية دمر، وكذلك في المنشار عند الربوة، ويمكن أن يستدل المرء على نهر يزيد بذلك الشريط من الخضرة الذي يواكب ضفته اليمنى على طول خانق الربوة، وبعد خانق الربوة يتبع نهر يزيد مجرى مرتفعاً في سفح قاسيون ليشمل أكبر رقعة من الأراضي التي تروى بمياهه فيجري في أرض الصالحية ماراً بشمال الدواسة (أول بستان بعد خانق الربوة) وجنوب أراضي

(١) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٥١٥، ص ٢٠٤.

(٢) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٥٦٨، ص ٢٣٠.

(٣) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٦٣٣، ص ٢٥٦.

(٤) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٤٧٩٠، ص ١٨٣.

دير مران، يحدد مجراه حائط جبلي من الشمال، وحاجز ترابي من الجنوب، تقطعه الجداول العديدة التي تهبط لسقاية البساتين الواقعة إلى جنوبه، وتستمد هذه الجداول مياهها من فتحات محددة في ضفاف النهر، وتتطلق عمودية عليه ولكنها لا تلبث أن تصادف جداول غيرها موازية لنهر يزيد، تقوم بتغذية جداول أخرى، وبذلك ترسم هذه الجداول مربعات شبه منتظمة يتراوح عرضها بين ٣٠٠-٥٠٠م، وبعد ذلك يخترق نهر يزيد الضواحي الشمالية لمدينة دمشق ماراً من المهاجرين والشركسية وحي الأكراد، ثم يتابع طريقه إلى القابون فيصلها منهك القوى قليل المياه بسبب العشرات من المواسي والسيلون التي تستنزف مياهه وذلك بعد رحلة يقطع فيها حوالي ١٦ كم، وعندما يدخل نهر يزيد القابون يعترضه حاجز طولي يقسم مجرى النهر إلى قسمين، يخص القسم الأيسر منهما قرية حرستا ويخص الأيمن ضاحية القابون، ويتحدد نصيب كل من هذين الفرعين (يزيد حرستا ويزيد القابون) بواسطة فتحتين أبعادهما ٤١ سم لحرستا، ١٢٨ سم للقابون، ويقدر عرض النهر مترين أو يزيد ولكن هذا العرض يتسع أحياناً حتى يصل إلى أكثر من ثلاثة أمتار، ومن الجدير بالذكر أن تعميق المجرى وتوسيعه إنما هو عمل مقصود، يراد به التخفيف من أخطار السيول الهابطة من المرتفعات المجاورة وذلك لاستقبال المجروفات التي تحملها السيول وتلقيها في النقاط المنخفضة، وإن مياه يزيد تتوزع على أربعة أقسام متساوية: يروي الربع الأول أرض الشركسية التي يمتد حدودها من بستان الدّواسة غرباً حتى حمام المقدم شرقاً، ويروي الربع الثاني أراضي أبي جرش التي تمتد من حمام المقدم غرباً إلى حدود بساتين القابون شرقاً، ويروي الربع الثالث أراضي القابون، بينما يتجه الربع الأخير إلى أراضي حرستا، حيث يسقي بساتينها^(١) على بعد ٢٠٠ م إلى الشمال الشرقي من ممر الخط الحديدي وهو يأخذ ٢/٤ قيراطاً من باقي تصريف بردى، ويمثل

(١) صفوح خير، مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢،

نهر القنوات أهم الفروع التي تزود مدينة دمشق بالمياه، إذ إن تخطيطه يسمح له بإيصال المياه إلى أكثر الأقسام من المدينة ارتفاعاً، فمياهه تصل إلى أعلى التل الواقع إلى الجنوب من مجرى بردى حوالي ٥٠٠ م وقرب جامعة دمشق ينقسم نهر القنوات إلى قسمين: القسم الأول يأخذ ١٠ قراريط ويتجه إلى الجنوب ماراً تحت طريق دمشق المزرة ويدعى مقسم الخلخال حيث ينقسم بدوره إلى خمسة فروع ثانوية: فرعان يرويان أراضي كفر سوسة والقدم، وثلاثة فروع تسقي الأحياء الجنوبية من دمشق مثل باب السريحة وقبر عاتكة وباب المصلى والميدان. القسم الثاني: يأخذ ١٤ / قيراطاً، ويجري شرقاً في الاتجاه الأصلي لنهر القنوات ويدخل المدينة في قناة جوفية فيمر بحي الحلبوني، ومقسم جامع الحلبوني، وتجتمع مياه هذه المقاسم في طوالع توزع المياه على الدور والحدائق والجوامع وغير ذلك، ويتابع نهر القنوات سيره حتى يبلغ محطة الحجاز تتفرع منه المياه إلى فرعين ثانويين يتجه الأول نحو جامع تنكز، والثاني نحو المولوية، ثم يواصل نهر القنوات طريقه شرقاً حتى يبلغ حي القنوات الذي يحمل اسمه، وهناك تتوزع مياهه بواسطة مقاسم تعرف بالطوالع وقد كان عددها ٩١ / طالعاً تؤمن المياه لهذا الحي فتزود دوره وحماماته ومساجده بالمياه^(١).

٢ - نهر بردى: أعظم نهر بدمشق، وهو وادٍ أصل مخرجه من قرية يقال لها قنوا من كورة الزبداني، على خمسة فراسخ من دمشق جهة بعلبك، من عيون هناك تنصب إلى الفيحة وهي قرية على فرسخين، وتتضم إليها أعين أخرى، فإذا صار قريباً من دمشق تنقسم منه أنهار قد عملت لها سدود يرد الماء عليها، ففي الشمال نهران في سفح قاسيون (يزيد - ثوري). وفي الجنوب نهران الداراني والمزاوي. أحدهما يسقي بساتين الغوطة الجنوبية، وفرع القنوات هو نهر صغير ينفصل عن بردى ويدخل دمشق من الجهة اليمنى^(٢).

(١) صفوح خير، مدينة دمشق، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢) مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفي سنة ٧٣٩، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي=

٣ - نهر الداراني: يدعى بالداراني نسبة إلى قرية داريا الواقعة إلى الجنوب الغربي من طريق دمشق - درعا، ولا يعرف التاريخ الصحيح لمد قناة الداراني ولكن يقال إن الداراني والمزاوي يعودان إلى القرن الثالث الميلادي بدلالة وجود قريتي داريا والمزة في ذلك الوقت فليس من المعقول وجود القريتين في ذلك الوقت بدون تمديدات مائية، يتفرع الداراني عن بردى، من الجهة اليمنى بين دمر والشادروان حيث يأخذ $\frac{1}{2}$ قيراطاً من تصريف بردى عند تلك النقطة، يجري الداراني في قناة عميقة محفورة بالصخر وتبقى معلقة على سفوح تقرب من الوضع الرأسي وتختفي في عدة مواضع داخل الأنفاق حتى خائق الربوة وتقترب في أثناء سيرها كثيراً من قناة المزة، وخاصة عند حافة المزة التي تحيط بمجرى بردى من الجنوب، ثم تتعطف بعد ذلك فجأة نحو الجنوب بحيث تصبح عمودية على مجرى نهر بردى، وتصبح عندها موازية لقناة المزة وتشكل الحدود بين الأراضي التي ترويهما عن يسارها، والأراضي التي يرويها المزاوي عن يمينها وعندما يبلغ الداراني مقسم النفلة في أرض المزة يشكل أربعة فروع، منها اثنان يلتقيان على بعد خمسين متراً من المقسم ويتجهان نحو مقسم «طاحونة التوتة» أما الفرعان الآخران اللذان يخرجان من مقسم النفلة فيذهب أحدهما إلى بساتين كفر سوسة، والآخر إلى باب السريجة، وتصل مياه الداراني إلى مقاسم الميدان والنصف الشمالي من أراضي داريا^(١).

= ٣/ أجزاء، المجلد الأول، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص ٢٨١، حبيب زيات، الخزانة الشرقية، الجزء الثالث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٤٦ ص ١٣٩. صفوح خير، مدينة دمشق، ص ٨٥، علم المياه الجارية في مدينة دمشق، أو رسالة في علم المياه، تأليف محمد حسين الدمشقي، تحقيق أحمد غسان سبانو، ط ١، ١٩٨٤م ص ١١٥.

(١) صفوح خير، مدينة دمشق، مرجع سابق، ص ٩٨-٩٩. محمد حسن العطار، علم المياه الجارية في مدينة دمشق، ص ١٢. خطط دمشق، جمعها ووضعها صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٤٩، ص ٣٢.

Description of the east and some ether countries B. Richard. pooches, p. 123..

٤ - نهر ثورا: تعود قناة ثورا للعهد الآرامي. يأخذ مياهه من بردى عند جسر الخشب الواقع إلى الجنوب من ضاحية دمر. بالقرب من الشادروان إما نصيبه من المياه فهو قليل إذ يبلغ $\frac{14}{24}$ من باقي تصريف بردى بعد أن يأخذ يزيد $\frac{18}{24}$ قيراطاً والمزاوي $\frac{6}{24}$ قيراطاً من باقي التصريف والداراني $\frac{18}{24}$ قيراطاً ولذا تبدو مياه ثورا قليلة عند مقسمه ولكنها لا تلبث أن تزداد بسبب المياه التي تهبط إليه من مواصي نهر يزيد حتى إن مياه ثورا تزداد إلى الضعف عندما تبلغ خانق الربوة، ويشترك نهر ثورا مع نهر يزيد في ري السفح الجنوبي لجبل قاسيون، ويعود فائضهما من الري إلى نهر بردى ولكن رحلة ثورا تصل حتى أراضي دوما في فصل الجفاف ثم تبلغ عدرا والعتيبة في فصل الأمطار، بينما ينتهي مطاف يزيد في أراضي حرستا. وكان نهر ثورا لبضع سنوات خلت يزود العشرات من المواصي والسبلان التي تنتشر بين الربوة وجسر تورا، يتوزع نصفها في القسم الغربي من هذه المنطقة بين الربوة والجسر الأبيض أي (النيرب الأسفل)، والنصف الآخر في القسم الشرقي على طول منطقة أبي جرش، فتتبع مياه القسم الغربي إلى نهر بردى بينما تتجمع مياه القسم الشرقي على شكل نهيرات صغيرة، وقد أخذت هذه المواصي في الزوال تدريجياً على أثر انتشار العمران الحديث في المنطقة واستبدال مياه الفيحة النقية بها، فلم يبق منها سوى بضعة مواصي أهمها ماصية الأنصاري أو العمري التي تغذي الصالحية وسوق صاروجا وحتى البحصه، ومن المواصي الأخرى ماصية الشباك، وماصية السبع قاعات، وماصية الكزبري، وقد كانت ماصية أمير المؤمنين لها أهميتها أيضاً، إن ضفتي نهر ثورا مبنية بالحجارة على طول مجراه، وقعره مرصوف أيضاً بالحجارة، وثلاث مياه ثورا تخص الأراضي الواقعة ضمن حدود المدينة حيث تتفصل عنه أربعة فروع رئيسة لتغذي أحياء مدينة دمشق الشمالية، أما الثلثان الآخران من مياه ثورا فيجري توزيعهما عند مقسم (بسط باب الثلث) الواقع إلى الشمال من جوبر، ويعدّ هذا البسط أهم مقاسم الغوطة لأنه يوزع المياه بين عشر قرى، ويلاحظ أن مياه ثورا

تستمر قوية حتى جوبر، لكنها تضعف بعد ذلك عندما تصل دوما^(١).

٥ - **نهر بانياس:** يتفرع نهر بانياس عن بردى من الجهة اليمنى عند مخرج بردى من خانق الربوة، ويأخذ ٢٣/٢٤ قيراطاً من باقي التصريف وهو يساير الحافات الجبلية التي تطل عليه من جبل المزة، ثم ينحدر إلى أسفل جامعة دمشق وبعد ذلك يواصل نهر بانياس طريقه شرقاً، فيرسل قسماً من مياهه لتكية السلطان سليم، ويمر أمام محطة الحجاز في قناة جوفية، ثم تتشقق عنه عدة فروع تسقي جامع المولوية وجامع تنكز ودار الحكومة، وفي أسفل زقاق رامي يجتمع قسم من مياهه في طالع تتطلق منه المياه إلى حمام القرمانى في سوق العتيق حيث تختلط مياهه بمياه ثورا، ويتابع بانياس شرقاً حتى السنجدار حيث تتفرع منه عند نقطة سيدي خليل إلى فرعين:

آ - فرع الطوير: وهو يختص بثلاث مياه بانياس ويجري نحو الحميدية، فالعصرونية، وهناك تعترضه عدة مقاسم تمد بمياهها عدداً من الحمامات والجوامع وينتهي هذا النهر في باب توما.

ب - فرع بانياس: وهو يحتفظ بثلاثي المياه، يخرج منه فرع في منطقة سيدي خليل نفسها لتزويد بعض الجوامع والمدارس بالمياه، ثم يتابع سيره إلى القلعة حيث ينقسم فيها على قسمين، القسم الأول يأخذ ثلث المياه ويتابع طريقه إلى العصرونية ثم يمر في باب البريد والسبع طوالع، ودخلة النقاشات، وحمام النوفرة وهناك في النوفرة توجد أربعة مقاسم رئيسة توزع المياه إلى القيمرية وتنتهي عند باب توما، أما القسم الثاني يأخذ ثلثي مياه بانياس ويتجه نحو الشاغور. وعندما يصل إلى الحريقة يتفرع بدوره إلى فرعين،

(١) صفوح خير، مدينة دمشق، مرجع سابق، ص ٩٥، ٩٨. محمد حسين العطار الدمشقي، علم المياه الجارية، ص ١٠٦. خطط دمشق للمنجد، ص ٢٩. محمد بن عيسى بن كنان، المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، ص ٢٩ هـ (١). القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، لمؤلفه محمد بن طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣، القسم الأول، تحقيق محمد أحمد دهمان، ص ٨٧-١١١-١١٣-١٢٧.

يتجه أحدهما نحو باب الصغير والميدان، ويتجه الثاني إلى بساتين الشاغور والباب الشرقي، ثم ينطلق خارج المدينة حاملاً معه قدراً كبيراً من أوساخ مدينة دمشق وأقذارها ويسمى بالنهر الأبيض بينما يسميه العامة قليط^(١).

٦ - **النهر المزي (المزاوي):** يدعى بهذا الاسم نسبة لـصاحبة المزة. وهو يخرج من الضفة اليمنى لنهر بردى، قبل دمر بنحو ٣٠/ متراً، ويأخذ ٦/٢٤ قيراطاً من تصريف بردى عند نقطة التفرع، وهو يحافظ على مياهه تقريباً على خلاف الفروع الأخرى.. تسير مياه المزاوي في قناة مكشوفة ثم تختفي بعد ذلك عن الأنظار ولا يبدو منها سوى تلك النوافذ التي تطلّ على شكل فوهات يسمونها بالضوايات وهي تساعد على تطهير القناة وتنظيفها.. وبعد أن تختفي قناة المزة مرة أخرى تظهر نهائياً لتتساب على أراضي المزة، ولترسم الحد الفاصل بين الأراضي المروية على يسارها، والأراضي الجافة على يمينها، وأهم مقاسم نهر المزي: آ - مقسم المرجانة. ب - مقسم الشيخ قاسم. ج - مقسم الجندي. د - مقسم الرحبي^(٢).

وسنكتفي بالحديث عن أنهار دمشق السبعة التي ذكرتها الوثائق مع ذكر الأنهار الأخرى الواردة في الوثائق خلال فترة البحث وهذه الأنهار هي: ١ - نهر الزلف. ٢ -

(١) صفوح خير، مدينة دمشق، مرجع سابق، ص ١٠٤، عبد القادر الريحاوي، مدينة دمشق ١٩٦٩م، ص ٥٠. صلاح الدين المنجد، خطط دمشق، المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٩م، ص ٣٤، تحفة الأدبا وسلوة الغربا للخيارى، تحقيق رجاء محمود السامرائي، ص ١٥٥. محمد حسين العطار، علم المياه الجارية، ص ٧٣.

(٢) صفوح خير، مدينة دمشق، المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٢. خطط دمشق للمنجد، ص ٣٤. الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص عن دمشق، المجلد ٣٥/ ١٩٨٥، من مقالة لصفوح خير بعنوان: تطور توزيع المياه في دمشق. ص ٢٢٢. مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٥٢/٢٧ ص ٢٣٢، من مقالة بعنوان أرجوزة في محاسن دمشق، نظمها ابن خداويردي، بقلم صلاح الدين المنجد، مجلة المشرق ١٩٤٨/٤٢ ص ٤٨، من مقالة خطط دمشق بالاستناد إلى كتب الوقف والنصوص القديمة، بقلم صلاح الدين المنجد .

نهر الأنباط بالشاغور البراني. ٣- نهر المجدول (العقرباني). ٤- نهر مجريد. ٥- نهر واعية. ٦- نهر جاروش. ٧- نهر الميلفون (مزاز الميلفون).

ويلاحظ أن هذه الأنهار الأخيرة ربما هي تنتمي لأنهار دمشق السبعة التي تحدثت عنها وهذه الأنهار العشرة الأخيرة كنت قد درستها من خلال المصادر ولكنني لم أשא أن أسجلها خشية الإطالة واكتفيت فقط بذلك أسمائها. على أن هناك ثلاثة أنهار لم أجد لها ذكرا في المصادر وهي من الأنهار التي ذكرتها الوثائق وهي:

١- النهر السلطاني. ٢- شعب ابن حي في الشاغور. ٣- نهر الشاغور، فالنهر السلطاني قد يكون هو نهر بردى بذاته، كان العوام يطلقون تسميات لا يلبث كتاب المحكمة أن يتلقفوها ويسجلونها في السجلات. أما شعب حي الشاغور ربما يكون تنتمي أو جزءاً من بانياس أو غيره وكذلك الأمر بالنسبة لنهر الشاغور. وقد وردت جميع هذه الأنهار في السجلات والوثائق^(١).

كما أوردت الوثائق بعض المواصي منها:

١- ماصية أمير المؤمنين: هي مستمدة من نهر ثورا، وتدعى بالنهر النازل في جسر البط وهي تسقي البيوت^(٢).

(١) السجل ١١: وثيقة ٧، ص ٣، السجل ٢ مشوش: وثيقة ٢٤٤، ص ١٣٣، وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧، وثيقة ٣١٣، ص ١٦٣، وثيقة ٢٦٢، ص ١٤١، وثيقة ٣٢٥، ص ١٧٣، السجل ٣ مشوش: وثيقة ٤٤١، ص ١٦٩، وثيقة ٤٥٧، ص ١٧٧، السجل ٤ مشوش: وثيقة ١١٩، ص ٦٣، السجل ٢٥: وثيقة بلا رقم (بين الوثيقتين ١٠٦-١٠٧) ص ٦٣، السجل ٢٦: وثيقة ١٨١، ص ٨٨، السجل ٢٥، وثيقة ٣٦، ص ٢٥، وثيقة ١٤٢، ص ٨٦، وثيقة ٣١٣، ص ١٧٦، السجل ٢٣: وثيقة ٢١، ص ١١، السجل ٢٥: وثيقة ١٤، ص ١١.

(٢) محمد بن عيسى بن كنان، المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، عني بتحقيقه وتعليقه ووضع حواشيه وملاحقه وفهارسه محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٧م ص ٢٩. السجل ٢ المشوش: وثيقة ٢٥٤، ص ١٣٧.

٢ - ماصية الزينية: كانت سابقاً تسمى قناة السبيل وهي أيضاً من نهر ثورا كما فهمت من المصادر، على اعتبار أن هذه الماصية تستمد من نهر طاحون الوز الذي يستمد بدوره من نهر ثورا^(١).

وذكرت الوثائق مواصي أخرى لم أعثر لها على ذكر في المصادر وهي:

١ - ماصية الملتون: (لقد صورتها كما وردت في الوثيقة).

٢ - ماصية الكعكية.

٣ - ماصية «الاسم» هكذا وردت.

٤ - ماصية السبيل بعربيل^(٢).

هناك عبارة مشهورة في بضعة القرون التي سبقت الميلاد تقول مصر هبة النيل وقالها هيرودوت أبو التاريخ الشهير. ولكننا في العصر الحديث نستطيع أن نقول بكل ثقة بأن دمشق هي هبة بردى وفروعه فلولا بردى لما كانت دمشق، وتفنن أجدادنا مستفيدين من الانحدار الطبيعي للنهر لكي يستتبوا منه فروعه التي ذكرناها سابقاً. وفي غوطة دمشق فرض الواقع على السكان أن يوجدوا قوانين أساسية لإثبات حقوق الاستفادة من المياه سواء في الشرب وخاصة في السقاية. فمثلاً كان هناك:

- حق الماصية: وهو حق من أنبوب يسمح بالحصول على (تحويل من القناة) وتكون أبعاد المنفذ مسجلة في مخطط شيخ النهر.

- حق السبيل: وهو من حقوق الضفة اليمنى بالإضافة لحقوق أخرى أما الضفة اليسرى فلها حقان: ١ - حق السراية أو حق حفر القناة تحت الأرض. ٢ - حق الناعورة. وكانت تحسب ثروة العائلة حسب عدد ساعات المياه التي تحقق لها.

(١) السجل ٢ مشوش: وثيقة ٣١٩، ص ١٧٠، المروج السندسية، ص ٢٩ هـ (١). خطط دمشق

للمنجد، ص ٣٢. قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ٢، ص ١٥٩.

(٢) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٤٧٠، ص ١٨٣، السجل ١ مشوش: وثيقة ٧٥٤، ص ٣٠٤، السجل ٢

مشوش: وثيقة ٣١٩، ص ١٧٠، السجل ٢٥: وثيقة ٢٣٢، ص ١٣٥.

- **العدّان** : الفترة الدورية التي يتم فيها توزيع المياه، ويأخذ العدّان معنى اليوم مثلاً: تقسم قناة المزة إلى ١٣/ عدّان، ويقسم العدان إلى نصفين يوم ١٢/ ساعة كل نصف يوم.

وعلى هذا فالعدّان والنصف يعادلان ٣٦/ ساعة سقاية (أي يوم ونصف)، وللعدّان حق يسمى حق العدان وهو حق استعمال المياه حسب دور منتظم يسمح لأصحاب الحقوق بالسقاية في اليوم في ساعات محددة، وهناك أيضاً عدّان جماعي حيث تستفيه عدة قرى في أثناء فترة تنظيف الأقنية مثل عرائش دوما، وقمح عدرا لمدة ثلاثة أيام، وفي جنوب الغوطة بعقربا فإن حقول القمح تستفيد مدة ٧/ أيام^(١).

وكنّت القرى في مركز الغوطة تتمتع بعدان (كل سبعة أيام) أما القرى البعيدة في الغوطة فليس لها عدّان إلا كل (١٤ يوم)^(٢).

- **المزّاز** : المزّاز كلمة تتطابق مع قسمة مصنوعة من الحجارة المتقاربة، مثل:

- مزّاز باب البستان في داريا.

- مزّاز أم شرفيت في الأعوج.

- مزّاز باب الثلث في نهر ثورا.

- مزّاز يقع وسط قرية القابون (١١ قيراط للقابون، ١٣ قيراط لحرستا).

- **البسط** : كلمة تشير إلى تحويل حيث تكون الحجارة متباعدة (وهو هنا العدّان).

(١) René Tress l'irrigation dans la Ghouta de Damas. P. 478, 498, 502, 506, 508, 512.

السجل ١٥: وثيقة ١٤١، ص ٨٥ (حيث إن قطع الأراضي الثلاث بأراضي القطائع المعروضات الطويلة - كندی - الوسيطاني، شربها من نهر الأنباط ست ساعات من عدّان ابن بكبك وساعتان ونصف من عدّان النصاري).

(٢) La Ghouta, un paradis entre montagne et steppe- in autrement Damas. Mirair brise d'un Orient Arabe. P. 20. Anné – Marie Bionquis.

- **المزرعة:** تشير إلى /١٢/ ساعة أي نصف يوم سقاية، وعندما لا تستعمل عبارة المزرعة، فكلمة عدّان عندئذ هي التي تشير إلى /١٢/ ساعة أي نصف يوم .
- **الشبر:** المسافة بين طرف الإصبع الكبير، ونهاية الإصبع الصغير وتكون أصابع اليد متباعدة.
- **الفتّر :** المسافة بين الإصبع الكبير والإصبع المتباعد .
- **فدان الماء في برزة:** يشير فدان الماء في برزة إلى سقاية لمدة /٦/ ست ساعات أي سقاية /٥٠/ خمسين فدان من الأرض، ومعنى ذلك أن فدان الماء والذي هو سقاية لمدة /٦/ ست ساعات تكفي /٥٠/ فدان مساحة أرض.
- **فدان الماء في داريا:** إن المالك الذي يحصل على /٢٤/ نصف ساعة من المياه هنا يقال له إنه يملك فدان.
- **نهر:** النهر /١٢/ ساعة سقاية، ويمكن أن تسمى أيضاً فدان من المياه^(١)، أو مزرعة، باعتبار أن المزرعة كما قلنا /١٢/ ساعة، أو نصف يوم.
- **المنقار :** ١٧% م. فعندما نقول أن قرية ما لها (بسط من /٥/ مناقير و /٣/ قيراط، يكون الحساب كالتالي: $٠,٧١ \times ٥ + \frac{٣}{٢٤} = \dots\dots\dots$ ^(٢)).
- وفي دور دمشق في فترة الدراسة كانت حصص البيوت من المياه تقدر بالإصبع (يجري إليها الماء من طالع المغيربية بحق إصبعين المستمد من القنوات)^(٣). وذكرت الوثائق «الحوش» (جميع البيوت من جملة مساكن الحوش)^(٤).

(1) Reneé Tress l'irrigation dans la Ghouta de Damas. P. 475, 476, 487, 502, 503, 512, 480, 479, 488.

(2) Reneé Tress l'irrigation dans la Ghouta de Damas. P. 480, 506.

(٣) السجل ٢٣: وثيقة ٥٧٠، ص ٢٧٨.

(٤) السجل ٢٥: وثيقة ٩٦، ص ٥٨، سجل ٢٦، وثيقة ١٧، ص ٧، السجل ٣ مشوش: وثيقة ٦٠٦،

ص ٢٤٤، السجل ٢ مشوش: وثيقة ٢٩٢، ص ١٥٤.

- الحوش: الأساس في الحوش أنه لإيواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة، والتي كانت تقيم في البايكة، ثم استعمل لإقامة أصحابها أيضاً، وتطور الحوش من الناحية السكنية، حيث صار من أجزاء الحوش الأساسية، الساحة السماوية، وقد يحتوي الحوش على أكثر من إيوان وعلى قاعات ومكان تخزين الغلال، ويمكن أن توجد في الحوش دور سكن أو لا توجد، فقد حوت بعض الأحواش عدة بيوت ولكل واحد منها منافع خاصة به ومدخل خاص وقد توجد آبار في ساحة الحوش ومرتفات^(١).

ووردت في الوثائق أسماء أراضي وبساتين منها:

(١) قصر اللباد وهي في الصالحية^(٢).

(٢) السهم الأعلى ويعرف بست الشام، وهو مرجة خضراء ما بين الغياض، وبها عين تجري بمياه باردة^(٣).

(٣) مزرعة أرزونا، جاء في الوثيقة أن مزرعة أرزونا تابع قرية عربيل، ولكن أرزونة، قرية كانت تقع تحت القابون التحتاني، وكان لها جامع ومئذنة وتشرب من ثور^(٤).

(١) عبد الكريم رافق، غزة دراسة عمرانية اجتماعية اقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٨٥٧ - ١٨٦١م، ص ٢٨-٢٩. بريجيت مارينو، حي الميدان في العصر العثماني، ترجمة ماهر الشريف، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) ابن كنان، المروج السندسية، ص ٣٤-٦٨.

(٣) البديري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص ١٥٣، المروج السندسية، ص ٣٥، ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص ٢٧.

(٤) مدارس دمشق وربطها وجوامعها للأربيلي، تحقيق دهمان، ص ٢٩ هـ، وذكر أن أرزونا كانت قرية قبيل جسر ثورا قبلية لجهة الغرب. خطط دمشق للمنجد، ص ٣١، خطط دمشق للعلي ص ٤٣٤، غوطة دمشق لمحمد كرد علي، ص ٢٠٤-٢٨٦، طبعة ثانية منقحة ومزودة، دمشق ١٩٥٢م، مجلة المجمع العلمي العربي، ك٢، شباط ١٩٤٦/٢١، ص ١٥٤، من مقالة لمحمد أسعد طلس: ضرب الحوطة على جميع الغوطة للحافظ محمد ابن طولون الدمشقي حيث نشرها طلس.

(٤) أراضي بيت أرنس^(١)، وبيت أرنس كانت من قرى الغوطة يقرُّ بها قبر أبي مرثد دثار بن الحصين من الصحابة.

(٥) بيت لهيا: كانت على طريق بغداد القديم بين البساتين حول جسر نهر ثورا عند الجهة التي يقوم فيها المستشفى الفرنسي في القصاع، كانت فيها كنيسة أصبحت مسجداً، لم يبقَ في هذه الأيام أي أثر من آثارها، اندثرت منذ القرن العاشر الهجري، وكلمة بيت لهيا آرامية وتعني بيت الآلهة^(٢).

(٦) أرض السنبوسكة (بستان السنبوسكي) بعض المصادر قالت إن بستان السنبوسكي خارج باب الجابية، وهذا ما قاله عبد القادر النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ط١، ص ٣٠٣، أما مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٥٨/٣٣ ص ٤٠٥، من مقالة للسيد جعفر الحسني بعنوان المدرسة الأسعدية فقد ذكر أن البستان السنبوسكي بالصالحية، وأما في يوميات شامية لابن كنان، تحقيق أكرم العلبي ص ٤٨٥، فلم يحدد مكان بستان السنبوسكي، بينما جاء في وثيقتنا س ٤ مشوش، ووثيقة ١١٩، ص ٦٣، أن أرض بستان السنبوسكة في زملكا.

(٧) حقل نصبة البير: ورد في المصدر باسم نصبة البيرة^(٣).

(٨) أراضي أرزة، وأرض أرزة اليوم محلة مكانها حي الشهداء في طريق الصالحية^(٤).

(١) الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ط١ ص ٥١٩، مرصد الاطلاع للبغدادي، المجلد الأول، ص ٢٣٦، ثمار المقاصد في ذكر المساجد لابن عبد الهادي، ص ١٣٤.

(٢) معالم وأعلام في بلاد العرب، أحمد قدامة، ج١، ص ١٦٢، المروج السندسية الفسيحة في تاريخ الصالحية لابن كنان، تحقيق دهمان، ص ٦٥. مدارس دمشق وربطاً وجوامعها للأربلي، ص ٣٠هـ. مجلة العمران عام ١٩٦٦ ص ١٥١ من مقالة بعنوان دمشق عبر التاريخ بقلم عبد الهادي سعيد.

(٣) مجلة دراسات تاريخية ٤٣-٤٤ ك ١/١٩٩٢، من مقالة بعنوان: الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق في العهد العثماني: محمد. م. الأرناؤوط، جامعة اليرموك، ص ١٦٧.

(٤) ثمار المقاصد لابن عبد الهادي، ص ١١٨+١٣، المدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج٢، ص ١٧٥، لطف السمر وقطف الثمر للغزي ج١، ص ٤٠٣. دمشق في مطلع القرن العشرين للعلاف، ص ٣٣٩.

(٩) دفوف الزعفران: في حدائق دير مران في سفح قاسيون الواقع أسفل قبة السيار وأعلى بستان الدواسة، كان يزرع قديماً الزعفران وله مزارع، ولا شك أن مزارع الزعفران التي ذكرها ياقوت الحموي هي المعنية بقول البديري، بأن في ذي الجبل الغربي في الربوة دف الزعفران، والزعفران له أثر كبير في حياة الأديرة قديماً فقد كان يزرع في حدائقها وبساتينها، ثم يُباع وينفق ثمنه في مصالح الدير. وكانت الحواكير كالحدائق في سفوح قاسيون، وقد زرعت الرياحين والأزهار أيضاً ذلك أن قاسيون كان يقيها البرد، والنسيم إذا مرَّ بها يحمل من استطاع من الطيب ويسرى به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان وينتشر العطر في كل مكان^(١).

(١٠) المرج: هو إقليم متسع تبلغ مساحته أكثر من ضعفي مساحة الغوطة، وهو أيضاً في مكان منخفض من الأرض وأشجاره قليلة، وخصّ بزراعة الحبوب في الشتاء، والذرة في الصيف، ويمتد من مزارع قرية دوما ومسرابا وبيت سوا وحمورية والمحمدية، وبالا، وزبدین، والملحية في شرق الغوطة شمالاً، وحتى مناقع بحيرتي الهيجانة، والعنّيبة، وأراضي رمدان شرقاً.

(١١) مزرعة يعقوبا: غربي حزة بينها وبين عين ترما، بقي اسمها وأنقاض قليلة تتألف منها أكمة صغيرة، وهي داخلية في أراضي حزة، وكان فيها مزرعة وقفت على المدرسة الطيبانية^(٢).

(١٢) أراضي النيرب الفوقاني: قرية كبيرة ومنتزه، كان بينها وبين الربوة مسافة غير قليلة، وكانت قديماً تتألف من بساتين واسعة ملحقة بمحلة الصالحية، في سفح قاسيون الغربي، وتنقسم إلى قسمين: (١) النيرب الأعلى، (٢) والنيرب الأدنى، أما النيرب الأعلى فيقع بين نهري يزيد وثورا، ويمتد من الجسر الأبيض حتى بساتين

(١) محمد أحمد دهمان، في رحاب دمشق، ص ١٦-١٧، مجلة المصباح المجلد الأول جـ ٣، ١٣٤٦هـ، ص ١٠٧ هـ (١)، من مقالة لأحمد البربر بعنوان زهر الغيضة بذكر الفيضة. مجلة الحوليات ١٩٦٥/١٥ ص ١٥ من مقالة بعنوان رحلة الخياري إلى سورية في القرن ١١/ صفحات من مخطوط لم ينشر للأستاذ عبد القادر الرياحوي، نزهة الأنام في محاسن الشام لبديري، ص ٦٠. غوطة دمشق لمحمد كرد علي، ١٩٥٢م، ص ٢٤٥.

(٢) غوطة دمشق لمحمد كرد علي، ص ٢٥٠، الدارس في تاريخ المدارس، جـ ١، ص ٢٥٧.

الدواسة غرباً، أما النيرب الأدنى فيمتد بين نهري ثورا وبردى جنوباً، ومن هنا أطلقت تسمية النيربين على هذه القرية، أما كلمة النيرب فمن الآرامية (نرباً) وتعني الوادي^(١).

(١٣) أراضي الطويلة، في أراضي الشاغور^(٢).

هذا وقد وردت الحقول والأراضي الثلاث عشرة المذكورة سابقاً في السجلات والوثائق التالية:

(السجل ١١: وثيقة ٧، ص ٣، السجل ٣ مشوش: وثيقة ٥١١، ص ٢٠٢، وثيقة ٤٧٠، ص ١٨٣، وثيقة ٦٣٦، ص ٢٥٧، السجل ٢ مشوش: وثيقة ٣١٩، ص ١٧٠، السجل ٤ مشوش: وثيقة ١١٩، ص ٦٣، السجل ٢٣: وثيقة ٢٥، ص ١٣، السجل ٢٥: وثيقة ١٤١، ص ٨٥، وثيقة ٣٢٣ مكرر، ص ١٧٦). وأوردت الوثائق أسماء /١٩٦/ من البساتين والحقول والأراضي في غوطة دمشق وحيث إنني لم أعثر لها على ترجمة في المصادر ولعدم الإطالة أحجمت عن ذكرها.

- الأقيّة:

١ - القناة التي تسقي أراضي يلدا: إن هذه القناة هي القناة العسرونية والقادمة من الشاغور البراني^(١).

(١) محمد أحمد دهمان، جبل قاسيون، ص ١٥. قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، جـ ٢، ص ٣٣١، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ص ١٣٩، غوطة دمشق لمحمد كرد علي، طبعة ١٩٥٢، ص ١٠. الدارس في تاريخ المدارس للنعمي، جـ ١، ص ١٣، خطط دمشق للمنجد، ص ٣٠، مجلة العمران، عام ١٩٦٦ ص ٧٥، من مقالة بعنوان: آثار مدينة دمشق بقلم محمد أبو الفرج العش. مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، ١٩٦٥/١٥ ص ١٥، من مقالة بعنوان رحلة الخيارى إلى سورية في القرن /١١/ صفحات من مخطوط لم ينشر لعبد القادر الرياحوي، مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٥٢/٢٧ ص ٢٣٠ من مقال بعنوان أرجوزة في محاسن دمشق نظمها ابن خداويردي بقلم صلاح الدين المنجد، دمشق الأسرار، نصر الدين البحرة، ص ٩٨-٩٩.

(٢) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، جـ ١، ص ١٤.

٢ - القناة المعروفة بالمسعودي الكائنة بأراضي داريا.. لم أعثر على قناة محددة باسم المسعودي في المصادر وإنما هناك قناة المسعدية، كانت تروي مزرعة المسعدية بالغوطة^(٢).

ووردت في الوثائق أفنية أخرى من دون أن أعثر على ترجمة لها في المصادر منها:

(١) قناة الديوان، (٢) قناة الجديدة بئر كردي، (٣) قناة القصير على حدود شبعاء، (٤) قناة قرية بابيلا. وقد ذكرت هذه القنوات الأربعة والقناتين مثلهما في السجلات والمصادر الآتية^(٣).

ووردت أسماء الخيول سواء المحققة أو غير المحققة في السجلات والوثائق الآتية^(٤).

- الطواحين: ذكرت الوثائق ثلاث طواحين هي:

(١) طاحونة التوتة في أرض المزة حيث عندها مقسم مياه نهر الداراتي إذ يتجه نحو مقسمها فرعان من النهر^(٥).

(١) دراسات تاريخية ٤٣-٤٤/١٩٩٢ ص ١٦٨، من مقالة لمحمد الأرناؤوط، جامعة اليرموك، بعنوان الوثائق الوقفية كمصدر من مصادر التعرف على الحياة الزراعية في ضواحي دمشق.

(٢) رافق، دراسات تاريخية، العددان ١٤-١٨، مصدر سابق، ص ١٦٨.

(٣) السجل ٣ مشوش: وثيقة ٥٦٢، ص ٢٢٧، السجل ٢٣: وثيقة ٦٢١، ص ٣٠٦، السجل ٤ مشوش: وثيقة ٢٥٨، ص ١٢٢، السجل ٢٥: وثيقة ١٥٠، ص ٩٠، وثيقة ١٦٩، ص ١٠١، وثيقة ٢٩٥، ص ١٦٨.

(٤) السجل ١٠ مشوش: وثيقة ١٤٥، ص ٦٩، وثيقة ١٤٥، ص ٦٩، السجل ١٧ مشوش: الوثيقة ١٧١، ص ٤٤، السجل ٢٥: وثيقة ١٥٠، ص ٩٠، السجل ٢٦: وثيقة ٧٥، ص ٣٩، السجل ١ مشوش: وثيقة ٧٦٣، ص ٣٠٧، السجل ٢٥: وثيقة ١١٠، ص ٦٦، السجل ٢٦: وثيقة ٧٥، ص ٣٩.

(٥) صفوح الخير، مدينة دمشق، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٢) طاحونة الزلف الكائنة باراضي الوادي، وأعتقد أن هذا الوادي هو وادي عين ترما^(١)، غير أنني لم أعثر على ذكر لهذه الطاحونة في المصادر، والأمر نفسه يقال عن الطاحونة الأخرى وهي:

(٣) طاحونة الزبرية.

- العيون: وردت في الوثائق بعض العيون هي:

(١) عين منين: نبع غزير، يتفجر من جبل عين منين، وقرية منين شمال التل وتبعد عن دمشق ٩ كم^(٢).

(٢) عين الزينية: وردت عن الزينية في المربع (١X) في المؤلف الشهير لكارل ولتسينجر، وكارل واتسينجر، تعريب عن الألمانية قاسم طوير، وتعليق د. عبد القادر الريحاوي ص ٥٨، وهي الزاوية الشمالية الشرقية من دمشق القديمة^(٣).

(٣) عين الكرش: سميت محلة عين الكرش بهذا الاسم نسبة إلى نبعة ماء تسمى عين الكرش، غير أن موقع العين لم يكن في الحي المذكور وإنما كانت جنوبي المدرسة الحافظية تحت نهر ثورا، وكان مأوها يجري في قناة إلى محلة عين الكرش، واليوم زالت النبعة وبقي اسمها شائعاً ينقل بالتواتر الشفهي^(٤).

(١) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، مصدر سابق، ص ١٣٨ هـ (٨).

(٢) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، مصدر سابق، ج١، ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) كارل ولتسينجر، وكارل واتسينجر، ص ٥٨، ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد ص ٢٣٥، ولكن هنا ذكرت الزينية في حي الأكراد. دمشق، دراسات تاريخية وأثرية، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ١٩٨٠، ص ١٠١ هـ (٣) من مقالة لأحمد طربين بعنوان مظاهر من عمران دمشق في القرن التاسع عشر، وقد جاء في الهامش المشار إليه سابقاً، أن عين الزينية كانت في محلة القصاع يشرب الناس منها ومن سواها قبل ظهور عين الفيجة.

(٤) أحمد إيبش، قتيبة الشهابي، معالم دمشق التاريخية، ص ٤١٨، قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص ٩٢. ثمار المقاصد، ص ١٣٠، المروج السندسية، ص ١١. محمد كرد علي، غوطة دمشق، ط٢، ١٩٥٢، ص ١٧٣. الدارس في تاريخ المدارس ج١، ص ٤٠٨، مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٥٢/٢٧ ك٢ ص ٢٣٨، من مقالة بعنوان: أرجوزة في محاسن دمشق، نظمها ابن خداويردي، بقلم صلاح الدين المنجد.

ووردت العيون السابقة بالسجلات التالية^(١).

- الأسواق بدمشق:

(١) سوق القباقيبية: كتبة الوثائق كتبوا محلة القباقيبية ولكني لم أعثر في المصادر على محلة بهذا الاسم، بل هناك سوق القباقيبية، وكان سوق القباقيبية الأول في حي العمارة الجوانية، داخل باب الفراديس إلى الجنوب من النحاسين والشمال من حصن جيرون، والزاوية الشمالية الشرقية للجامع الأموي، ويعرف أيضاً بسوق القباقيبية العتيقة وقد درس. أما الثاني، فهو سوق القباقيبية الذي لا يزال على امتداد الجدار الجنوبي للجامع الأموي، تبدل اختصاصه اليوم من صناعة وبيع القباقيب إلى النجارة العربية، ومحال للصياغ والعاديات الأثرية^(٢).

(٢) سوق الدرويشية: سمي بهذا الاسم نسبة لجامع درويش باشا. ويمتد من مدخل سوق الحميدية حتى جامع السنانية في باب الجابية، وكان سابقاً يعرف بسوق الاختصاصية وسوق الاختصاصيين.

(٣) سوق باب البريد: هو سوق (مسقوف بسائر هرمي من الحديد والتوتياء، يمتد بين النهاية الشرقية لسوق الحميدية قبالة جادة سوق الحمير وزقق الكلاسة باتجاه جنوبي شمالي)^(٣).

(١) السجل ٢ مشوش: وثيقة ٣٢٦، ص ١٧٣، السجل ٣ مشوش: وثيقة ٦٣٦، ص ٢٥٧، وثيقة ٧٨٦، ص ٢٨٠، السجل ٢٥: وثيقة ٣١٢، ص ١٧٥.

(٢) ابن طولون، مفاهمة الخلان في حوادث الزمان، جـ ٢، ص ١٠٤، ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص ٢٦٦. مجلة الشرق ١٩٣٩/٣٧ ص ٢٦ من الخزنة الشرقية، ابن المبرد يوسف بن عبد الهادي، نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، بقلم حبيب الزيات. قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، جـ ٢، ص ٤٦٤. المنجد، خطط دمشق، ص ٥٠، القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ٩٩. قتيبة الشهابي، أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية، وزارة الثقافة ١٩٩٠ ص ٣٥٥.

(٣) قتيبة الشهابي، أسواق دمشق، ص ١١٥، لطف السمر، جـ ١، ص ١، منتخبات التواريخ لدمشق، الحصني، جـ ٣ ص ١١١٤، خلاصة الأثر في أعيان القرن ١١/ للمحجي جـ ٤ ص ٣٥٦. الروضة الغناء للقساطلي، ص ٩٨. مفاهمة الخلان في حوادث الزمان، جـ ١ ص ٥٠، مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٢٢/٢ ص ٢٥، تنمة محاضرة بعنوان حقائق تاريخية بقلم عيسى اسكندر.

(٤) السوق العتيق: يمتد بين النهاية الجنوبية لشارع الثورة وساحة سوق الخيل، ويوازي في استقامته سوق التبن، ويقع إلى الشمال المجاور لسوق التبن، وقد سماه القساطلي، سوق الخضروية^(١).

(٥) سوق السباهية: يقع هذا السوق ظاهر دمشق، بين حوانيت المحايرية والشكلية، جنوبي قلعة دمشق تجاهها، عمره والي دمشق العثماني أحمد شمسي باشا سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م، وقد درس^(٢).

(٦) سوق العبوين (العبي) أو سوق العبجية، أتصورها جميعاً تسميات لسوق واحد يقع تحت سوق البزورية، وقد سماه نعمان القساطلي سوق العبجية، وقال تباع فيه العبي^(٣).

(٧) سوق جقمق: كان يقع في موقع القسم الغربي من سوق مدحت باشا الحالي إلى الغرب من خان البركة (خان التكة) وتباع فيه الثياب والبز ما دون ما يباع بسوق الذراع، ينسب للأمير سيف الدين جقمق نائب السلطنة بدمشق في العهد المملوكي. ويقال أحياناً السوق الطويلة، نظراً لطول هذا السوق، وهو جزء من الطريق المستقيم القديم، وتباع به الديما والعبي، واليوم صار اسم سوق جقمق - سوق مدحت باشا وبقي بنفس التخصص^(٤).

(1) قتيبة الشهابي، المرجع السابق، ص ٤٨٠، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ص ٢٢٨، الآثار الإسلامية، والتسينجر ص ٩٥، الروضة الغناء لنعمان قساطلي، ص ٩٩، دمشق مطلع القرن العشرين للعلاف ص ١٨.

(2) خطط دمشق للمنجد، ص ٥٠، لطف السمر وقطف الثمر ج٢، ص ٦٥٣، هـ ٤. نزهة الخاطر وبهجة الناظر القسم الثاني ص ١٧١ هـ (١)، قتيبة الشهابي، معجم، ج٢، ص ٣٧.

(3) الروضة الغناء للقساطلي، ص ٩٨، ثمار المقاصد لابن عبد الهادي، ص ٢٦٥. لطف السمر ج٢، ص ٦٥٤، دمشق مطلع القرن العشرين للعلاف ص ١٣. الشهابي، معجم ج٢ ص ٤٤. مجلة المشرق ١٩٣٩/٣٧ ص ٢٣ مقالة مأخوذة من نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق ليويسف ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد، بقلم حبيب الزيات.

(4) الشيخ عبد القادر بدران، منادمة الأخلال ومسامرة الخيال، مصدر سابق، ص ٣٢٣، الشهابي، أسواق دمشق، ص ٢٤٦، لطف السمر وقطف الثمر للمقري، ج١ - ص ٤٠ هـ (١)، يوسف=

ووردت الأسواق السابقة في السجلات والوثائق الآتية^(١):

- **البايكة** : لفظ يطلقه الدمشقيون على مخزن بيع الحبوب، وفي حلب يسمى مخزن بيع الحبوب (خان الحبوب) وسميت البايكة بهذا الاسم نظراً لبروك البوائك فيها، والبايكة الناقة السمينية بالإضافة لكونها مخزناً كبيراً للحبوب كالقمح والشعير والذرة وهي كمستودعات خزن الحبوب واستراحة الجمال والدواب تتميز بسقوف مرتفعة وببوابات عالية عريضة مقوسنة على الغالب وأشهرها في الميدان^(٢).

وبالإضافة إلى ما ذكرته الوثائق من الرتب المهنية فقد كانت هناك وظيفة الباشي مثل قصاب باشي (رئيس القصابين) والذي كان ينتخب مثل حاملي المراتب العليا من قبل أفراد الطائفة الحرفية كان بحاجة إلى مصادقة الحاكم على انتخابه.. وعلى هذا فإنه كان من الممكن أن يكون أداة في يد الحاكم (الوالي مثلاً) الذي كان يسيطر على الطوائف، وكان أكبر أعضاء الطائفة الحرفية سناً يطلق عليهم اسم (الاختيارية). وكان باستطاعة الأعضاء أن يمارسوا مهنتهم فقط في الأماكن المخصصة مثل الطائفة^(٣)، ولم يكن باستطاعتهم فرض أسعار أعلى من تلك التي تحددها الطائفة الحرفية، وكان على المتدرب أن يسمى كفيلاً ليكفله قبل الانخراط بالعمل لكي يؤمن سلامة البضائع التي يعهد بها إليه،

= ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٢٥٨، نصر الدين البحرة، دمشق الأسرار، ص ٢٣٨، قتيبة الشهابي معجم جـ ٢، ص ٢٦، رسائل دمشقية، الإمام جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي حققها وقدم لها صلاح محمد الخيمي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ص ٨٨. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء للقساطلي، ص ٩٨. مجلة الشرق ١٩٣٩/٣٧ ص ٢٣ من مقال نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق ليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد بقلم حبيب الزيات، من الخزنة الشرقية.

(١) السجل ٤ مشوش: وثيقة ١٢٦، ص ٦٦، وثيقة ١٢٨، ص ٦٧، السجل ١٠ مشوش: وثيقة ١٦٠، ص ٧٨، السجل ٢٣: وثيقة ٦٠٢، ص ٢٩٦، السجل ٢٥: وثيقة بلا رقم (بين الوثيقتين ١٠٦ - ١٠٧) ص ٦٣، وثيقة ٢٦٣، ص ١٥٠.

(2) أحمد قدامة، معالم وأعلام في بلاد العرب، ص ١٠٧.

(3) Abdul Karim Rafeq, Economic Relations between Damascus and the Dependent Countryside. P. 658.

ولم يكن مسموحاً لصاحب المهنة أن يشتغل بمهنة أخرى أو صناعة أخرى غير صناعته، ولا أن ينتهك مصالح أي زميل من زملائه بالمهنة، وكان الاختصاص محترماً في كل المهن: فمثلاً كان بين الصبّاعين من هو مختص فقط باللون الأزرق الغامق، وكان التقلب بأسعار السلع يعزى بالدرجة الأولى إلى الاحتكار والاستغلال لا بسبب ارتفاع التكاليف أو الأجور. كانت المحكمة الشرعية تؤيد الوضع الراهن فكانت تأخذ جانب المعلم – الصانع ضد المتدرب – فكان القاضي مثلاً يرفض الطلب الذي يقدمه أحد المتدربين يطلب فيه رفع الأجر. والواقع أنه كانت هناك هوة واسعة بين ما كان يكسبه رب العمل والمتدرب. إذ كان المتدربون فقراء، وفي الحالات التي كان فيها المتدربون يعانون من تراكم الديون وكانوا يتعرضون فيها لمخاطر السجن، فإن القاضي الذي كان يأخذ بالحسبان حالة فقرهم المؤكدة، كان يوافق على دفع ديونهم على أقساط سنوية ووفق نسبة ثابتة معينة، كان معظم أرباب المهن يبيعون منتجاتهم ويؤدون أعمالهم مباشرة مع الزبائن، ولكن في بعض الحالات مثلاً كطائفة الحبالين المؤلفة من أعضاء مختصين في صناعة الحبال بالإضافة إلى آخرين مختصين ببيعها فلم يكن مصنعو هذه السلعة مسموحاً لهم ببيعها بأنفسهم، وكانت القوانين النازمة للمهن يتمسك بها تمسكاً شديداً من قبل أعضاء الطائفة بالإضافة إلى القاضي الذي كان يتبنى شعاراً له العبارة التالية: (الكرارات القرارات لا يخرج عليهم أي يجب ألا تخرق قوانين المهن.. كان التقيد بالعادة وتوطيد النظام مرغوبات مع أنهما كانا وبالمحافظة على الوضع الراهن من أكبر العوائق في سبيل أي محاولة للتحسين. وكانت القوانين المرهقة التي تقف في وجه التحسين في الإنتاج هي المسؤولة عن الفقر الذي كان يصيب العدد المتزايد من أرباب المهن. كان التقلب في أسعار⁽¹⁾ المواد الغذائية، مع ميل دائم ومستمر نحو الزيادة، وارتفاعها بصورة رئيسة نتيجة الاستغلال من جانب الولاة وحاشيتهم أو بطانتهم، لا بسبب نقص المحصول الذي كان من الممكن أن يؤدي لارتفاع محدود بالأسعار ولكن ليس للدرجة التي تحدثت عنها كتب الحوليات، كانت هذه التقلبات صفة بارزة من صفات الحياة الاقتصادية بدمشق خلال فترة البحث.

(1) Abdul Karim Rafeq, Economic Relations between Damascus and the Dependent Countryside. P. 659.

لم تكن الأسعار مرتفعة، ورغم ذلك فقد كان هناك تأفف من قبل العامة لأنه عندما كانت الأسعار تميل نحو الانخفاض كان يتدلل المضاربون يعمدون لرفعها، وسبب آخر من أسباب الأسعار العالية هو التخفيض المستمر المزمّن والتزييف للعملة^(١)، كانت بعض دور دمشق تحوي من الأسباب والأعيان الكثير، فمثلاً اشترى أحد الأشراف من رجلين من الأعيان وشقيقه أحدهما جميع الأعيان والأسباب التالية:

(.. جميع الأسباب والأعيان المشتملة على /٥٠/ فنجان من الصيني، و /٥٠/ زبدية من الصيني، وخمسين صحناً من الصيني، وخمسة قفاطين، وخمسة لحف وبر، وخمسة لحف حرير مقصب وبر، وجبتين مقصب، وشرقيتين مقصبتين، ولباسين مقصبتين، وغنبازين مقصب، وغنبازين خصاي (إنني أحاول أن أبقى الكلمات كما وردت في الوثيقة فقط أضع الفواصل) ومختنين مزركشتين وبستيه مقصبة، وثلاثة لبابيد جدد، وثلاثة لبابيد كهنة، ولباد ديواني وطنفسة، ومختنين ذربا، ومختنين وزبفت، ومختنين خارة، وخمسة مخاد ريحاوي، ومختنين مخمل، وسقبة مزركشة، وستة عشر صحناً من النحاس، وأربعة تتاجر، وحلة كبيرة، وطشت نحاس، وطبق نحاس، وأربعة صحنون نحاس كبار، وأربعة صحنون نحاس صغار، وطشت حمام، وأربعة أغطية نحاس، وصدر كبير نحاس، وثبسية (أي صحن) وستة شماعدين، وستة طاسات نحاس وطشت، ومنارة، وإبريق نحاس وجرشف مقصب، وثلاث فرش، وخمسة عشر قالب مخدة وتسعة منادر^(٢) (أي مخاد) وستة بيسائق، وبقجة مقصبة، وزوج أساور ذهب مبروم، وزوج أساور ذهب عريض، زنة ذلك سبعون مثقالاً، واصطفان وزنار ذهب بأحجار معدن) .

ومن الواضح أن هذه العائلة التي كانت تمتلك هذا الكم من الأدوات المنزلية بالإضافة للذهب هي عائلة غنية في فترة دراستنا وقد بيعت جميع تلك الأدوات بالإضافة

(١) المرجع السابق، ص ٩٥٩.

(٢) السجل ٢٥: وثيقة ٧٧، ص ٤٧.

للذهب بمبلغ /٩٠٠/ تسعمائة غرش فضة، وإذا علمنا أن نصف دار بزقاق المليحي قد بيعت كاملة بمبلغ /٧٥/ (١) خمسة وسبعون غرشاً أي أن الدار كاملة بـ /١٥٠/ غرشاً، علمنا عندها كم كان ثمن تلك الأدوات المنزلية كبيراً.

إذا ألقينا نظرة إلى جداول الشراء في الفترة الأولى بالمدينة نجد أن النساء العاديات بلغن القمة حيث كان عددهن /٣٥/ في حين كان العسكريون والحجاج متساوين حيث بلغ عددهم /١٣/ لكل فئة كما أن الشيوخ كانت نسبتهم أيضاً /١٣/ وكان الأشراف ٦ ولكن نلاحظ أن الحجاج كانت فعاليتهم الاقتصادية أقوى من العسكريين والشيوخ على الرغم من تساويهم بالعدد ذلك أن المشترين لدى الحجاج بلغ عددهم ٨ والبائعين خمسة، في حين بلغ عدد المشترين لدى العسكريين ٤ وعدد البائعين ٩ ويدلنا هذا على إجماع هؤلاء العسكر في الانخراط بشكل قوي في عمليات الشراء وكانت نسبة المشترين من الشيوخ كذلك منخفضة فقد بلغ المشترون ٥ بينما البائعون ٨ ويدلنا هذا على قلة الإقدام على عمليات الشراء بالنسبة للبيع ولكن مما يلفت النظر النسبة العالية من النساء العاديات حيث بلغ عددهن كما قلنا /٣٥/ ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت المشتريات /١٢/، والبائعات /٢٣/ أي الضعف تقريباً إذن كانت فئة الأشراف من المشترين /٤/ والبائعين /٢/ ونلاحظ أن عدد المشترين ضعف البائعين، وهذا يدلنا على أريحية واستقرار فئتي الأشراف والحجاج في الفترة الأولى من البحث ١٠٨٦-١٠٩١هـ /١١٠٧-١١١٢م على أن الأمر الذي استرعى انتباهي في هذه الفترة كان نسبة المسيحيين من الرجال الذين انخرطوا في عملية البيع والشراء وتفوقت نسبة المشترين /٦/ على البائعين /٥/، على أن النساء النصرانيات وعلى الرغم من كثرة عددهن الذي بلغ /٦/ نساء إلا أنهن كن من البائعات ولم تكن هناك مشتريّة وهذه سلبية كاملة بالنسبة لهن للانخراط في الفعالية الاقتصادية، وبالنسبة للقرى في الفترة الأولى كان القرويون أحسن حالاً إذ بلغ عدد المشترين /١٦/ وعدد البائعين /١٥/ أي أنهم كانوا في حالة نشاط اقتصادي أفضل. وتفوق الحجاج هنا على الشيوخ إذ كان لدينا فقط ثلاثة مشترين من الحجاج من دون أن يكون هناك بائع، أي أن رغبتهم في الاستقرار كانت أقوى وعدد الشيوخ في القرى في هذه الفترة الأولى اثنان

(١) السجل ٢٥: وثيقة ٢٣١، ص ١٣٤.

من المشترين واثنان من البائعين هذا وفي هذه الفترة الأولى كان عدد القرارات السكنية ٨٢ ١/٢ قيراطاً والتمن ٣٠٣٠/ بينما كان عدد القرارات في العقار الزراعي ٨٢ ١/٢ قيراطاً والتمن ١٠٨/ وكان حال العقارات التجارية أفضل نوعاً ما من الزراعية إذ بلغ عدد القرارات ٢٣٤، والتمن ٤٠٠ ويمكننا أن نقول عن الفترة الأولى عموماً إنها كانت فترة كساد وخمول اقتصادي وقد يعود السبب لعدم الاستقرار السياسي في دمشق فكانت بداية للهزائم العثمانية في النمسا بهذه الفترة باكراً جداً على الولاة في دمشق قيادة قافلة الحج الشامي وقتل كثير من قادة الإنكشارية المحلية.

أما في الفترة الثانية لعمليات البيع والشراء بدمشق والريف ١١٠٧-
١١١٢هـ/١٦٩٥-١٧٠٠م فقد اختلفت الأمور بشكل بارز بالنسبة لبعض الفئات وصحيح أن عدد الحجاج بلغ ٢٤/ حاجاً وهو أكثر من عددهم في الفترة الأولى بكثير ولكن نجد أن البائعين من الحجاج ثلاثة أضعاف المشترين منهم وليس هذا فال حسن بالنسبة لهذه الفئة فهل كان الحجاج في حالة عوز مثلاً حتى نجد أن عدد المشترين منهم ٦/ بينما البائعون ١٨/ أي أن الفترة الثانية بالنسبة للحجاج لم تكن أبداً مناسبة. أما العسكريون فقد تحسن وضعهم في هذه الفترة إذ بلغ مجموعهم ٣٥/ وعدد المشترين ١٥/ والبائعين ٢٠/ ولكن هذه النسبة أفضل من الفترة الأولى بكثير، وارتفعت نسبة النساء العاديات المنخرطات في العملية الاقتصادية لتصل إلى ٥٦/ وهي نسبة عالية جداً من حيث العدد ولكن نتائجها أسوأ من الفترة الأولى إذ كان عدد البائعات هنا خمسة أضعاف المشترين وعموماً فإن هذه الفترة الثانية شهدت ما نستطيع أن نقول عنه أزمة اقتصادية فكم كان الكساد مستشرباً حتى تكون نسبة الفئات البائعة للعقارات أكثر بكثير من النسبة المشترية. فقط كان هناك توازن بالنسبة للمرأة النصرانية حيث بلغ عدد المشتريات ٢/ والبائعات ٢/ وذلك عكس الفترة الأولى حيث لاحظنا الآن مشاركة متوازنة في العملية الاقتصادية. والأشراف كذلك كانت نسبتهم قليلة هنا إذ بلغ عدد المشترين ٣/ وعدد البائعين ٤/ وهي نسبة تكاد تكون متساوية ولكنها خجولة بالنسبة للمشاركة في العملية الاقتصادية. ولفت نظري هنا كثرة القاصرات اللاتي بلغ عددهن التسع منهن مشتريه واحدة فقط والقاصرون بلغ عددهم ٢٢/ اثنين وعشرين منهم ثماني من المشترين فقط وضعفهم تقريباً أما في

العقارات فكانت العقارات السكنية قد شهدت تراجعاً بمجموع القرارات والتي بلغت /٦١٤/ مقابل ٦٥٩ ١/٢ قيراطاً في الفترة الأولى ومقابل عدد العقار السكني الذي انحدر هذا الانحدار المروّع من /٣٨/ قيراط في الفترة الأولى إلى /٢٨/ قيراط في الفترة الثانية ولكن ثمن العقار ارتفع إلى ضعف فمن ٣٠٣٠ في الفترة الأولى إلى /٧٩١٢/ على الرغم من النقص في عدد العقار بالنسبة للفترة الأولى، ولكن ظاهرة الإحجام عن المشاركة في الاستثمارات الزراعية والتجارية تقريباً مما يلفت النظر فلم يكن في الفترة الثانية إلا عقار رراعي واحد، وعدد القرارات /٢٤/ والتمن ١٠ غروش وهذا الرقم يعدّ سيئاً جداً بالنسبة للفترة الأولى، وانخفضت التعاملات في العقار التجاري إلى الثلث تقريباً، أما في الأمور الأخرى فعلى الرغم من زيادة عدد القرارات بشكل كبير جداً وكذلك زيادة عدد العقار إلا أن الثمن بقي تقريباً محافظاً على نفسه في الفترة الأولى مع زيادة طفيفة في الفترة الثانية، وهذا يدل على أن نوعية العقار لم تكن بالجودة التي كانت عليها في الفترة الأولى ولكن التطور الأبرز كان في قرى الفترة الثانية في العقار السكني والزراعي خاصة فارتفع الثمن من /١٠١/ في الفترة الأولى إلى /٣٦٦٦/ في الفترة الثانية بالنسبة للعقار السكني وهذه نسبة لا تقارن فهل كان للعسكريين دور في هذه الاستثمارات ولا سيما أن أوضاعهم أخذت تتحسن بدمشق في هذه الفترة الثانية والأمر نفسه يقال عن العقارات الزراعية التي ازداد استثمارها في الفترة الثانية أضعافاً عن الأولى ولكن في هذه الفترة الثانية أيضاً كانت قرى دمشق محرومة من الاستثمار التجاري وربما طبيعة الريف الزراعية لها الدور الأكبر في ذلك وزادت العقارات واستثمارها أيضاً في الأمور الأخرى عنها في الفترة الأولى، سواء بالنسبة لعدد العقار أم مجموع القرارات أو الثمن، وبعد الحصول على أعداد العقارات الزراعية والسكنية والتجارية والأخرى نجد أن الأمور في الفترة الثانية قد تحسنت عنها في الفترة الأولى ولكن ما عدا العقارات التجارية.

أما في عمليات الاستئجار بالفترة الأولى في مدينة دمشق فقد كان المعلمون بالفترة الأولى /٤/ مستأجرين، و /١/ مؤجراً واحداً، كانوا على الرغم من عددهم القليل أكثر اندماجاً وفعالية اقتصادية. أما الشيوخ فقد بقيت نسبة المستأجرين أقل من المؤجرين، والأمر نفسه يقال عن الحجاج، أما فئة جلبي فقد كان عدد المستأجرين /٤/ وأحد عشر من المؤجرين، وبرأيي فإن الأبعاد في الاستئجار تختلف عنها في البيع والشراء، ففي رأي

بعضهم أن قلة عدد المستأجرين وكثرة عدد المؤجرين ظاهرة صحية ولكن برأيي الشخصي فالأمر مختلف قد يكون كثرة عدد المستأجرين دلالة ازدهار اقتصادي مثلاً. أما أن يلجأ الإنسان إلى أن يؤجر فلا نستطيع دائماً أن نقول عنه أنه فعال في العمليات الاقتصادية وكان عدد العسكريين المؤجرين /٥/ والمستأجرين /٤/ وعدم إقدام هؤلاء العسكريين بالمغامرة الاقتصادية سواء كبائعين ومشتريين أو كمستأجرين ومؤجرين في هذه الفترة الأولى يرسم أكثر من إشارة فالوضع الاقتصادي في الدولة العثمانية بهذه الفترة كان سيئاً خاصة إثر الهزائم التي منيت بها القوات العثمانية أمام أسوار فيينا، واضطرار العثمانيين للتوقيع على أول معاهدة (كارلوفيز) كمنهزمين. والأوضاع في دمشق لم تكن أفضل وإنني أرى أن العسكريين في دمشق في فترة الدراسة كانوا موغلين في نهب وسلب واحتكار المواطنين العاديين وإننا إذا رأينا أن عددهم هنا في جداول البيع والشراء وهناك في جداول الاستئجار أقول إذا كان عددهم قليلاً فليس معنى ذلك أنهم سلبيون أو منكفئون والقصة أنهم يتحينون الفرص للانقضاض وسلب الفلاح أرضه بقي الأشراف على وضعهم الإيجابي حيث عدد المستأجرين أكثر من المؤجرين. والقاصرون وعددهم /٧/ كان أكثرهم مستأجرين، وإنني أرى أن أعداد القاصرين والقاصرات المرتفع يدل دائماً على وجود خلل لأنهم بمعظمهم أيتام وربما أن جائحة اجتاحت دمشق فمات العدد الكثير وأصبح القاصرون أيتاماً ومضطرين للتعامل الاقتصادي، وعلى الرغم من عدد الرجال العاديين الكبير /١٧/ رجلاً إلا أن المستأجرين كانوا ثلاثة فقط، وفي الفترة الثانية فقد ازداد عدد المستأجرين من /٤٠/ في الفترة الأولى إلى /٥٠/ في الفترة الثانية ١١٠٧ - ١١١٢هـ/ ١٦٩٥ - ١٧٠٠م، وكما توقعت فقد قفز العسكريون في الفترة الثانية قفزة كبيرة فمن /٩/ في الفترة الأولى أصبحوا الآن في الفترة الثانية /٢٠/ ولكن بقي عدد المؤجرين أعلى من المستأجرين وبالنسبة للعسكريين ليس ذلك دلالة عز وحرمان. وعادت النساء العاديات إلى الواجهة مرة أخرى إذ بلغ عددهن /٢٣/ منهم /١٥/ مستأجرات وهذا يدل على نشاط اقتصادي قوي لدى هذه الفئة التي كانت تحضر إلى المحكمة وكثيراً من المرات دون وكيل. وفئة جلبي حافظت على نسب الاستئجار والتأجير ولكن هبط العدد إلى أقل من النصف.

وأما فيما يتعلق بالقرى في الفترة الأولى كان هناك /٧/ مستأجرين و /٢٢/ مؤجر، ازداد في الفترة الثانية إلى /٢٤/ مستأجر و /٢٦/ مؤجر وكان الأشراف في الفترة الأولى والذين بلغ عددهم /٣/ مستأجرين أكثر من كونهم مؤجرين وحافظ المعلم على نسبته ١/١

وكذلك الحجاج ٢/٢ ولكن العسكريين على الرغم من قلة عددهم ٢/ في هذه الفترة الأولى إلا أنهم كانوا جميعاً مشترين وهذه ظاهرة تدلنا أنهم أي العسكريين قد بدؤوا بالتعاطي مع الريف بشكل فعال.

ولكن في الفترة الثانية ازداد عدد العسكريين من ٢-٦ وكان المستأجرون نصف والمؤجرون نصف ٣/٣ أي هناك توازن والحجاج ٤/ مستأجران اثنان ومؤجران اثنان ولكن ازدادت نسبة جلبي.

سأكتفي الآن من دون التعليق على العقارات المؤجرة لأن مغزى الاستئجار ليس فاعلاً كمغزى البيع والشراء. فالاستئجار قد يكون مؤقتاً ومن الصعب أن نبني عليه معلومة اقتصادية، لكنه يسهم في تنشيط حركة البيع والشراء أي أنه ربح سريع وفجائي استناداً إلى ما ورد في الوثائق^(١).

(١) السجل ٨٧، وثيقة ١٢٠، ص ٢١٣.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في دمشق

١ - المظاهر الدينية الثقافية والخدمية.

٢ - الواقع الاجتماعي .

٣ - أهل الذمة .

الحياة الاجتماعية في دمشق

١- المظاهر الدينية الثقافية والخدمية:

دمشق مدينة عُرِف التاريخ بها، ومنها اشتهر رواد الحركة العلمية والثقافة، ولهذا فلقد فشل الغزاة قديماً وحديثاً على التأثير فيها، فخرجوا منها محملين فضائلها الكثيرة، وبعدّ العثمانيون أكثر الغزاة الذين تمكنوا من إخضاعها سياسياً لسيطرتهم، لكنهم عجزوا عن تغيير بنية المجتمع الدمشقي عرقياً أو لغوياً، ولم يتمكنوا من التدخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في منهج حياتها المعيشية ، ولا في تقاليدھا التي صاغوها من واقع حياتهم^(١).

نحن نعمد إلى التحدث عن واقع دمشق من خلال الفئة الحاكمة والمحكومة، فالنظم العثمانية إن لم تكن واحدة فعلى الأقل لا تختلف عن بعضها بعض في أية إيالة (ولاية) ولم تكن دمشق إدارياً تختلف عما اعتمده العثمانيون من نظم لتعميق سلطانهم فيها أو في بقية الولايات التابعة لها^(٢).

إن دراسة الحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال فترة الدراسة وما بعدها، تركز على دراسة الطبقات الحاكمة العليا في المجتمع العثماني، وقد قسمت إلى فئتين رئيسيتين أولها فئة أهل السيف وتتمثل بالوالي وضباط الإنكشارية، والفئة الثانية أهل القلم وأبرزها الدفتردار وقاضي قضاة الأحناف ونوابه من المذاهب السنية الأربع^(٣).

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٢.

(٣) جودت باشا، مصدر سابق، ج ١ ص ٢٥١.

أمل السوريون بعامة والدمشقيون بخاصة من قدوم العثمانيين خيراً، لكن المكوس والضرائب زادت عما كانت في عهد المماليك، وتفاقت أوضاع الأهالي نتيجة للنهج الضرائبي الذي سلكه العثمانيون خلال مرحلة حكمهم، وقد تباينت مواقف الدمشقيين من حيث تبادل الزيارات التي تُعدّ سمة من سمات المجتمع الدمشقي، علماً بأن عادة الزيارات سائدة في مختلف المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية إلا أن الدمشقيين يقيمون لها وزناً خاصاً بهم.

لقد فطر أهل الشام على المروءة وعمل الخير، فهم يسارعون أكثر من غيرهم من المناطق الأخرى إلى مساعدة من بحاجة إلى مساعدة من دون الإشارة من صاحب الحاجة، كذلك فهم يحافظون على الذمة والشرف، وهي بالأصل عادة عربية متأصلة بهم كابرًا عن كابر، ومن الملفت للنظر أنه إذا أفلس تاجر وهي من النوادر أو قضى نحبه، فإن دائنيه يجتمعون وأيضاً ذوو العلاقة معه، ويحسبون ما له وما عليه، فإذا ساوت موجوداته ديونه، هان الأمر، وإذا نقص فهم يتبرعون له بما نقص في الحال ويبرئون ذمته.

إن القارئ للتاريخ وخصوصاً ما يتعلق بالمجتمع الدمشقي لا يجد تبايناً كبيراً ما بين ما كان سابقاً قبل العثمانيين وفي أثناء سيطرتهم، فالحياة الاجتماعية ظلت على حالها تقريباً لأكثر من ثلاثمئة سنة، غير أن المجتمع يخضع تطوره بالدرجة الأولى إلى نشر العلم والثقافة بين أفرادها، وإذا كانت المدارس سابقاً عبارة عن كتاتيب، فلقد تطورت في العهد المملوكي أكثر ما كانت سابقاً، وزاد تطورها في العهد العثماني، أما الشؤون العامة للمجتمع الدمشقي كانت دينية صرفاً، ومناسباتها هي عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد المولد النبوي والأشهر الحرام، وذهاب الحج وعودته عن طريق البر، وما يصاحب ذلك من احتفالات بهية^(١).

أما الشؤون الخاصة فقد اقتصرت على الزواج والولادة وختان الذكور وختمة الصبي بعد إتمام دراسة القرآن الكريم، ثم الوفاة، وما بين هذه وتلك كانت السهرات التي تتم في المناسبات الوطنية والقومية أو الشخصية^(٢).

(١) نجاة قصاب حسن، الحياة الاجتماعية في دمشق، مجلة العمران ١٩٦٦، دون عدد، ص ٢١٥.

(٢) رأينا الإشارة إليها، وآثرنا عدم التوسع بها لكثرة الكتاب في هذا الشأن، لأننا لن نأتي بجديد، وإنما عمدنا إلى أخذه من مصادره ومراجعته، وقد اكتفينا بذلك. (الباحث).

لقد أشار الصالحي الدمشقي في مؤلفه المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية في فقرة الحياة الاجتماعية إلى أن طبقة الحكام التي قُسم المجتمع على ضوئها هي الطبقة المتنفذة والمستغلة. في حين أشار إلى أن طبقة عامة الشعب طبقة محكومة تطبق عليها وبحقها القوانين والأوامر وتتحمل هموم السلطة وتصرفات أولياء الأمر من الحكام وذويهم^(١)، ولم يلتزم العثمانيون بوصايا المؤسس عثمان ١٢٨٩-١٣٢٦ حيث قال لابنه «يا بني إن العدالة هي حماية الفقير من رجال بلاطك وسلطتك» وأضاف قائلاً: «يا بني القانون وضع لمنع أصحاب الشأن ورجال السلطة من دخول بيوت الفقراء، فهل تلتزم بذلك»^(٢).

أما عامة الناس في دمشق فكانوا من الفلاحين العاملين في الزراعة في ضواحي دمشق وبساتينها الكبيرة، أما الحرفيون والتجار والمنتسبة (البائعون الصغار) فهم أيضاً يعدّون من عامة الناس، وقد عدّ الصالحي الدمشقي القابي قول من ضمن الحرفيين والتجار، وأشار إلى أن لكل حرفة طريقة خاصة بها ولها رئيسها^(٣).

تفيد معظم المصادر والمراجع أن دمشق استوعبت أعداداً من الغرباء الذين شكلوا مع مرور الزمن تجمعات خاصة بهم، واختاروا لهم شيخاً، وذكر الصالحي الدمشقي أن للمغاربة زاوية تحمل اسمهم سميت بزاوية المغاربة^(٤).

لقد شهدت دمشق عبر تاريخها طرقاً صوفية كثيرة غير ما أوردته الوثائق، لقد تعرفنا إلى بعضها سابقاً، أمّا ما أوردته عن وجود جماعات دينية منظمة في غير الطرق

(١) لزيادة الاطلاع، محمد كرد علي، خطط الشام ج ٦ ص ٢٧٦، ومحمد عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية وغيره من عشرات المراجع والمصادر.

(٢) أولياء شلبي، الدرر الثنية في السلطة العلية، مخطوط رقم ٢٨٧ ورقة ١١ مكتبة نور عثمانية.

(٣) محمد بن حسن بن كنان الصالحي الدمشقي، المراكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، مراجعة محمد المصري، دمشق، ١٩٩٣.

(٤) النعيمي، الدارس، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠٤.

الصوفية، فيتمثل هناك جماعات العقلية الداوودية، وشيخها محمد سعيد خادم سيدي بلال الحبشي، وكان في هذه الجماعة ملازمون يقرؤون القرآن ولها أوقاتها أيضاً^(١).

أما فيما يتعلق بالطوائف الحرفية، فلقد انتظمت الفئات الاجتماعية في تنظيم اجتماعي، له تنظيمه الخاص، ويتضح لنا من خلال قراءة أسمائهم معرفة وطنهم الأصلي مثل الحلبي، الرومي (من تركيا)، الحمصي، الخليلي، النبكي، التلي، المصري، الصالحي، الموصللي، الداغستاني، الماوردي، الحموي، الحوراني، السرميني، النابلسي، البغدادي^(٢).

كما عثرنا في وثائق تلك المرحلة على حالات اجتماعية متنوعة ومتعددة، مثل ظاهرة بيع الجواري، ومنه بائعات الهوى، كما أشارت الوثائق إلى أسواق المدينة مثل سوق الحمير الكائن تحت القلعة، وسوق القوافين الكائن غربي الجامع الأموي، وسوق المناخلية بباب الفرّج، وسوق الأدميين الكائن أيضاً تحت القلعة، وسوق السباهية^(٣)، وقد تم إلغاؤه بعد ١٨٢٦م، وقد شكلت هذه الأسواق عدا عن الفوائد الاقتصادية ترابطاً اجتماعياً أسفر عن حدوث زواج متبادل ما بين المناطق داخل دمشق ومع ريفها ومع الغرباء أيضاً^(٤).

كما كثر الحراك الاجتماعي بشكل ملحوظ لأن هذه الأسواق درج بائعوها على الاستمرار في فتح محلاتهم التجارية حتى ساعات متأخرة من الليل، ولم نعثر في وثائق هذه المرحلة عن حدوث أعمال سرقة أو اغتصاب أو ضرب^(٥). وتفيد تلك الوثائق أن تلك الفئات الاجتماعية الدمشقية والغربية عن المدينة قد انصهرت فيما بينها^(٦).

لقد أسهمت الخانات في زيادة التبادل التجاري، حيث تحولت تلك الخانات إلى ما يشبه شركات تعقد فيها الصفقات التجارية، ومنها وفيها تباع البضائع وتشتري، ومن

(١) السجل ١٧٠، وثيقة ١٧٣، ص ١١٤.

(٢) السجل ١٢٣ ووثيقة ٣٠، ص ١٩.

(٣) السجل ١٦٨ ص ١٤١، ص ٣١٢٣ والسجل ١٧٠ ووثيقة ١٥٠ ص ٩٢.

(٤) السجل ١١٧ ص ١٨٨ والسجل ١٥٥ ووثيقة ٤٦ ص ٢٨.

(٥) السجل ١٣٤ ووثيقة ٧٣ ص ٣٧.

(٦) السجل ١٣٥ ووثيقة ٢٥٩ ص ١٥٨.

خلالها تتم إقامة علاقات تجارية مع المدن الأخرى ومع بقية المناطق العربية مثل عمان، مكة والمدينة والطائف والقدس والاسكندرية والقاهرة، وتفيد تلك السجلات عن وجود تجار مغاربة وتجار لبنانيين بكثرة، وكان تجار طرابلس الشام من أكثر التجار نشاطاً، فلقد عملوا وسطاء ما بين تجار حلب وبيروت، وضمنوا القوافل حتى جسر الشغور، في حين تعهد الحلبيون بإيصالها إلى حلب ومنها إما إلى بيرة جبك أو البصرة في العراق، أما المصادر العثمانية فقد أفادت أن البضائع القادمة من بيروت وطرابلس الشام، ودمشق كانت الشركة البريطانية هي التي تمتد بعض التجار بالأموال اللازمة^(١).

ومن الخانات التي أوردتها وثائق المحكمة الشرعية، خان منطقة الأسواق، كما وجدت خانات متفرقة في مختلف أنحاء المدينة بعضها لرجال الأعمال من التجار وبعضها الآخر للدواب والمكاريه وبعض الفقراء، وكما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخانات قد أسهمت في جعل مدينة دمشق محطة مهمة لتوافد التجار إليها من مختلف المناطق البعيدة بدءاً من الأناضول وروسيا وأوروبا الشرقية وحتى الجنوب العربي مصر والحجاز، فضلاً عن المكانة الدينية التي تتمتع بها دمشق ولا سيما في موسم الحج حيث تصبح دمشق شعلة بشرية نشطة فالفقير فيها يأكل ويفرح وتغمره السعادة من قبل انطلاق القافلة حتى بعد عودتها بأسبوعين^(٢).

وقد تعرضت الوثائق إلى ذكر عدد من القاعات، والقاعة تطلق على مكان إقامة رئيس العائلة في البيوت الدمشقية، وغالباً ما تكون مستقلة عن غيرها، تجنباً من تطلع النساء لها، وتذكر المصادر العثمانية أن السلاطين العثمانيين فضلوا القاعة المستقلة التي يستقبل السلطان جلساءه وكبار قاداته للتشاور في بعض الأمور المهمة^(٣)، وقد ذكرت قاعة النشا بمحلة الدقاين، وقاعة النشا بمحلة الشاغور الجواني، وقاعة النشا بالقرب من سوق الصوف^(٤).

(١) السجل ١٣٤، وثيقة ٦١، ص ٣١، والسجل ١٣٥ وثيقة ٢٨٥، ص ١٥٨، والسجل ١٣٩ وثيقة ١٨١ ص ١٦٩.

(٢) السجل ١٤٢ وثيقة ٢٧٩ ص ١٣١.

(٣) أولياء جلبي، مصدر سابق، ص ٤٥٠. والأصح فإن اللفظة تكتب جلبي، معناها: الظريف - الجميل.

(٤) يعتقد أن هذه القاعات سميت بقاعة النشاء نسبة إلى صناعة النشاء، أما القاعة الواقعة محلة باب البريد، فلم تذكر الوثائق شيئاً عن استخداماتها، للمزيد، السجل ١٧٥ وثيقة ٦٣، ص ٣٠.

لقد ذكرت لنا الوثائق العديد من الدكاكين الدمشقية من أبرزها دكاكين سوق البزورية وسوق العبي وداخل باب الجابية في سوق القطن، وفي محلة باب سريجة ومنطقة القنوات والسويقة، وباب مصلى والشاغور البراني والقيبيات ومأذنة الشحم^(١).

تنوعت أماكن الدكاكين ومواقعها بحسب الدار المؤلفة منها، فبعضها بالدار الجواني وهي مخصص لنسيج الألاجا. وهناك دكاكين داخل الأحواش، ودكاكين أعدت للحياكة وللسماننة ودكاكين للرواسة (بيع رؤوس الغنم والخراف)، ودكاكين لنسج الحصر وللتجارة ولبيع الدخان وللسكافة ولا سيما بالشاغور البراني، كما أقيمت دكاكين لبيع القطن بالسويقة المحروقة^(٢).

كما عثرنا في الوثائق على الأحواش، وقد عرف الحوش باسم صاحبه مثل حوش صلاح، وحوش دغمش، وحوش غريب^(٣)، وبعضه سمي باسم جماعة مثل حوش العميان وحوش الحماصنة، وقد اشتمل حوش أقيم في القبيبات بشارع قيس على ساحة سماوية وبئر ماء واثنى عشر مسكناً^(٤)، كما وجد حوشان آخران في المحلة نفسها في زقاق أبي الخير، سمي الأول بالحوش الشرقي وشمل ساحة سماوية واثنى عشر مسكناً ودكان حياكة وقبة متهدمة ومنافع شرعية، بينما سمي الحوش الثاني بالحوش الغربي، وكان يشمل على ساحة سماوية وأربع قباب باللبن والطين، وقبتين متهدمتين ومنافع شرعية^(٥).

ويُفهم من هذه الوثائق أن تلك الأحواش كانت تجمع شمل عائلة قد يتجاوز عدد الأفراد (٥) شبان كبروا وشبوا وتزوجوا وسكنوا مع زوجاتهم في الحوش، ويخضعون لسلطة الأب المتمسك بالعادات والتقاليد العربية والإسلامية الأصيلة^(٦)، وكانت زوجات الشبان تحتج على هذا الواقع الاجتماعي، غير أن زوجها كان يلاطفها حيناً ويزجرها حيناً آخر، قائلاً لها: المصروف (الخرجية) بيد أبي وأنا لا أستطيع الخروج عن رأيه، فقد يغضب أبي وأمي مني ،

(١) السجل ٣١٧ وثيقة ٦١٥، والسجل ١٧٢، وثيقة ٤٦٧ ص ٢٠٠.

(٢) السجل ١٣٤ وثيقة ٧٣ ص ٣٧، والسجل ١١٨ وثيقة ١٠١ ص ٥٤.

(٣) السجل ١٤٢، وثيقة ٢٧٩، ص ١٣١.

(٤) السجل ١٣٤ وثيقة ٥٣، ص ٢٦.

(٥) السجل ١٣٢ وثيقة ٢٥٩، ص ١١٦.

(٦) السجل ١٦٧ وثيقة ٢١٩، ص ١٠٠.

وأنا لا أغضبهما أبداً، وبإمكانك أن تطلبي كل شيء ما عدا إغضاب والديّ عليّ. وهذه هي صورة اجتماعية تضامنية ما بين الأخوة والأب والأم^(١).

كما دلتنا بعض الوثائق على البوايك حيث وجدت في باب مصلى بايكة تشمل على ساحة سماوية ومربعين وكانت البايكة قد بنيت بقوس حجري، وهناك بايكة ثانية داخل الدار المذكورة بقوس حجري أيضاً^(٢).

وقد أوقف سليمان بك بن عبد الله عدة أوقاف منها (جميع عمارة البايكة بالشاغور الجواني تشمل ساحة سماوية وبركة ماء ورواقات وبوايك ومنافع شرعية)^(٣).

أما الأفران، فقد ذكرت لنا الوثائق فرنين، أحدهما في محلة باب المصلى والثاني بمحلة الميدان، وكان للوقف فيها حصص تزيد عن ٢٣ قيراطاً^(٤)، وهناك فرن البيك بمحلة القنوات. كذلك فقد دلتنا الوثائق على مصابغ لتلوين الأقمشة ذكر منها المصبغة التي أوقفها آمنة خانم بنت سليمان باشا في محلة الدقاقين، وهناك مصبغة بيت شحيرة، وهناك مصبغة العجمية داخل باب الجابية بزقاق القصارين^(٥)، لكن الوثائق لم تذكر لنا شيئاً عن الطواحين داخل دمشق، بل ذكرت لنا طاحونة في قرية الحسينية وطاحونة قرية المليحة، وعلى الرغم من شهرة طاحونة الشيخ رسلان، لكن الوثائق لم تذكرها، في حين ذكرت لنا مطحنة في كفر بطنا ومعصرة. ومن المظاهر الاجتماعية الأخرى وجود بعض الأسر الدمشقية قد حرمت من الأولاد، وكان بعضهم يقنع بحظه في الحياة، والبعض الآخر، كان يرفض البقاء من دون أولاد.

إن قراءة واعية لتلك الوثائق، وما تذكره من أحداث خاصة^(٦)، تجعل القارئ يشعر بمأساة هذا البيت الذي حرم ساكنيه من سعادة الأولاد، وسوف نسوق على ذلك ما ذكرته الوثائق.

(١) السجل ١٧٥ وثيقة ١٤٦، ص ١٦٠.

(٢) السجل ١٦٣ وثيقة ١٤٥، ص ٦٢. (البايكة بناء كبير لتخزين الحبوب بها).

(٣) السجل ١٩٦ وثيقة ٤١٤، ص ٤٣+٤٤.

(٤) السجل ١٧٢ وثيقة ١٠٢، ص ٤٤٧، لقد صورت لنا الوثائق قيام صاحب الفرن بحماية الحارة ونسائها وهي صورة من صور التآلف الاجتماعي.

(٥) السجل ١٧١ وثيقة ١٦٨، ص ٨٨.

(٦) السجل ١٤١ وثيقة ٦٦، ص ١٠٣.

زخرت الوثائق بالمعلومات التي تؤكد أن بعضاً من الأسر الدمشقية لم يكن لها أولاد، وبعضها الآخر كان لها ولد واحد، أو ولدان، وأحياناً أربعة أولاد، وكانت تطمح بأن يرزقها الله بأولاد آخرين، أي أننا نستطيع أن نقول عن مجتمع دمشق إنه كان مجتمعاً فتيماً، واشتركت الكثير من الفئات الاجتماعية بدمشق في هذه الظاهرة، كالأغوات، والحرفيين، والحجاج (بشكل أكبر) والنساء العاديات (من دون ألقاب) ^(١).

وننتقل الآن إلى ناحية اجتماعية مهمة في دمشق، ألا وهي كثرة الجوامع التي ذكرتها الوثائق وهي إن دلت على شيء، فإنما تدل على روح المحافظة والتدين التي سادت مجتمع مدينة دمشق فالدين رابط اجتماعي رئيس في حياة الإنسان، ومن أهم ما ذكرته الوثائق:

مسجد الشيخ زنكي في محلة الجديدة، بزقاق الأعجام، بناه نور الدين أبو القاسم محمود ابن زنكي بن مودود ^(٢) الذي توفي في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، ومسجد البريدي في محلة البريدي، وقد أنشأ مؤنذته الحاج أحمد بن عثمان النحاس ^(٣) في عام ٧٨٦هـ/١٣٠٨م، وجامع البزوري، أنشأه أبو بكر محفوظ بن معتوق البغدادي البزوري ^(٤)، وجامع القلعة (مسجد أبي الرداء) ^(٥)، وجامع العداس في محلة القنوات (خارج باب الجابية بالشابكية الآن) وقد

(١) السجل ١٤٤ وثيقة ٢٢٤ ص ١٩٧، ١٥ ذي الحجة ١١٦٧هـ/السبت ٥ تشرين الأول ١٧٥٤م. والسجل ١٤٦ وثيقة ٥٧١ ص ٢٧٤، غرة ربيع الثاني ١١٧٠/الجمعة ٢٤ كانون أول ١٧٥٦، والسجل ١٥٥ وثيقة ٢٣٤ ص ١٠٤، ٢٠ شوال ١١٧٢/السبت ١٦ حزيران ١٧٥٩، والسجل ١٥٦ وثيقة ٢٨٨ ص ١٣٩، ١١ رمضان ١١٧٣/الأحد ٢٧ نيسان ١٧٦٠، والسجل ١٥٧ وثيقة ٤ ص ٣، ٤ شعبان ١١٧٣/السبت ٢٢ آذار ١٧٦٠، والسجل ١٥٨ وثيقة ١٨٦ ص ١٠٤، ٢٤ شوال ١١٧٣، الاثنين ٩ حزيران ١٧٦٠، والسجل ١٦٩ وثيقة ٤٠٤ ص ٤٣+١٤٤، ١٦ محرم ١١٧٧/الأربعاء ٢٧ تموز ١٧٦٣، والسجل ١٧٣، وثيقة ٧٠ ص ٤٣، ١٥ شعبان ١١٨٠/الجمعة ١٦ كانون الثاني ١٧٦٧. إن ما قدمته الوثائق من معلومات اجتماعية متفرقة أمر مدهش لدرجة الضياع.

(٢) يوسف ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد، بيروت ١٩٤٣م، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٥) محمد بن طولون، قضاة دمشق، أو الثغر البسام في ذكر من تولى قضاء دمشق الشام، تحقيق صلاح المنجد ١٩٥٦، ص ٢٣٨.

تهدم^(١). وجامع سنان باشا في جادة السنانية الآن، ويسمى جامع السنانية أيضاً، ويعدّ من محاسن دمشق، وكان في موضعه مسجد يسمى مسجد البصل جدده سنان باشا وجعله جامعاً عظيماً^(٢). وجامع كريم الدين، ويسمى اليوم جامع الدقاق يقع في القبيبات^(٣)، أنشأه القاضي كريم الدين ٧١٨هـ/١٣١٨م، ومسجد المغيربية (خارج سور دمشق من جهة الغرب)^(٤)، لا يعرف من بناءه، وجامع الثابتية، في القنوات، أنشأه شمس الدين محمد بن عباس الجوشي^(٥) سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، ومسجد اللحام في محلة باب السريحة (وفي الزيارة الميدانية لهذه المحلة بتاريخ ١٩٨٩/١١/٢٦، وعلى الرغم السؤال عنه فلم يُعرف مسجد بهذا الاسم في المحلة، وقد جاء ذكره في الوثيقة مسجد اللحام فقط، وربما يكون المسجد نفسه قائماً، ولكن اسمه تغيّر)، وهناك جامع (سيدي الشيخ حسن الرفاعي)، وقد ورد في الوثيقة هكذا، دون تحديد موضعه، ولذلك فهناك عدة احتمالات: فقد يكون مسجد الرفاعي بمحلة الميدان الوسطاني^(٦)، وذكره الشيخ عبد القادر بدران في منادته^(٧)، حيث قال إنّ (أسلاف بني عجالات سكنوا بزواية الرفاعية، وهي زاوية شيخ المشايخ، عند مزار سيدي حسن ابن الرفاعي)، كما ذكر الصيادي في الروضة البهية^(٨)، جامع الشيخ حسن سعد الدين، وجامع الرفاعي.

(١) الغزي، نجم الدين محمد، لطف السمر وقطف الثمر، تحقيق محمود الشيخ، دمشق ١٩٨٦، ص ٤٨٣.

(٢) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ٢٢٧.

(٣) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال دمشق ١٣٧٩هـ، ص ٣٨٧، ولطف السمر، المصدر السابق، ج ١ ص ٢١٣ ح. ودهمان، في رحاب دمشق، ص ٨٢.

(٤) لطف السمر، المصدر السابق، ص ٣٣٩ ح. المحبي، خلاصة الأثر، من دون تاريخ، ج ١ ص ٤٥١.

(٥) منتخبات التواريخ للحصني ج ٣ ص ١٠٤٥، ومختصر التنبيه لعلوي ص ٢٣٥.

(٦) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، المصدر السابق، ص ٢١٨. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٧) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٨) أبو الهدى الصيادي، الروضة البهية، دمشق ١٣٣٠، ص ٢٣.

ثم جامع الخريزاتية في سوق مدحت باشا^(١)، (جددته دائرة الأوقاف الإسلامية وجعلت له محراباً).

أما المعلم الأهم من معالم دمشق، ورمز حضارتها الإسلامية، فهو الجامع الأموي^(٢) في وسط دمشق القديمة، كان في العهد الآرامي معبداً للإله حدد (إله العاصفة) وفي القرن الأول عندما ألحقت دمشق بروما، قام مقام هيكل حدد، معبد للإله جوبيتر، وفي العصر البيزنطي عندما أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية، تحول معبد جوبيتر إلى كنيسة باسم مار يوحنا المعمدان، وعندما فتح العرب دمشق سنة ١٣ هـ، تقاسموا الكنيسة مع المسيحيين، حتى كثر المسلمون، وضاق بهم المكان، فطلب الوليد من النصارى التخلي عن الكنيسة ليبنى مكانها مسجداً، ودفع لهم العوض، وشرع ببناء المسجد الكبير سنة ٨٧ هـ/٧٠٥م، حيث رفعت الكنيسة كلها، ولم يبق منها إلا السور الداخلي، وسمي الجامع بالأموي، لأن بانيه هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

ثم ذكر مسجد البركة، بالقرب من حمام الزهر في محلة السيدة عاتكة^(٣)، ويعرف بمسجد أبي شعر. وجامع السلوت (الكائن في محلة خان السلطان)^(٤)، ويعرف اليوم بمسجد عز الدين أبو جمرة. ومسجد العمري (في سوق الخراب)، لست متأكداً فيما إذا كان هو نفسه مسجد العمري الذي قال عنه ابن عبد الهادي في ذيل المقاصد إنه يقع في محلة باب توما - المسبك البراني. وقال إنه يرجع لعصر المماليك، ولم يبق منه إلا المنارة الحجرية العالية^(٥)، وفي وثيقة أخرى ذكر مسجد العمري^(٦) بالقبيبات، وهناك أيضاً مسجد حسان في محلة قصر حجاج،

(١) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ٢١٢.

(٢) مسجد دمشق، مهّد له ونشره، وعلق عليه صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٨، ص ٥. وانظر أيضاً: محمد بن محرز بن محمد الوهراني، المتوفي سنة ٥٧٥ هـ، رقعة الوهراني، ص ١٦، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٣٨٤ هـ-١٩٦٥م مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٣) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٤) الصيادي، الروضة البهية، مصدر سابق، ص ٢٢-٢٣.

(٥) ابن عبد الهادي، المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٦) السجل ١٦٨، وثيقة ٢٨٨ ص ١٢٥.

خارج باب الجابية، بناء الأمير نجم الدين بن مجد الإسلام أبو طالب محمد بن علي كرد^(١)، سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، وكان هناك جامع يلبيغا على الضفة اليسرى لنهر بردى (تحت قلعة دمشق، وغرب سوق الخيل، وشمالى ساحة المرجة) أنشأه الأمير سيف الدين يلبيغا الناصري^(٢) المتوفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، هدم منذ سنوات لإعادة تجديده في مكانه السابق. وجامع التوبة بالعقبة، أنشأه الملك الأشرف أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م (كان يعرف قديماً بخان الزنجاري، ولما كانت ترتكب الفواحش في هذا الخان، فقد أمر الملك الأشرف بهدمه، وبناء جامع التوبة مكانه)^(٣). وهناك جامع النيروزي، ويقع بالشويكة، شمال قبر عاتكة، بناء غرس الدين خليل التوريزي^(٤) سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م، وهناك مسجد علي الحبوبى، بسوق مأذنة الشحم^(٥)، والجامع المعلق، يقع خارج باب الفراديس بالعمارة الآن، ومحلّه يقال له بين الحواصل، أنشأه بردبيك، ويعدّ من أجمل أبنية دمشق الأثرية^(٦)، وفي الصالحية هناك الجامع الجديد، الذي يسمى جامع المظفري، أو جامع الحنابلة، أو جامع الجبل، وعندما شرع أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي في بناء الجامع في الجبل، أخذ ينفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود القلعي القاضي، وعندما نفذ ما عنده من المال (أرسل الملك المظفر كوكبرى ابن زين الدين كوجك صاحب أربل مالاً جزيلاً ليكملّه، فكمل)^(٧)، أما جامع الشيخ ضاهر، يسمى الآن مسجد الشيخ ضاهر، يقع في منطقة باب السلام، محلة الجورى، بالقرب من خان فتحي أفندي^(٨)، ومسجد الخانكية (ظاهر دمشق، محلة حقلّة عيسى)^(٩)، وكان مسجد غازي بمحلة الشيبانية^(١٠)، أما مسجد الجتر فيل، فيقع في سوق صاروجا^(١١)، وجامع المصلّى، بمحلة باب المصلّى، أنشأه الملك العادل سيف

(١) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

(٢) الغزي، لطف السمر، مصدر سابق، ج١، ص ٢٩٧ ح.

(٣) النعيمي، مدارس، مصدر سابق، ج٢ ص ٤٢٦، وثمار المقاصد، مصدر سابق ص ١٠٠.

(٤) الغزي، المصدر السابق، ج١ ص ٦٩ ح. لم أعثر له على ذكر في المصادر.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص ٣١٣.

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ٣١٣.

(٧) المصدر السابق، ج١، ص ٤٧ مقدمة، ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ١٥٢.

(٨) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٩) المصدر السابق، ص ٢١١.

(١٠) لم أعثر على ذكر له في المصادر والمراجع.

(١١) ذيل ثمار المقاصد، ص ٢٠٤.

الدين أبو بكر بن أيوب سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م وجعله لصلاة العيدين^(١)، وجامع جراح، يقع خارج باب الصغير بالشاغور البراني (في درب الجراح بمحلة سوق الغنم، كان يعرف بمسجد الجنائز، تهدم وقام بتجديده جراح المضحي، وقد جدد أيضاً في عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م ولا يزال عامراً)^(٢). وهناك مسجد الباشورة في الشاغور، باب الباشورة، وهو ملاصق للسور، كان يعرف بمسجد شجاع^(٣). وجامع القربي يقع في الشاغور - مزاز (وفي حديقة صحنه ضريح محمد القربي)^(٤). ويقع مسجد سليمان جلبي بمحلة سوق صاروجا^(٥)، وجامع الصابونية أو مسجد الصابوني الآن، أمام باب الصغير، كان سابقاً دار القرآن الصابونية (أنشأه المقر الجواجكي القضائي شهاب الدين أحمد بن علم الدين سلمان بن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني، ابتدأ في عمارتها سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م، وانتهى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م)^(٦). ويقع مسجد منجك في ميدان الحصى قبلي دمشق، أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك^(٧) حوالي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م، ومسجد القرشي ويقع في الميدان الوسطاني^(٨)، أما مسجد صهيب الرومي فيقع في الميدان - باب مصلى^(٩)، ومسجد محمد أفندي في سويقة صاروجا^(١٠)، وجامع الياغوشية في الشاغور الجواني، وهو جامع سياغوش باشا (بناه حسن باشا بن عبد الله المعروف بشوريزا، وذلك من أجل الوزير سياغوش باشا وعلى حسابه)^(١١)،

(١) الغزي، لطف السمر، مصدر سابق، جـ ١، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٦١.

(٣) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد ص ١٠٣، وذيل ثمار المقاصد، ص ١٩٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٦) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٧) الغزي، المصدر السابق، جـ ١ ص ٧٠ ح، وذيل ثمار المقاصد، ص ٢٥٥.

(٨) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، ص ٢٤٥.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(١٠) لم يرد لهذا المسجد ذكر في الوثائق التي اطلعت عليها ولا في المصادر.

(١١) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ١٥٨، ولطف السمر، جـ ١، ص ٢٦٤.

بينما يقع جامع سيدي هشام (جامع هشام) في سوق جقمق، بناه القاضي بدر الدين بن مزهر^(١) من ماله، وجامع الأكراد (مسجد الأكراد) في الميدان الفوقاني^(٢)، وجامع الشيخ عبد الغني النابلسي في الصالحية - أبو جرش -^(٣)، وأخيراً هناك مسجد الشيخ أحمد السروجي بالشاغور البراني^(٤)، وبذلك يكون قد بلغ عدد المساجد والجوامع التي جاءت على ذكرها الوثائق ٤١/ واحداً وأربعين مسجداً وجامعاً، منها جامعان في الصالحية، وفي أثناء البحث في سجلات المحاكم الشرعية بدمشق، قمت بتسجيل أسماء جوامع ومساجد أخرى، وردت عرضاً في ثنايا الوثائق، وذلك من دون أن تحدد الوثائق مواقع كثير منها: وهي: مسجد القلعي بسوق القطن، مسجد القاشقجي، جامع النطاعين، مسجد القبة البيضاء بالميدان، جامع الأحمر بمحلة اليهود، ومسجد خليل زويزان بميدان الحصى (نسبة لجمال الدولة خليل بن زويزان)، ومسجد الجامع بيرم، ومسجد النارج الذي يسمى أيضاً مسجد الحجر، ويقع قبلي جامع مصلى العيدين^(٥)، مسجد السيدة رابعة، جامع غازي مراد باشا، جامع عزيزة الدين يخشى قراخاتون الماردانية، مسجد علي آغا الزردار، مسجد سيدي ركاب الصحابي، مسجد النجارين بالشاغور البراني، مسجد عيسى بك، مسجد الجوزة في باب السلام، مسجد سيدي الشيخ صالح، جامع الكافلي سيباي، ظاهر دمشق بالقرب من باب الجابية، مسجد (جامع المعروف)، مسجد شملي، جامع السقيفة، مسجد حمادة، جامع الورد بسويقة صاروجا، مسجد القرمانى بسوق صاروجا، مسجد الشيخ يعقوب، جامع الجنزاري (خارج باب توما، ينسب لفخر الدين الزنجيلي)، مسجد السمرقندي، مسجد الخصاصية، مسجد الشنباشية بالشاغور الجواني، مسجد ديمرطاش في محلة سوق صاروجا، مسجد رستم، ظاهر دمشق محلة الجديدة، جامع الأفرم بالصالحية، مسجد (جامع الجرن) بالعقبة الكبرى، محلة الجورة، مسجد مصطفى چلبى في ظاهر دمشق محلة الجديدة، جامع النوري، مسجد بهرام آغا في محلة باب توما، جامع المزاز، مسجد السرورة، مسجد العناية بباب توما، مسجد عين علي بالقرب من خان لالا مصطفى باشا.

(١) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٦٢، وذيل ثمار المقاصد، ص ٢٥٨.

(٢) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٢. وحوادث البديري الحلاق، ص ١٨٩.

(٥) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٦٥.

وقد بلغ عدد هذه الجوامع والمساجد التي عثرت عليها في ثنايا الوثائق ٤١/ (١) واحداً وأربعين، أي أن مجموع الجوامع والمساجد التي ورد ذكرها في الوثائق بلغ ٨٢/ اثنين وثمانين مسجداً وجامعاً في دمشق القديمة وظاهرها، بالإضافة إلى الصالحية.

وبالإضافة إلى الجوامع والمساجد، فقد ذكرت الوثائق عدداً من الكنائس في دمشق، مثل الكنيسة المريمية التي هي أكبر كنائس الروم الأرثوذكس بدمشق، وأقدمها، ضربت مرات كثيرة، آخرها أيام تيمورلنك^(٢)، وكنيسة النصارى السريان بدمشق، ولم تحدد الوثيقة (هم السريان الكاثوليك أم السريان الأرثوذكس) وحيث إن الكتلة لم تكن قد ترسخت بعد في دمشق، فالأكثر احتمالاً أن الكنيسة المذكورة هي للسريان الأرثوذكس (اليعاقة)، حيث كانت لهم كنيسة في حنانيا بالقرب من الباب الشرقي جددت بعد عام ١٨٦٠م على اسم القديس جاورجيوس^(٣)، وكنيسة الموارنة في محلة باب توما، كانت ديراً على اسم مار أنطونيوس البادواني، أحرق في حوادث عام ١٨٦٠م^(٤).

ونكرت الوثائق عدداً من الزوايا، في دمشق، منها: زاوية بني الصمادي^(٥)، التي جعلت للطريقة الصوفية التي أنشأها الشيخ محمد خليل الصمادي ٩٣٢هـ - ١٥٢٥م، وكانت قرية كناكر وفقاً لهذه الزاوية الموجودة داخل باب الصغير، شمالي السور على كتف نهر قليط، بالزقاق الآخذ إلى باب الصغير (الزلاقة)، وزاوية (مولانا الشيخ أحمد النحلاوي)، فيها آراء عدة، فمثلاً الشيخ عبد القادر بدران في منادته يقول: إن التربة التنكزية تسميها الناس زاوية النحلاوي، ويقول ابن عبد الهادي: (تربة الست ستينة بنت الأمير كوكباي تسميها الناس زاوية النحلاوي خطأ)^(٦)، كما جاء في كتاب القلائد الجوهريّة^(٧)، أن الزاوية النحلاوية (بأسفل

(١) السجل ١٥٥ وثيقة ٢٥٣٤ ص ١٢٩ ، وأيضاً وثيقة ٥٥ ص ٢٤ ، وأيضاً وثيقة ٢٣ ص ١٠٢ والسجل ١٥٧ ص ١٢٩ وثيقة ٢٥٣ ، وأيضاً وثيقة ٢٨٠ ص ٤١ ، وأيضاً وثيقة ٥٢٥ ص ٢٤٤.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة المفيد، ١٩٢٨، جـ ٦، ص ١٤. وطبع سنة ١٩٨٣م.

(٣) نعمان قساطلي، ص ١٠٣.

(٤) كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، ص ١٥.

(٥) الغزي، لطف السمر، مصدر سابق، جـ ١ ص ١٣٠ ح، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢١٩.

(٦) ابن عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ٢٨٤.

(٧) ابن طولون، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٩، ص ٢٠٦.

الخميسيات غربي مقبرة الشيخ ابن عمر، أنشأها الشيخ علي النحلاوي، توفي في ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، ثم أقامت بها ابنته عائشة ثم خربت)، وقد يكون أحمد النحلاوي صاحب زاويتنا، أحد أحفاد علي النحلاوي. وهناك الزاوية اليمانية بالجامع الأموي، وزاوية الشيخ بندق في سوق صاروجا بزقاق قولي، وزاوية المغاربة، وزاوية الشيخ عبد الرحمن الداودي بصالحية دمشق، وزاوية الشيخ حسن الهندي، وزاوية منجا التتوخي بمأذنة الشحم، وزاوية الشيخ سعود المغربي، وزاوية الشيخ حسن الجبلاوي، بثلة سوق القاضي بين القيمرية ومأذنة الشحم، وزاوية أبي بكر الموصلي، وزاوية الشيخ عبد الله الحافظ، وزاوية الشيخ زين العابدين، وزاوية مجد الدين الحصني في الشاغور البراني، وزاوية الشيخ حسين بن الشيخ طعمة البيتماني^(١).

ويدل هذا العدد الكبير من المساجد، والجوامع والزوايا، على حياة دينية وصوفية حافلة في دمشق خلال فترة هذه الدراسة، وبالإضافة لهذه الزوايا، ورد في الوثائق ذكر الخانقاه الشميصانية^(٢)، كانت تقع على الباب الشمالي للجامع الأموي على يمين الخارج منه، بناها أبو القاسم علي بن محمد السمي السميساطي المتوفي عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، فخربت، وخانقاه النفيسة^(٣)، كما ذكر رباط^(٤)، (والربط هي الخوانق التي تختص بالنساء)^(٥)، في محلة قبر

(١) السجل ١٥٦ وثيقة ٣٥٦ ص ١٧٧، والسجل ١٢٤ وثيقة ١٣٩ ص ٧٤، والسجل ١٣٠ وثيقة ٦٠ ص ٣٦، والسجل ١٤٦ وثيقة ٥٦٨ ص ٢٧١، والسجل ١٥٩ وثيقة ٦٩٧ ص ٣٧١، والسجل ١٥٦ وثيقة ٦٩٠ ص ٣٧٦، والسجل ١٧١ وثيقة ٧٨ ص ٤١، وأيضاً وثيقة ١٠١ ص ٥٤، وأيضاً وثيقة ٢٤٩ ص ١٢٨، والسجل ١٧٢ وثيقة ٤١٩ ص ١٧٦، والسجل ١٧٣ وثيقة ٤٠٤ ص ١٩٤، والسجل ١٧ وثيقة ١٣١ ص ٨٧، والسجل ١٢٣ وثيقة ٤٩٦ ص ٣٥٥، والسجل ١٣٣ وثيقة ٥٣٢ ص ٢٧١.

(٢) السجل ١٣٥، وثيقة ٨٧ ص ٣٦. والخانقاه، كلمة فارسية الأصل تعني مكان العبادة، وهي بالغالب تخصص لأهل الطرق الصوفية، وأكثر ما يقال فيها أو يردد الذكر، أما تكية فهي بالغالب للعبادة والخشوع الديني.

(٣) السجل ١٢٠ وثيقة ٥٦٣ ص ٢٩٣.

(٤) السجل ١٣٤، وثيقة ٢١٨ ص ٩٩.

(٥) السجل ١٥٨، وثيقة ٢٢٢ ص ١٢١.

السيدة عاتكة بزقاق جامع البزوري، ورباط الزلزلية، وذكرت الوثائق عدداً من التربة (الجبانات) كتربة (باب الصغير في جنوب دمشق القديمة، وتربة المسطوبية ظاهر دمشق في محلة حقلة عيسى، وجبانة عثمان الرفاعي بسوق صاروجا والتي نقلت منذ سنوات قليلة إلى مكان آخر)^(١).

ونكرت الوثائق عدداً من الأضرحة^(*) لمشايخ، وصحابة، وسادات، منها: ضريح السادات الصمادية بالشاغور الجواني في زقاق الزلافة، وكان من أشهر السادات الصمادية المذكورين: إبراهيم بن مسلم بن محمد الصمادي القادري، الشافعي، ولد سنة ٩٩٨ هـ/١٥٨٩ م، تولى أمر الطائفة الصمادية بعد وفاة أخيه عيسى، توفي سنة ١٩٧٣ هـ/١٦٦٢ م^(٢)، ثم كان السيد أحمد ابن السيد عبد الرزاق بن السيد إبراهيم بن أحمد بن داود المعروف كأسلافه بالصمادي، الحنفي، شيخ السجادة الصمادية بدمشق، وأحد رجال الدهر المشهورين، ولد بدمشق ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م، وحصل على رتبة السليمانية التي كانت أعلى درجة دينية تمنح لرجال الدين العثمانيين، رحل كثيراً إلى استامبول، وتولى قصبة جبلة وضبطها، مات قرب القطيفة قبل أن يصل دمشق، وبعد موته حمل إلى دمشق ودفن في مقبرة باب الصغير^(٣)، وكان مسلم ابن محمد الصمادي (والد السيد إبراهيم المذكور) شيخاً للطائفة الصمادية بالشام، توفي سنة

(١) السجل ١٥٨ وثيقة ٢٢٢ ص ١٢١.

(*) ورد ذكر جميع الأضرحة في السجلات والوثائق التالية:

السجل ١٢٤ وثيقة ١٣٩ ص ٧٤، السجل ١٣٩ وثيقة ٧٣ ص ٥٦، السجل ١٤٢ وثيقة ٨١٢ ص ٤١٥، والسجل ١٤٩ مكرر وثيقة ٥٧١ ص ٢٣٩، والسجل ١٥٦ وثيقة ٢٨٨ ص ١٣٩، والسجل ١٥٧، وثيقة ٢١٩ ص ١٠٠، والسجل ١٧١ وثيقة ٦١٥ ص ٣١٧.

(٢) المحبي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح الحلو ١٩٦٧ - ج٣، ص ٨٨ - ٨٩. خلاصة الأثر ج١، ص ٤٩.

(٣) سلك الدرر للمرادي (بلا تاريخ)، ج١، ص ١٧٢-١٧٤. مخطوط كناش الأيوبي رقم ٤٣٢٤ ص ١ المقدمة.

١١١٥هـ/١٧٠٣م، وذكر مزار (سيدي الشيخ سيف الدين بالقرب من مأذنة الشحم)^(١)، كما ذكر مرقد السلطان بايزيد في ظاهر دمشق محلة تحت القلعة بالأحمدية، (ولقد زرت المنطقة، وسألت كثيراً عن مرقد السلطان هذا، ولكني لم أعر عليه) ويبدو أن هذا المرقد قد أزيل بتقادم الزمن، وذكر (المقام) في محلة باب توما، وذلك من دون تحديد هوية صاحبه. وضريح أحمد السروجي في محلة الشاغور البراني^(٢)، وضريح الشيخ عردوك بالصالحية، والشيخ عردوك هو أبو بكر بن فتیان بن معبد الشطي (من أكابر الأولياء، وسادات الطريقة) أقام بدمشق وأصله من بني نمير، وهي طائفة من العرب، توفي في عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م^(٣).

كما ذكر كل من ضريح سيدي ضرار بن الأزور الأسدي، وسيدي أبيّ بن كعب بن قيس الخزرجي^(٤)، خارج باب الشرقي، وذكر مرقد السيدة خولة بنت الأزور^(٥)، خارج باب توما، وذكر مرقد (الشيخ عبد الغني النابلسي بالصالحية، الحنفي الدمشقي، النقشبندي، القادري، أستاذ الأساتذة، شيخ الإسلام، صدر الأئمة الأعلام، ولد بدمشق في ٥ ذي الحجة ١٠٥٠هـ/الاثنيين ١٨ آذار ١٦٤١م، شغل بقراءة القرآن، ثم بطلب العلم، مات والده وعمره ١٢/ عاماً، فنشأ يتيماً، واشتغل بقراءة الفقه وأصوله على الشيخ أحمد القلعي، والنحو والمعاني على الشيخ محمود الكردي نزيل دمشق، والحديث ومصطلحه على الشيخ عبد الباقي الحنبلي، والتفسير

(١) المحبي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، مصدر سابق، جـ ٣ ص ٨٨. وانظر: خلاصة الأثر، مصدر سابق، جـ ٤ ص ٢٦٣.

(٢) عبد الهادي، ذيل ثمار المقاصد، مصدر سابق، ص ٢٣٢، والبديري، مصدر سابق، ص ١٨٩.
(٣) ابن طولون، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٩، ص ٤٠٣، ص ٤٠٣.

(٤) نعمان قساطلي، الروضة الغناء، مصدر سابق، ص ١٣٢.
(٥) وهي أخت ضرار، حضرت فتوح الشام، ولما وقع أخوها ضرار في الأسر من قبل الروم، لبست لباس الرجال في الحرب، وخاضت المعركة مع زميلاتها حتى أنقذ أخوها، وفي طريق العودة تعرّض لهن الروم، وأسروهن، ثم تمكن خالد بن الوليد من إنقاذها، توفيت أواخر عهد عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ/٦٥٥م ودفنت خارج باب توما، وقد أقيم لها ضريح جديد نقل إليه رفاتهما يوم الاثنين ١٣ محرم ١٣٨١هـ/٢٦ حزيران ١٩٦١م. أحمد قدامة، معالم وأعلام، مصدر سابق، جـ ١، ص ٣٨٧.

والنحو على الشيخ محمد المحاسني وغيرهم... وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق الحموي الكيلاني، وطريقة النقشبندية عن الشيخ سعيد البلخي، وابتدأ في قراءة الدروس وإلقائها والتصنيف، وأدمن المطالعة في كتب السيد محي الدين ابن العربي، والسادة الصوفية كابن سبعين، والعفيف التلمساني، ثم نظم بديعية في مدح الرسول ٢، ونظم بديعية أخرى، وشرع في إلقاء الدروس بالجامع الأموي، وفي الجامع الصغير، وكانت أطواره عجيبة في أول أمره.. ثم ما لبث أن وردت عليه أفواج الواردين، ارتحل أولاً إلى دار الخلافة سنة ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م، فاستقام فيها قليلاً، وفي سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م ذهب لزيارة البقاع وجبل لبنان، ثم سنة ١١٠١هـ/١٦٨٩م ذهب لزيارة القدس والخليل، وفي سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م ذهب لزيارة مصر، ثم إلى الحجاز في رحلته الكبرى، وفي سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م ذهب إلى طرابلس الشام.. وانتقل إلى الصالحية إلى دارهم المعروفة بهم... إلى أن مات.. ومن تصانيفه: شرح أوراد الشيخ عبد القادر الكيلاني، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والتحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوي، توفي يوم ٢٤ شعبان ١١٤٣هـ^(١) الأحد ٤ آذار ١٧٣١.

وذكرت الوثائق أيضاً مزار سيدي شيخ عامود، وضريح الشيخ شمعون بالشاغور البراني، ومقام الأربعين^(٢).

وإذا كان ما ذكرناه سابقاً من جوامع ومساجد ورباطات وخانقاه وأضرحة ومزارات، مظاهر دينية ودلالة على سيادة روح المحافظة على سيادة روح المحافظة والتدين في دمشق فترة الدراسة، ومن المظاهر الاجتماعية التي أشارت إليها الوثائق المدارس، وبما أن المعلومات الوثائقية لم تشر بوضوح إلى المدارس إلا كبناء لذلك آثرنا دراسة المدارس من خلال محمد كرد علي في مؤلفه غوطة دمشق ومؤلفه الشهير خطط الشام^(٣).

(١) المرادي، سلك الدرر (بلا تاريخ)، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٠.

(٢) السجل ١٦٤ وثيقة ٢٣٧ ص ١٣٣، والسجل ١٥٧ وثيقة ٦٤٤ ص ٣٠٢، والسجل ١٧١ وثيقة ١٤ ص ٧.

(٣) اضطررنا آسفين إلى الإشارة بغير توسع إلى المدارس تجنباً من أن يعدّ هذا نقصاً علمياً في بحثنا، والملفت للنظر أن الوثائق التي تعاملنا معها كانت مضطربة في تصنيفها الرسمي وفي معلوماتها.

تعدّ مدرسة الرشئية التي أنشأها أحد أبناء دمشق رشاً بن نظيف بن ما شاء الله أول مدرسة نظامية أنشئت في دمشق سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م وقد اتخذها كدار قران في ذاك التاريخ. ومن بعدها بدأت المدارس تقام في مناطق متعددة من دمشق ولا سيما في الصالحية.

وكان الحسن بن عمار قاضي مدينة طرابلس قد بنى في بلدته دار حكمة أو شبه مدرسة جامعة مشابهة لدار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في مصر سنة أربعمئة، وقد أراد المعتضد بالله العباسي بناء مدارس في داره جامعة للعلوم النظرية والعلمية.

ويشير محمد كرد علي إلى أن طرابلس غدت قبلة علمية يتقاطر إليها طلاب العلم من كل حذب وصوب، والحال نفسه لحلب التي عمل الحمدانيون على تأكيد أهميتها الأدبية إلى الجوانب الأخرى من عمرانية وتجارية وغيرها^(١).

لقد أسهم نور الدين الزنكي عندما استولى على الشام في بناء مدارس لأهل السنة والجماعة^(٢). وتقيد بعض المصادر أن نور الدين الزنكي بنى مدارس كرد على مدارس التشيع التي بناها القاضي ابن عمار في طرابلس الشام والقائد جوهر الذي بنى جامع الأزهر في القاهرة.

وكان نور الدين الزنكي قد بنى في حلب مدارس وأحضر إليها علماء العصر آنذاك، وكانت منبج وحماة وحمص وبعبك من المناطق التي شملتها مشاريعه الخيرية^(٣).

ويذكر محمد كرد علي أن ابن جبير زار دمشق سنة ١٨٥٠م ووجد بها ما يزيد عن عشرين مدرسة تقوم بالإنفاق على طلاب العلم فيها، وأضاف أن المارستانات مفخرة من مفاخر الإسلام والمدارس أيضاً، أما الرباطات فكانت أشبه بقصور مزخرفة. ومن المدارس التي أشار إليها محمد كرد علي في مؤلفه:

(١) كرد علي، خطط الشام، مصدر سابق، ج ٦ ص ٧٧.

(٢) علق المؤرخون على جرأة نور الدين الزنكي لمدى إشارات مدارس خاصة بأهل السنة والجماعة وقال سلامة بن سعد الدمشقي أن مدارس الجماعة كانت عامرة بطلابها، سلامة بن سعد الدمشقي، دار العلوم الزنكية ١٣١١هـ، ص ٨٥.

(٣) إن هذا التنافس محبب في جوهره مكروه في مظهره، ويمكن لطلاب تلك المدارس تناسي التنافس وتحويله إلى تنافس علمي مشرف. (الباحث)

١ - الخضيرية، بنيت شمالي دار السكرية بالقصاعين، وقد أنشأها قاضي القضاة قطب الدين الخيزري الدمشقي سنة ٨٧٨م ووقف عليها وعلى مسجد آخر أوقافاً جمّة، وما تبقى اليوم منها هو عبارة عن زاوية لأصحاب طريقة الشاذلية.

٢ - الدلامية، أنشأها زين الدين دلّامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصري في منطقة الجسر الأبيض على الجانب الشرقي الآخذ إليه بالصالحية على طريق الجراكسة، وهي عبارة عن مصلى ومنزلين بالقرب من جامع كعكع.

٣ - الجذية: قيل إنها كانت بدرب الحجر نسب إيقافها لمحمد بن محمد الجزّي المقري المحدث، وربما يقع درب الحجر قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد في حارة الشرباتي.

٤ - السنجارية، وكانت تجاه باب الجامع الأموي الشمالي أنشأها علي بن إسماعيل السنجاري أحد التجار الأخيار.

٥ - الصابونية، وهي خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب الدين أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري المعروف بالصابوني، تم إنشاؤها سنة ٨٦٨م^(١).

٦ - الوجيهية: وتقع قبلي المدرسة العسرونية والمسروورية وغربي الصمصامية، تم إنشاؤها سنة ٦٩٠م من وجيه الدين محمد شيخ الحنابلة الدمشقي التتوخي .

لم يقتصر التعليم على المدارس، بل اهتم المسلمون بأحاديث رسول الله، ولهذا فقد أقاموا دوراً سموها دار الحديث وهي تعنى بفهم الحديث والكتاب والسنة النبوية وللتعفف والتفقه بأمور الدين، ويعدّ نور الدين محمود بن زنكي أول من بنى دار الحديث، ومن ثم بدأ المسلمون علماء ورجال دولة يهتمون بدور الحديث، ويذكر محمد كرد علي أن هناك ما يزيد عن ثماني عشرة داراً للحديث، نقلاً عن الدارس^(٢).

من أبرزها، الأشرافية، والأشرفية البرانية، البهائية، الحمصية، الدوادارية والسامرية والسكرية، والشقيشقية، العروية، الفاضلية، القومية، الكروسية، النورية، النفسية، الناصرية،

(١) كرد علي، خطط الشام، مصدر سابق، ج ٦، ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٦ ص ٧١.

التنكزية، الصبائية، المعبدية، ويضيف محمد كرد علي أن دمشق وضواحيها زخرت بالمدارس الشافعية لدرجة أنها بلغت عدد مدارسهم سبعا وخمسين مدرسة خاصة بالشافعية.

فإن المدارس الكثيرة التي سندرستها الآن، وإن عُدَّت في جانب منها استمراراً للمظاهر الدينية، فإنها تُعدّ دليلاً على شيوع الثقافة والحياة العلمية (حسب مفهوم العصر) في مدينة دمشق، ومن هذه المدارس^(١): الماردانية، كانت مدرسة على نهر تورا، ملاصقة للجسر الأبيض بالصالحية، وهي الآن جامع، فيه مدفن بني المؤيد^(٢)، ومدرسة البلخية، وهي أيضاً بالصالحية، كان محلها قديماً يعرف بخربة الكنيسة، ثم عرفت بدار أبي الدرداء، ثم جعلت مدرسة، ثم اختلست، وصارت بيوتاً للسكنى، أنشأها كثر الدقائي سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، للشيخ برهان الدين أبي الحسن علي البلخي الحنفي الواعظ الذي توفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م^(٣)، ومدرسة إسماعيل باشا في باطن دمشق بالخطاطين، أنشأها والد الوزير أسعد باشا (إسماعيل باشا العظم)، وتسمى مدرسة الخطاطين^(٤)، والخانقاه الشميصاتية (ذكرت سابقاً)، كانت تسمى المدرسة الشميصاتية في فترة هذه الدراسة، والمدرسة المرادية في باب البريد، أنشئت سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٦م، من قبل مراد بن علي بن داود بن كمال الدين بن صالح بن محمد الحسني البخاري النقشبندي، وكانت تسمى في وقت من الأوقات أزهر دمشق^(٥)، والمدرسة القصّاعية (بحارة القصّاعين، في محلة الخضيرية، أنشأتها خطبلس خاتون بنت ككجا سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، ثم درست وتحول مكانها إلى دور)^(٦)، والمدرسة الطالوية^(٧) بمحلة

(١) ورد ذكر هذه المدارس في السجلات التالية: السجل ١٣٤ وثيقة ٦١ ص ٣١، والسجل ١٣٩ وثيقة ٧٢ ص ٥٦، السجل ١٥٧ وثيقة ٤ ص ٣، السجل ١٧٠ وثيقة ١ ص ١، السجل ١٧٢ وثيقة ١٢٦ ص ٤٤٧، السجل ١٧٣ وثيقة ٧٧ ص ٤٨، السجل ١٧٥ وثيق ٣٠١ ص ١٣٨، السجل ١٥٩ وثيقة ١٣٦ ص ٦٢.

(٢) دهمان، في رحاب دمشق ١٩٨٣، ص ١٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٤) عبد القادر العظم، الأسرة العظمية، مطبعة الإنشاء بدمشق، ١٩٦٠، ص ٢٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٦) الغزي، لطف السمر، مصدر سابق، جـ ١، مقدمة ص ٢٤٦، ص ١٣٦. النعيمي، الدارس،

مصدر سابق، جـ ١ ص ٥١٩، خطط الشام، مصدر سابق، جـ ٦ ص ٩٥.

(٧) لم يرد لها ذكر في المصادر والمراجع.

التعديل، ومدرسة شيخ الإسلام أبي عمر بالصالحية، وأبو عمر هو محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم بن نصر الجماعيلي المقدسي، ثم الدمشقي الصالحي، ولد سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م بجماعيل في فلسطين، ثم هاجر والده به وبأخيه الموفق وبأهلهم إلى دمشق، لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة، فنزلوا بمسجد أبي صالح ظاهر باب شرقي، حيث أقاموا نحو سنتين، ثم انتقلوا إلى الصالحية - التي سميت باسمهم - حيث بنى أبو عمر المدرسة العمرية المشيخية، وسط دير الحنابلة^(١)، ومدرسة سليمان باشا العظم^(٢) وزير دمشق السابق، لابن أخيه أسعد باشا العظم، والمدرسة الأتابكية بصالحية دمشق، أنشأتها بنت نور الدين أرسلان بن أتابك^(٣)، والمدرسة الفارسية، تجاه الخارج من باب الزيادة بالجامع الأموي، أنشأها الأمير سيف الدين فارس التتيمي^(٤). والمدرسة القيمرية في القيمرية، أنشأها الأمير ناصر الدين الحسين بن علي^(٥)، ومدرسة الكلاسة، لصيقة الجامع الأموي من الشمال، عمرها نور الدين الشهيد عام ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م، واحتترقت هي ومئذنة العروس سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م، وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع^(٦)، والمدرسة الخاتونية الجوانية في محلة سيدي عامود، أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر، زوجة نور الدين الشهيد^(٧)، والمدرسة الركنية الريحانية، في جوار المدرسة النورية، أنشأها خواجا ريحان خادم نور الدين الشهيد سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩^(٨). والمدرسة الشبلية البرائية، بالقرب من جسر زورا، بانيها الطواشي شبل الدولة الحسامي سنة ٦٢٦ هـ^(٩)، والمدرسة

(١) دهمان، في رحاب دمشق، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) البديري، مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٣) النعيمي، الدارس، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.

(٤) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٢٦.

(٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٤١.

(٦) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٤٧.

(٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٠٧.

(٨) المصدر السابق، ج ١ ص ٥١٩.

(٩) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٢٢.

الصادرية، داخل باب البريد، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله^(١)، وهي أول مدرسة أنشئت بدمشق سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م^(٢)، والمدرسة القجماسية داخل باب السعادة وباب النصر، أنشأها قجماس الإسحاقي^(٣)، والمدرسة الأمينية، قبلي باب الزيادة (أحد أبواب الجامع الأموي) بناها أمين الدولة ربيع الإسلام^(٤)، والمدرسة الدولعية، بجيرون قبلي المدرسة الغزالية، بالجامع الأموي، سميت نسبة للغزالي الذي نزل بها^(٥)، والمدرسة الجركسية^(٦) بالصالحية، والمدرسة المقدمة الجوانية داخل باب الفراديس^(٧)، والمدرسة الأخنائية، بالقرب من الجامع الأموي، أنشأها القاضي شمس الدين محمد ابن القاضي تاج الدين محمد بن فخر الدين عثمان الأحنائي الشافعي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م^(٨). والمدرسة الرواحية داخل باب الفراديس^(٩) أيضاً، والمدرسة الإقبالية، داخل باب الفرج والفراديس، أنشأها جمال الدولة إقبال^(١٠)، والمدرسة البادرانية، داخل العمارة الجوانية، وكانت هذه المدرسة قد تهدمت بالزلزلة التي جرت عام ١١٧٣هـ، ثم أعيد بناؤها، أنشأها عبد الله بن محمد البادراني البغدادي^(١١) ٦٥٣هـ/١٢٥٥م. والمدرسة اللاذقية باطن دمشق، قريبة من العسرونية^(١٢)، والمدرسة الصالحية^(١٣)، والمدرسة الحجازية^(١٤)، وهي المدرسة المجاهدية الجوانية، سميت بالحجازية، لكثرة من كان يسكنها من

(١) النعيمي، مصدر سابق، جـ ١ ص ٥٣٠.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٤٧.

(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٧٨.

(٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٤٢، المرادي، عرف البشام، مصدر سابق، ص ٩٢.

(٥) النعيمي، الدارس، مصدر سابق، جـ ١، ص ٤١٤.

(٦) النعيمي، الدارس، مصدر سابق، جـ ١، ص ٤٩٦.

(٧) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٩٤.

(٨) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٢.

(٩) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٧٥.

(١٠) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٨.

(١١) الغزي، لطف السمر، مصدر سابق، جـ ١، ص ٢٩.

(١٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، جـ ٢، ص ١٦١.

(١٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٥٧.

(١٤) لطف السمر وقطف الثمر، مصدر سابق، جـ ١، ص ٢٧٠.

الحجازيين، بالإضافة إلى مدارس أخرى مثل: المدرسة الكوجانية، ومدرسة التنبيه، ومدرسة دار الحديث البرانية، ومدرسة فتحي الدفترى بالقيمرية، ومدرسة شمسي أحمد بك، ومدرسة الريحانية، والمدرسة الباسطية بالصالحية، والمدرسة الداوودية، والمدرسة الحنبلية (دون تحديد)، والمدرسة الحورشية. ومدرسة الكوافي بالقيمرية، والمدرسة البيانية، والمدرسة البسمارية، ومدرسة محمد باشا، ومدرسة الطواشية الصغرى، ومدرسة كيكردى خاتون، والمدرسة الحافظية بالصالحية، ومدرسة شمس الدين المقدم، ومدرسة قانصوه اليحياوي، ظاهر دمشق محلة القماحين، ومدرسة سرمين الصالحي.

وبلغ عدد هذه المدارس ٥١/ إحدى وخمسين مدرسة. وإذا علمنا أنه قد توجد هناك مدارس أخرى غير هذه، حيث إنه لا يمكن أن تكون هذه القضايا الوقفية وغيرها من القضايا التي تعرض على المحاكم الشرعية بدمشق، عامة شاملة لكل نواحي دمشق، فإننا في هذه الحالة نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام مدينة دمشق في فترة هذه الدراسة وهي تعجّ بالمدارس الكثيرة، وبالنشاط الثقافي الديني الزاخر (وتلك كانت طبيعة العصر). وبرزت كوكبة من أبناء دمشق في هذا الجو، وحصلت على أعلى الرتب والدرجات الدينية (رتبة السليمانية) كعبد الغني النابلسي حجة عصره بلا منازع.. وغيره من العلماء. وكان بعض الشيوخ يملكون كتباً كثيرة سواء ما يتعلق منها بالشؤون الدينية، أو اللغوية، فمثلاً (الشيخ محمود أفندي بن الشيخ عباس ابن الشيخ سليمان الكردي) ^(١) أوقف داراً كبيرة في باطن دمشق، بالقرب من سوق الجزماتية، بالإضافة على ٥٠/ خمسين كتاباً.

لقد اشتملت سجلات المحاكم الشرعية على مشتملات من الحياة الخاصة والعامة لأهل دمشق، وقد تبين لنا بوضوح أن أي زقاق أو محلة لم يكونا مقتصرين على فئة اجتماعية أو اقتصادية معينة، ففي محلة الشاغور الجواني دلتنا الوثائق على أضخم وأفخر دار فيه وكانت هذه الدار قد أوقفت من قبل فئة من الأشراف (بديعة قادين بنت السيد عبد القادر أفندي بن الشيخ موسى بن السيد برهان الدين بن إسحاق الصمادي) ^(٢) في زقاق الزلافة، وكانت هذه

(١) السجل ١٤٤، وثيقة ٣٥٥، ص ٢٧٦.

(٢) سجل ١٧٥ وثيقة ٨١، ص ٣٤، ولفظة قادين تركية الأصل تعني امرأة متزوجة حتماً، وبعد التدقيق في سجلات الأنساب، علمنا بصورة غير مؤكدة أن بيت الصمادي نزحوا من دمشق إلى مناطق حوران لأسباب غير معلومة. (الباحث).

الدار ضخمة بمعدل /١٠/ درجات، وفي الزقاق نفسه وجدت دار أخرى بفخامة /٣/ درجات وهناك دار في زقاق بني مزلق درجتها /٢/ درجات^(١).

وفي محلة الشاغور تباينت الفئات الاجتماعية بتباين أوضاعها الاقتصادية، فقد وجد والشيوخ والأشراف والرجال العاديون ونساء من الأشراف وحاجات من الأشراف ونساء دون ألقاب^(٢)، وبالغالب هم من العامة، والحال نفسه ينطبق على الشاغور الجواني من حيث نسبة الشرافة، وإذا أمعنا النظر في أسماء تلك الأزقة لوجدنا فيها الطابع الزراعي^(٣)، وحسب ما يفهم فإن أماكن هذه الدور أو المحلات مع أزقتها قد أقيمت على أرض زراعية، علماً بأن هناك متسعاً للبناء في محلة الشاغور.

وفي دراستنا لم نجد في دمشق زقاقاً مختصاً بالأغنياء، وآخر بالفقراء، أو مختصاً بفئة اجتماعية دون أخرى، وإذا رجعنا إلى جدول «نسبة الفئات الاجتماعية المجاورة للأوقاف كحدود» فإننا نلاحظ أن بعض المحال كالشاغور الجواني مثلاً، كانت فئة الأشراف فيها عالية، بالإضافة على فئات أخرى، كالحرفيين والحجاج..، هذا ويظهر من خلال جداول نسب الأوقاف في كل محلة، تفاوت في أوقاف كل فئة ضمن المحلة الواحدة، وقد يكون ذلك دليلاً على تعايش الأغنياء والفقراء في المحلة الواحدة. ونكرت الخرائب في دمشق، لا بل سميت محلة باسم الخراب ونكرت قبة متهدمة في حوش بالقبيات، والخرابة في محلة باب السريحة^(٤)، وقد تكون هذه الخرائب من آثار الزلزال المدمر الذي أصاب دمشق خلال فترة هذه الدراسة ١١٧٣هـ/١٧٥٩م ولم يتسن لأصحابها بعد بنائها، إما لضيق الوقت، أو لضيق ذات اليد.

ولوحظت ظاهرة شيوع^(٥) العقارات في ممتلكات دمشق، وحتماً كانت هذه الظاهرة تعيق عملية بناء عقار تهدم كله أو جزء منه أو يبيعه، وفي حالات كثيرة، كانت هناك مقاسم دور كثيرة موقوفة مما يعني التفتت في الملكية، وإيجاد دور كبيرة إلى جانب الصغيرة^(٦).

(١) يفهم من قراءة الوثائق أن دور السكن قسمت من حيث الفخامة إلى درجات .

(٢) السجل ١٢٤، وثيقة ١٣٩، ص ٧٤.

(٣) السجل ١٥٦ وثيقة ٥٤٩ ص ٢٩١ والسجل ١٧٥ وثيقة ٣٤٦ ص ١٦٠.

(٤) السجل رقم ١٣٤، وثيقة ٢٥٩، ص ١١٦. السجل رقم ١٤٢، وثيقة ٧٩٧، ص ٤٠٥.

(٥) السجل رقم ١٤٢ وثيقة ٨٣٩، ص ٤٢٧، السجل رقم ١٤٦ وثيقة ٥٧١ ص ٢٧٤، السجل رقم ٤٨ وثيقة ١٦٦، ص ٧٠.

(٦) السجل رقم ١٣٥، وثيقة ٢٥٩، ص ١٥٨، السجل رقم ١٤٩، وثيقة ٩٩، ص ٤٠، السجل رقم ١٥٣، وثيقة ٢٣١، ص ١٠٨.

- حجم الدور :

يلاحظ في جدول حجم الدور، تفاوت درجات حجم الدور، في مختلف المحال بدمشق ولم تتجاوز درجات الدور، الدرجة الخامسة، إلا في محلة الشاغور الجواني، حيث كانت أضخم دار ودرجتها /١٠/ في زقاق الزلافة، ودار أخرى في زقاق حمام الناصري، درجتها /٦/ وفي سوق القطن وجدت دار كبيرة أخرى درجتها /٩/، كما وجدت دار في محلة قبر السيدة درجتها /٨/ ودار أخرى في محلة باب السريحة درجتها /٨/، وداران في محلة القنوات درجتاهما /٦/، وفي محلة قصر حجاج وجد داران درجة أحدهما /٨/، وداران في محل القنوات درجتاهما /٦/، وفي محلة قصر حجاج وجد داران درجة أحدهما /٧/ درجات والدار الثانية /٩/ درجات، وفيما عدا ذلك فلم تتجاوز الدور الدرجة الخامسة.

وإذا نظرنا إلى مجموع الدور على أساس الدرجات، سنجد أن الدور ذات الدرجة /١٠/ بلغ مجموعها /٤٦/ ستاً وأربعين داراً، تليها الدور ذات الدرجة /٢/ اثنتين، حيث بلغ مجموعها /٢٣/ ثلاثاً وعشرين، أي نصف الدور السابقة. ثم الدور ذات الدرجة /١/ الأولى ومجموعها /١٩/ تسع عشرة داراً، ثم الدور ذات الدرجة /٤/ ومجموعها /١٢/ اثنتا عشرة داراً، وكلما كبرت الدرجة، قلّ مجموع البيوت - أي أن دور دمشق كان يغلب عليها طابع البساطة -، فمتوسط الدور من الدرجة /١٠/ حتى الدرجة ٣ = $105 \div 4 - 26,25$ داراً أي أن قسماً كبيراً من دور دمشق كان يتألف من : (ساحة سماوية، وإيوان، وطبقة، وقبة ومربع، ومطبخ، ومرتفع، ومرافق، ومنافع شرعية، ومشرفة، وسلم حجر).

ومن الملفت للنظر وجود عدد من الدور، بلغ مجموعها /٢٤/ أربعاً وعشرين داراً، حجمها غير معروف في الوثائق، كما أن الدور التي حوت غراساً كالليمون والبرتقال والنارنج والكباد والياسمين، كان عددها قليلاً جداً، حيث بلغ /٩/ تسع دور، وكان من المفروض أن يحوي كل بيت دمشقي عدداً من هذه الغراس، وعدم ذكر ذلك قد يعود إلى إهمال أو تغافل كتبة الوثائق.

ولم تذكر الوثائق البيت، إلاّ مرات قليلة، حيث أشير إليه^(١) كأحد مشتملات الدار والبيت في الأساس جزء من الدار^(٢)، كما ذكر أنّ السكن جزء من الدار^(٣)، وفي حالات كثيرة كانت الدار تشتمل: البراني والجواني^(٤). وكثير من الدور الدمشقية كانت تتكون من طابقين^(٥)، وكان لمعظم الدور في دمشق دهليز^(٦)، يوصل من الباب الخارجي إلى الجواني، وأحياناً يكون متعرجاً، وطوله من ٤-٦ أمتار، وسطحه منخفض (حتى لا يستطيع الفارس الإنكشاري المرور)^(٧)، وكان لبعض الدور استطراق^(٨)، وكان يمكن للدار أن تشتمل على دكان آلاجه^(٩)، أو حانوت سمانة مثلاً، وفي بعض الحالات، وفي محال خارج السور، كباب مصلى، القببات، كان يمكن أن نجد داراً تشتمل ببايكة أو أكثر^(١٠)، أو قد تحوي الدار اسطبلًا^(١١)، وورد ذكر دار، لها ساحة مسقوفة^(١٢)، وهذه حالة نادرة، كما ذكرت بعض الدور التي لها قبو^(١٣)، من أجل وضع المؤونة، ربما، وبخاصة في محلة النصارى.

وكان الدمشقيون في الصيف يجلسون في الطابق الأرضي، وفي الشتاء يجلسون في الطابق الأعلى، وذلك كي يتعرضوا لأشعة الشمس، ويتحاشوا الرطوبة الأرضية. وذكرت

-
- (١) السجل رقم ١٣٥ وثيقة ١٤٧ ص ٨٦، السجل رقم ١٥٦ وثيقة ٥٤٩ ص ٢٩١.
 - (٢) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٢.
 - (٣) السجل رقم ١٥٧ وثيقة ١٩٥ ص ١٠٤، السجل رقم ١٥٦ وثيقة ١٠٥ ص ٥٥.
 - (٤) السجل رقم ١٤٤ وثيقة ٣٥٥ ص ٢٧٦، السجل رقم ١٤٦ وثيقة ١٤٥ ص ٥٩.
 - (٥) أي طابق أرضي وطابق فوقه. السجل رقم ١٣٩ وثيقة ١٨١ ص ١٦٩، السجل رقم ١٤٢ وثيقة ٥٦٨ ص ٢١٠، السجل رقم ١٥٣ وثيقة ٨٧ ص ٣٦.
 - (٦) السجل رقم ١٣٩ ص ١٦٩ وثيقة ١٨١، السجل رقم ١٤٢ ص ٢١٠ وثيقة ٤٥٢٣، السجل رقم ١٤٦ ص ١٧١ وثيقة ٥٦٨، السجل رقم ١٥٣ ص ٣٦ وثيقة ٨٧.
 - (٧) المرادي، سلك الدرر، ج٣، وثيقة ٢٨٧.
 - (٨) السجل رقم ١٥٣ وثيقة ٨٧ ص ٣٦.
 - (٩) السجل رقم ١٣٩ وثيقة ١١٢ ص ٤٤، السجل رقم ١٥٣ وثيقة ٨٧ ص ٣٦.
 - (١٠) السجل رقم ١٦٣ وثيقة ١٢٥ ص ٦٢.
 - (١١) السجل رقم ١٥٤ وثيقة ٤٦ ص ٢١.
 - (١٢) السجل رقم ١٤٩ وثيقة ٥٠٠ ص ٢١٤.
 - (١٣) السجل رقم ١٥٧ وثيقة ١٥٦ ص ٨٥.

الوثائق (الغرفة الطيّارة) ^(١)، وهي عبارة عن غرفة علوية منفردة، كانت وما زالت موجودة في بعض البيوت الدمشقية القديمة.

- تغذية الدور بالمياه:

ودمشق القديمة كانت تتزود بالمياه من نهر القنوات عموماً، ولم تذكر سوى دار واحدة تصلها مياه نهر تورا في محلة «باب شرقي» ^(٢)، ودار أخرى تصلها مياه بانياس في محلة «باب جيرون». وبشكل طبيعي كانت بيوت كثيرة في محلة «سوق صاروجا» تشرب من مياه تورا، ومن المقاسم على نهر القنوات كانت المياه تصل إلى الطوالع، والطحال ^(٣) عبارة عن مربع تقريباً، يتراوح ضلعه ما بين ٥٠ - ٢٥٠ سم، ويكون إما على سطح ما، أو مرتفع لغاية متر، وهو يتلقى قساطل التغذية.

ويمكن أن نسمي الطالع «بحرة مستطيلة الشكل»، وهي غالباً ما تكون من حجر واحد عمقها حوالي (١٠ سم)، وفي وسطها فوهة قطرها (١٠٠-٢٥٠ مم)، يخرج الماء منها، وعلى أطرافها فتحات مستطيلة، يزيد عرضها، أو ينقص، يخرج الماء منها وفق حصص المنتفعين إلى بيوتهم، ويمكن أن يصب بطوالع أخرى، إلى شبكة أصغر، وكان التعبير المستعمل في الوثائق دائماً هو: «.. بركة ناهدة، يجري إليها الماء من الطالع القايم إلينا بالمحلة الفلانية، أو البيت الفلاني...» ^(٤). وأحياناً أخرى قد يصل الماء إلى البركة الناهدة من فائض بركة أخرى بالبيت المجاور ^(٥). وإذا ألقينا نظرة أخرى على جدول «حجم الدور» نجد أن هناك بيوتاً كثيرة في بعض المحال لم تشرب من الطوالع، بل من الآبار، وكانت تسمى إحداها «بئر ماء معين» ^(٦)، وفي أحيان أخرى، كانت الدار تشرب من مياه الطالع، ومن مياه البئر أيضاً

(١) السجل رقم ١٥٣ وثيقة ٨٧ ص ٣٦.

(٢) السجل رقم ١٧٦، وثيقة ١٢ ص ٧.

(٣) السجل رقم ١٦٤ وثيقة ٤٤٨ ص ٢٨٤ مكرر.

(٤) السجل رقم ١٢٩ وثيقة ١٦٩ ص ٧٨، السجل رقم ١٧١ وثيقة ٦٥٢ ص ٣٣٨.

(٥) السجل رقم ١٤٢ وثيقة ٨٣٩ ص ٤٢٧.

(٦) السجل رقم ١٣٤ وثيقة ١٠٦ ص ٥١، وثيقة ٢١٨ ص ٩٩.

«مشارك»^(١)، وكانت بعض المحال تصل إليها مياه الطوالع بنسبة عالية جداً كالشاغور الجواني، وداخل باب الجابية، ومحلة البيمارستان النوري، والدقاقين، وقهوة الخريزاتية، وسوق العبي والخريزاتية، وسوق القطن، وسوق الصوف، وباب السريحة، ومحلة خان السلطان، ومحلة القنوات والتعديل، والورد، ومحلة حمام الناصري، وقلعة دمشق، أما المحال التي كانت تشرب من الطوالع بشكل وسط، فهي: محلة القيمرية، محلة الخراب، محلة قبر السيدة عاتكة، والمحال التي كانت تشرب بشكل كبير من الآبار فهي: محلة مأذنة الشحم، ومنطقة النصارى «محلة باب شرقي والناصرى، والجورة، والمسبك، وباب توما»، ومحال أخرى كانت الدور الموقوفة فيها جميعاً تشرب من مياه الآبار، مثل: محلة اليهود والميدان والقببيات، والشاغور البراني، والعقبة، والبريدي، أي معظم المحال التي في ظاهر دمشق، ولا نستطيع أن نقول هنا إن المستوى المادي لساكني هذه المحال كان متدنياً، بحيث لا يستطيعون جرّ مياه الطوالع إلى بيوتهم، فهذا التفسير لا يستند على براهين علمية، ولكن يبدو أن بعد هذه المحال، وربما ارتفاع مستوى سطح الأرض فيها، عن مستوى الطوالع كان هو السبب في عدم وصول الماء إليها. وأحياناً كانت توجد بالدار الواحدة أكثر من بركة ماء، فمثلاً: «دار الحاجة صائمة بنت الشيخ صالح بن الحاج حسين الشعار»^(٢) الكائن في باطن دمشق بالقرب من البيمارستان النوري، كانت فيها (بركة ماء يجري إليها من فائض بركة أخرى بالدار نفسه، وإليها من بركة دار ورثة حسن آغا حب رمان، وإليها من فائض بركة حمام البيمارستان وإليها من طالع الشحاد بالمحلة، وإليه من نهر القنوات).

وفي بعض البيوت، كانت بركة الماء بها تتزود بالمياه (من فائض القناة بالشارع السلطاني)^(٣). وذكرت الوثائق عدداً من الطوالع مثل طالع النداف في محلة باب السريحة بزقاق المعلم، وطالع الجوزة في محلة قبر السيدة عاتكة، وطالع الرئيس في محلة القيمرية، وطالع البركة بالقرب من باب السريحة وخان السلطان، وطالع بني الشماع في الشاغور الجواني، بزقاق حمام الناصري، وطالع السكري بالشاغور الجواني أيضاً، بزقاق المهاترة،

(١) السجل رقم ١٤٢، وثيقة ٤٥٢، ص ٢١٠.

(٢) السجل رقم ١٥٩، وثيقة ١، ص ١.

(٣) السجل رقم ١٧١، وثيقة ١٦٨، ص ٨٨.

وطالع الثلاث في محلة الخراب، زقاق الشرقاوي وطلع الشحاد، باطن دمشق، بزقاق درب الوزير، وطلع الباشورة، محلة سوق القطن بزقاق الخضيرية^(١).

أما البرك المبلطة التي تتزود بمياه الطالع، فكانت أكثر ما تكون في محال الشاغور الجواني ومنطقة النصارى، وداخل باب الجابية، وسوق القطن، وسوق الصوف، ومحلة قبر السيدة عاتكة وباب السريحة، وخان السلطان، ومحلة الورد في باطن دمشق.

أما البرك غير المبلطة فكانت في محال داخل باب الجابية، والقيمرية، والخراب، ومحلة طاحونة السجن، ومحلة البيمارستان النوري، وبالقرب من قهوة الخريزاتية، وسوق العبي والخريزاتية، ومحلة جامع الحشر بالقرب من تحت القلعة، وكثرت في محلة قبر السيدة عاتكة، والقنوت والتعديل، ومحلة حمام الناصري، وهنا أيضاً لا نستطيع إن نقول أن المحال التي كانت فيها برك غير مبلطة، هي أقل يسراً وثراءً من المحال التي كثرت فيها البرك المبلطة، ذلك أن النوعين من البرك كانا يوجدان في جميع المحال التي فيها طوالع. كما أننا لا نستطيع أن نعدّ ما ذكرته وثائقنا القليلة نسبياً، مقياساً صحيحاً للحكم بهذا الشكل. وكان أكبر تجمع للبيوت «غير المعروفة في أسلوب تغذيتها بالمياه» في محال الشاغور الجواني، ومأذنة الشحم ومنطقة النصارى، والشاغور البراني، والميدان، والقببيات، ومحلة باب المصلى، وباب السريحة، وهناك حالات لم تذكر فيها الوثائق الطالع، بينما ذكرت بركة مبلطة، وأخرى غير مبلطة، ووجدت في الأولى في محال الشاغور الجواني، ومنطقة النصارى، بينما وجدت الثانية بعدد أكبر في محال الشاغور الجواني، والقنوت، وقصر حجاج، والعقبة، وسوق صاروجا، وسويقة صاروجا، وزقاق الجترفيل، ومحلة باب جيرون، وزقاق الحماوي، وداخل باب الجابية.

(١) السجل رقم ١٢٤ وثيقة ٣٣٢ ص ١٩٩، السجل رقم ١٢٦ وثيقة ١١٨ ص ٦٩، السجل رقم ١٣٠ وثيقة ٦٠ ص ٣٦، السجل رقم ١٣٥ وثيقة ٢٥٩ ص ١٥٨، السجل رقم ١٤٦ وثيقة ١٤٥ ص ٥٩. وكل دار تصلها مياه الطالع لها حق بهذه المياه مكتسب تاريخياً، فأحدى الدور بالشاغور الجواني مثلاً تصل المياه لبركتها (من الطالع القائم إلينا بجدار بيت أحد الأشراف بفرضين أحدهما بحق إصبعين، والثاني مشترك بين الدار الموقوفة وقاعة دار الحصني). السجل رقم ١٤٦ وثيقة ١٤٥ ص ٥٩. وأحياناً أخرى يقال: (بركة ماء ناهدة تصلها المياه بحق معلوم). السجل رقم ١٤٧، وثيقة ٤٧٥ ص ٢٦٨.

أما فيما يتعلق بالغراس الموجودة في ساحات الدور، فلم تذكر الوثائق إلا عدداً قليلاً من هذه البيوت، وليس معنى ذلك أبداً أن بيوت دمشق الحاوية لغراس الحوامض لا سيما النارج والياسمين، كانت قليلة، فغالباً ما تكون معظم البيوت الدمشقية ذات غراس في ساحاتها السماوية، ولكن إهمال الوثائق لذكر ذلك، لا يمكن تفسيره إلا بسهو وإغفال كتبة الوثائق.

ومن ناحية أخرى، فقد كانت فئة الأشراف، في الدرجة الأولى بين الفئات الاجتماعية التي أوقفت دوراً، إذ بلغت نسبة ما أوقفته من دور (٢٦,٤٥)٪، تلتها فئة الحجاج (١٧,٤١)٪، ثم الشيوخ (٨,٣٨)٪، ثم المسيحيون (٥,١٦)٪ ثم الرجال العاديون (٢,٥٨)٪، ثم الأغوات والحرفيون (١,٩٣)٪، أما بالنسبة للنساء، ففي الدرجة الأولى كانت فئة النساء العاديات (دون لقب)، فكانت نسبة ما أوقفته من الدور (٢٠)٪، ثم الحاجات (٧,٠٩)٪، ثم نساء من الأشراف (٣,٨٧)٪، وأخيراً المسيحيات (٢,٥٨)٪، ويلاحظ من النسب السابقة أن معظم الواقفين شاركوا في إيقاف البيوت، وأن فئة الأشراف كانت أعلى نسبة. وذكرنا سابقاً أن فئة الأشراف تعاطت التعامل بالعقارات السكنية أكثر من العقارات الزراعية، بعكس الحجاج، بينما تعاطت معظم النساء التعامل بالعقارات السكنية أكثر من العقارات الزراعية، نظراً لكون الأخيرة تتطلب جهداً، ومغامرة أكبر تتناسب الرجال.

إن قراءة واعية لما دلت عليه الوثائق، ندرك تماماً وبعيداً عند الدخول في تفاصيل الدور والمنازل والبوايك وغيرها من المظاهر الاجتماعية الدمشقية أنها تمتاز بروح اجتماعية مرحة حيناً، لكن الطابع الاقتصادي والدقة في شراء الأدوات طابع دمشقي متميز، وقد ابتعدنا عن وصف البيوتات وتصرف الرجال والنساء وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي تميز الدمشقي عن غيره من بقية المناطق الأخرى.

من المظاهر الاجتماعية الأخرى:

- ١ - الأثاث والرياش، وإزالة الدكات من الغرف الشامية يوماً بعد يوم واستبدالها بالكنبات.
- ٢ - الإضاءة، وكانت وقفاً على الزيت والشمع، فالسراج يصنع محلياً ويملأ زيتاً من محصول البلاد أيضاً.

لم تفدنا الوثائق بالثياب والزينة، وقد عدنا في ذلك إلى ما ذكره عبد العزيز العظمة في مؤلفه، علماً بأن ما ذكره بأن القنباز لباس عام لجميع الناس مهما اختلفت طوائفهم وتوالت مناطق سكنهم، وكانوا يلبسون مع القنباز الدامر (رداء قصير ذو أكمام) ومن فوقه العباءة والمغربية والجبّة أو الفروة ويتمنطقون بالشال ويعتدون بالعمائم، في حين تميز لباس العلماء عن بقية الناس فعلماء المسلمون وتلاميذهم يضعون على رؤوسهم العمام البيضاء فوق الجبّة أو اللاطة أو الجدرية، أما المسيحيون فيرتدي رجال الدين عندهم القلنسوة والجبّة السوداء وحاخامية اليهود يرتدون العمامة الرمادية والجبّة فقط^(٢).

أما النساء فيرتدون الثوب البسيط والسروال الطويل من جنس الثوب، ويجعلن السروال أطول من الساق بنحو نصف ذراع، ويرتدين فوق الثوب المدرّبة أو الفروة ويتزين بتكة حريرية أو شال خفيف^(٣).

ومن المظاهر الاجتماعية للمجتمع الدمشقي، التستر حيث يتأزرن النساء بمآزر بيضاء تسدل على الوجه^(٤)، وقد تبارى الكتاب ما بين السفور والحجاب، وتحدثوا كثيراً عن دور المرأة داخل الدار، وبالطبع لن نتدخل في الشؤون الداخلية للبيوتات الشامية ولا إلى العادات والتقاليد لأن الوثائق أشارت إليه من طرف خفي جداً، وتجنباً من التكرار فلقد آثرنا عدم التحدث إلا كما أشارت الوثائق التي تعالج الحياة الاجتماعية^(٥).

لقد دلتنا الوثائق على أن الدمشقيين يعيشون بتسامح، رغم وجود أقليات مذهبية في معظم بعض المناطق، وقد أكدت الوثائق التسامح الديني ما بين المسلمين والمسيحيين^(٦)، كذلك فقد

(١) العظمة، مرجع سابق، ص ١١٥. (سمي العظمة الاصطلاء).

(٢) المغربية رداء شتوي، الجبة معطف طويل، الفروة رداء شتوي داخله من جلود الحيوانات ووجهه من نسيج قماش، اللاطة والجدرية نوع من أنواع الجبة وبالشكل نفسه تقريباً.

(٣) العظمة، مرجع سابق، ص ١١٦-١١٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٥) السجل ١٢٠ وثيقة ٣٣٥ ص ١٤٦.

(٦) السجل ١٤٩ وثيقة ٦٩ ص ٤٠.

عاش اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين والنصارى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الدار الكائنة بمحلة الخراب للشيخ فضل الله بن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الباني الداراني كان يحدها من جهة القبلة بيت سولي اليهودي وأمامه دار رزق الله النصراني وشمالاً دار عمر بشه النحاس، غير أن اليهود لم يكونوا يتعاطون مع المسيحيين بكثير من الأعمال الزراعية^(١)، فضلاً عن ذلك فقد يكون المسلم وكيلاً عن المسيحي، ولا يجوز العكس أن يكون المسيحي وكيلاً عن المسلم^(٢)، فمثلاً (السيد داوود جلبي بن حسن جلبي شحادة أصبح وكيلاً عن المعلم موسى ولد جبران البكتي، بشهادة شهود من أجل استتجار مصبغة باطن دمشق)^(٣). هذا ويشترك المسيحيون إخوانهم المسلمين بالشهادة في المحكمة، فمثلاً: (الحاج عبد المحسن بشه بن الحاج أحمد الحمصي، والمدعو متري ولد الياس نعمة، شهدا على وقف المدعو جرجس ولد نعمة بن هلال النصراني)^(٤). وإذا كانت السلطات العثمانية في دمشق. سمحت خلال فترة هذه الدراسة، بإطلاق بعض الألقاب على المسيحيين واليهود، مثل: المدعو، ولد، الهالك، من أجل النيل من مكانتهم كأقلية دينية، غير أن هذا ما كان له أن يؤثر التأثير الكبير كما لاحظنا من الأمثلة السابقة في التفاعل والتعايش بين المواطنين في المدينة، وحتى الفتنة التي حدثت لاحقاً (فتنة عام ١٨٦٠)، ثبت قطعياً أن مفتعلها هم أصحاب المصلحة فيها، كالسلطات العثمانية، والقوى الأجنبية الخارجية، فالسلطات العثمانية تضمن من خلال الفتنة تمزيق الشعب العربي، وإضعافه، واستمرار التسلط والهيمنة عليه، والقوى الخارجية تحاول زيادة امتيازاتها، من خلال التدخل بالشؤون العثمانية، أما الشعب العربي المغلوب على أمره فكان أكبر من الفتنة، وبخاصة في محلة الميدان بدمشق.

ونكرت الوثائق عدداً من المقاهي، مثل (قهوة المناخلية، في محلة القوافين بالقرب من سوق المناخلية)^(٥)، وقهوة الخريزاتية بسوق العبي والخريزاتية^(١)، وقهوة النجارين في محلة

(١) السجل ١٧١ وثيقة ٦١٥ ص ٣١٧.

(٢) السجل ١٦٧ وثيقة ٣٠٦ ص ١٤٩.

(٣) السجل ١٦٥ وثيقة ١١٢ ص ١٠٨.

(٤) السجل ١٣٥ وثيقة ١٤٧ ص ٨٦.

(٥) نعمان قساطلي، مصدر سابق، ص ١٠٩.

الشاغور البراني، بالقرب من ضريح أحمد السروجي، وقهوة الدقاقين في محلة الدقاقين، والقهوة في محلة القنوات وقهوة السكرية في باب الجابية^(٢). وكان هناك مقهى في سوق صاروجا، ذكرت إحدى الوثائق محتوياته وهي (ثلاثة مناقل وخمسة مناقل للنار وملقطين كبار وستة بسط وعشرة حصر وأربع دفات للنار، ومنصب حديد للنار، وعلبة بن واحدة وصندوق واحد، وميزان وثلاث كيلات للماء، وعلبة ماء، وخابية وتسعة أباريق من نحاس معدة لطبخ القهوة وكوكمين كبار نحاس^(٣)، وإبريقين نحاس وستة وثلاثون كرسيًا وأربعة تخوت، وأربعة وعشرون فنجانًا صينيًا قريبًا، اثنا عشر فنجانًا مشعرة صيني وثريتان بسريرا زجاج)^(٤). ويقول نعمان قساطلي: أن جماعة (الإنكشارية كانوا يجتمعون بها - بالمقاهي - ويصورون عددهم الحربية فوق الوجاق، وكانوا يعدّون تلك الصور كراية يحامون عنها، وكان من قتل قتيلاً، وتوصل إلى وجاق القهوة سلم)^(٥)، وعدم ذكر الوثائق سوى هذا العدد القليل من المقاهي، لا يدل على ندرتها في دمشق، فيبدو أن القضايا المعروضة على المحاكم، لم تكن هناك حاجة فيها لذكر المقاهي، وقد ذكرت كحدود للعقارات السكنية الموقوفة، وبعد ما يقارب المئة والعشرين عاماً، ذكر القساطلي أن في دمشق (ما ينيف على مئة وعشرة مقاه)^(٦)، مما يدل على أن المقاهي في دمشق خلال فترة هذه الدراسة، كانت أكثر بكثير مما ذكرته الوثائق، ولا سيما إذا علمنا أنه في تلك الفترة كانت هناك أخلاط من القوى العسكرية، النظامية وغير النظامية، وكان عدد كبير من الحجاج يؤم دمشق، استعداداً للرحلة في قافلة الحج الشامي إلى

(١) لطف السمر، مصدر سابق، ص ٢٦٥.

(٢) السجل ١٤٠ وثيقة ١٤٣ ص ٧٩. والسجل ١٤٢ وثيقة ٢٧٩ ص ١٣١. والسجل ١٦٧ وثيقة ٢١٩ ص ١٠٠، والسجل ١٧٠ وثيقة ٤٦ ص ٣٤، والسجل ١٧٢ وثيقة ١٠٢٦ ص ٤٤٧، والسجل ١٦٣ وثيقة ٦٣ ص ٢٨.

(٣) المقاهي أعدت للذكور فقط وبالذات الرجال، ومن المعيب دخول النساء إلى المقاهي، لكن الأيام أجازت للنساء كل شيء. (الباحث).

(٤) السجل ١٧١ وثيقة ٧١٨ ص ٣٥٨، (أبقيت كلمات الوثيقة دون تصويب). بالمناسبة المقاهي خلقت للذكور فقط.

(٥) نعمان القساطلي، مصدر سابق، ص ١١٠.

(٦) المصدر السابق، ص ١٠٩.

الديار المقدسة، وخلال فترة وجودهم في المدينة، ربما كانوا يقضون بعض أوقاتهم في المقاهي طلباً للراحة.

هذا وقد بيعت الجوارى في مجتمع دمشق^(١)، كما وجد الخدم^(٢)، وكان للدمشقيين اعتقاد بالمجانيب^(٣)، وقد انتشر الفساد، وكثرت بائعات الهوى في المدينة، ولا سيما عندما كان زورباوات اليرلية سادة الموقف، وبدأن بالظهور بشكل علني^(٤)، وأحدهم ذهب إلى حدّ إهانة القاضي الذي عمل مع المفتي على إجبار المومسات على مغادرة المدينة، أو إلى عدم الظهور والاختباء تحت الأرض، وكانت العسكرية المتمردة السبب في انتشار البغاء، وعدم استئصال جذور الشر، وبعد فترة وجيزة، ظهرت المومسات علناً مرة أخرى، (ففي محلة الملك الظاهر كان يجري في إحدى دخلاتها فعل القبيح من قبل رجال ونساء وغلمان)^(٥)، وكنّ يخالفن تعليمات وحرمة شهر رمضان، فخلال هذا الزمن اعتادت المومسات على التجمع قرب جامع الكونليا، وبالقضاء على الزورباوات، لجأ الدالاتية بشكل متزايد إلى مصاحبة المومسات، اللواتي بلغ بهن الأمر إلى حدّ تنظيم احتفال عام في إحدى المناسبات، دون أن يتعرّضن لسوء من قبل السلطات، وعندما روجع أسعد باشا من قبل الأعيان لوضع نهاية لمشكلة المومسات، إما بطردهن، أو بتحديد مكان إقامتهن، أجابهم بأنه لا يتحمل مسؤولية دعائهن عليه.

وهكذا نقرأ في تاريخ دمشق الديني أن المدينة غصت بالمدارس ودور الحديث والخانقاه والتكايا والزوايا، وهذه ظاهرة صحية على أن وراد العلم كانوا يجتهدون في مجال العلم وأن السلطة الحاكمة كانت على دراية بمطالبهم المنصبة على بناء المؤسسات الدينية، هذا الاهتمام الرسمي والمحلي، حول دمشق إلى قبلة لطلاب العلم والمعرفة، ولم يتوافد على دمشق طلاب العلم فقط، بل طلاب العيش، حيث كانت معظم المؤسسات الدينية تقوم بأعمال خيرية، ونقلًا عن محمد سليم الأناضولي كاتب قاضي القضاة إن الموائد الدمشقية^(٦) قلما يخلو يوم من

(١) السجل ١٤١ وثيقة ٦٦ ص ١٠٣، والسجل ١٢٢ وثيقة ١١٣ ص ٥١.

(٢) السجل ١٣٠ وثيقة ٦٠ ص ٣٠.

(٣) الحلاق، مصدر سابق، ص ١٢١.

(٤) السجل ١٦٥ وثيقة ٩٨ ص ١٣٤.

(٥) السجل ١٦٥ وثيقة ٩٩ ص ١٣٥.

(٦) محمد سليم الأناضولي، الموائد الدمشقية، مخطوط السليمانية رقم ٨٦٥٣.

إعدادها، وكان الفقراء يتواصلون فيما بينهم بشأن الموائد التي تقام، وأضاف كاتب القاضي أن اليكسونلر^(١) طالبوا بأن يسمح لهم النوم بالقرب من الجوامع، لكن رفض ذلك، وطلب من الوالي تولي هذه المهمة، وقد أشاد محمد سليم الأناضولي في مؤلفه الموائد الدمشقية عن كميات الطعام التي تطبخ في مختلف الحفلات الرسمية والدينية^(٢)، غير أن الدمشقيين يتعالون فيما بينهم، ولا تتزاور معظم الطبقات إلا مع قرائنها، فضلاً عن وجود اختلاف كبير في المآكل والملبس^(٣)، وقلما اختلط أولاد الأحياء فيما بينهم، كذلك فقد عمدت بعض الطرق الصوفية الأخرى إلى بناء مدارس خاصة بمؤيديها، ولهذا فإن القرن التاسع عشر شهد تنافساً علمياً أفاد العامة والخاصة، لكن زاد التحاسد والبغضاء لدرجة أنه تحول إلى خصام، فلا يجروء شخص شافعي على دخول زاوية قادرية^(٤).

لم تعرف دمشق احتفالاً شعبياً مهيباً وعماماً مثل احتفالهم برجوع الحجيج، ولا سيما إذا وصلت أخبار سيئة، فيتقاطر الجميع إلى حي المصاب بأذى ويقدمون له ولحيه كل المساعدات الممكنة، وهذه ظاهرة اجتماعية حسنة^(٥)، وفي سنة ١٦٩٦م تعرضت قافلة الحج إلى كارثة أودت بحياة قسم منها، وسببها أن أمير الحج حاول الاستئثار بالصرة والأموال المخصصة للبدو، وعلى جناح السرعة أرسل السلطان مصطفى الثاني كبير البوابين إلى دمشق ولمحاسبة أمير الصرة ومعاقبته على فعلته^(٦).

تعدّ الطريقة المولوية من أكثر الطرق الصوفية في إقامة الحفلات، فلقد امتازت بأنقة دعائها، وكان الأوروبيون يتوافدون إليها بشكل كثيف لدرجة أن يوم الاحتفال كان أشبه بظاهرة شعبية^(٧).

(١) يوكسونلر: الفقراء أي الذين لا يملكون المال وغير قادرين على العمل. مصطلح تركي.

(٢) الأناضولي، مصدر سابق، مخطوط ورقة ١٨.

(٣) المصدر السابق، ورقة ١٨.

(٤) المصدر السابق، ورقة ١٩.

(٥) الأناضولي، مصدر سابق، ورقة ٢٠.

(٦) سجلات الديوان الهمايوني، نمرة ٧٧٣، ص ٥٨.

(٧) لقد أشارت الوثائق على مكانة المولوية والشعبية العامة التي تحظى بها، وقد أشرنا سابقاً إلى الزوايا التي ذكرتها الوثائق، واضطررنا للتعرض للزوايا التي لم تذكرها الوثائق، ولا سيما الاحتفالات التي تقام في دمشق كمدينة دينية. السجل ١٧٦ ص ١٩٣ وثيقة ٥٢٢ وبشأن الاحتفالات الدينية في دمشق، أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أبي بكر الجزولي السملاني، دلائل الخيرات والشوارق والأنوار، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية رقم ١٧٣٥، ورقة ١٧-٢٧.

ومن العادات الدمشقية التي تتفرد بها عن غيرها من حيث الدقة ومراقبة كل بارقة هي انتقاء العروس، وقد تعرضت معظم الكتب التي كتبت عن دمشق ظاهرة انتقاء العروس.

إن القارئ لتاريخ مدينة دمشق خلال مسيرتها التاريخية يرى في هذه المدينة ميزات قلما توافرت بمدينة في العالم، فضلاً عن ذلك فإن أبناءها الحقيقيين مهرة في التخاطب والتعامل ومسألة البيع والشراء، وقلما تجد شخصاً غليظاً يمارس التجارة أو مهن أخرى.

إن السجلات الشرعية سواء في دمشق أو استانبول كانت أحادية القطب في المعالجة، وقد وضحت تلك الوثائق مسألة البيع والشراء والاستتجار والأوقاف والمدارس، وهي السمة الرئيسة لتلك الوثائق، ولهذا فإننا قلما نتمكن من التزام نهج واحد في معالجة الأحداث، نتيجة لتباين مادتها الرئيسة.

٢- الواقع الاجتماعي :

إن دراسة الحياة الاجتماعية في مدينة دمشق في العقد الأخير من القرن السابع عشر على الرغم من أنها ظاهرة اجتماعية ذات طابع مميز وخاص نتفرد به دمشق عن غيرها من المدن العربية والإسلامية، إلا أنها ظلت موضع تساؤل من قبل الكتاب والمؤرخين.

لقد كثرت الأعلام التي سعت لكتابة تاريخ دمشق من مختلف نواحي الحياة، ولا سيما الاجتماعية منها، فقد ظلت موضع تجاذب بين الكتاب والعلماء تطلعاً للوصول إلى دراسة هذا المجتمع الدمشقي الممزوج بعبق الماضي ورائحة المستقبل.

إن تعدد الدراسات وتنوعها أسهم في رسم صورة شبه كاملة عن دمشق، فبعضهم رأى أن دراسة البيوتات والدور والخانات والمساجد والمقاهي تعطي صورة ناصعة عن تاريخها الاجتماعي، وبعضهم الآخر ارتأى أن دراسة العادات والتقاليد والأزياء والأعياد والزواج وتفرعاتها جوهر الحياة الاجتماعية التي يتطلع إلى تأريخها بشكل علمي.

لم تكن الوثائق التي درست دمشق بغافلة عن ذلك التباين الاجتماعي، فركزت دراستها على تقديم عرض شبه انتقائي ومختصر عن واقع دمشق، وقد صعبت رؤية الواقع الاجتماعي لمجتمع دمشق، لأنه مجتمع متشابك في علاقاته وخبوطه معقدة لا بداية لها ولا نهاية، فإذا تطلعت إلى التعاون الاجتماعي القائم على التضامن والمعاوضة ففيه نسبة كبيرة، وإذا نظرت إلى العادات والتقاليد فإن قراءتها قطعة جمالية متكاملة لا نقص فيها، وإذا التفت إلى الأزياء والموائد فهي حافلة بكل ما لذ وطبا، وبناء على ما تقدم فلقد تمت قراءتنا للمجتمع الدمشقي من خلال دور السكن والمساجد والجوامع والأزقة والمحلات، على تغذية الدور بالمياه والورود والأزهار التي اعتادوا على زراعتها في فسحات الدور وغيرها من المباني التي أسهمت إلى حد كبير في بنية المجتمع الدمشقي وتكاثره وبقائه حول عقلائه وعقداً الأسر الدينية والتجارية، انطلاقاً من كونه مجتمعاً متديناً وتجارياً في آن معاً، هذه الازدواجية المتماسكة

شكلت عقدة لدى الغزاة الذين عجزوا عن فهمه أو التسلل إليه لضربه وتمزيقه، ولم يتהלون الدمشقي يوماً في السماح لأية قوة سياسية أو اجتماعية غريبة عنه.

يرد كثير من المؤرخين تماسك المجتمع الدمشقي إلى المؤسسة الدينية، التي واطبت دوماً على توحيد أطراف المجتمع، وعلى الرغم من عدم تمكنها من توحيد بالشكل الذي ترغبه، لكنها منحته صفة تضامنية تجسد فعلياً في الأعمال التجارية والصناعية.

لقد نمت المدينة بشكل أكبر من واقع العصر، على الرغم من ذلك فقد استطاع المجتمع الدمشقي احتواء كل القادمين إليه، ولا سيما بعد مرحلة دراستنا بنصف قرن، ومما أسهم في تقسخ المجتمع الدمشقي وزيادة تباعده الامتيازات التي منحها العثمانيون للأوروبيين بدءاً من سنة ١٥٣٥م. وهذا ما زاد في مساحة التبشير الديني، فتباينت المذاهب الإسلامية بمختلف فرقها الدينية، في حين تعرضت المسيحية إلى تمزيق ديني تجسدت من خلال رؤية مذاهب جديدة في الطوائف المسيحية الشرقية من روم كاثوليك، وأرمن كاثوليك وموارنة لاتين وكلدان، وشهود يهوه وموسويين^(١).

لم تكثر القوى البشرية في دمشق بذلك التناحر الديني سواء على مستوى الفرق الإسلامية أو المسيحية، لأنها كانت تتصارع على المناصب السياسية والرسمية، ولهذا فإن شدة الصراع بينهم أسهم في زيادة الصناعة التي قامت على منافسة خارجية.

لقد تجاهلت الدولة العثمانية بوصفها راعية رسمية لمدينة دمشق الصراعات الداخلية فضربت كل قوة تخرج عن حدود السلطة ونظامها، وتذكر الوثائق أن المحاكم الشرعية في مدينة دمشق لم تبت بقضية فيها مساس ديني أو طائفي، ويفسر الباحثون ذلك بقوة سلطة الدولة وهناك من يرده إلى فهم المجتمع وإدراك تلك القوى ما يحيط بها من خطر إذا هي تجاوزت الخط الرسمي المتعارف عليه سياسياً.

لم تتأثر دمشق بالمتغيرات المملوكية والعثمانية كثيراً، وتعدّ مرحلة إبراهيم باشا المصري من أكثر المراحل التاريخية التي تعرضت فيها دمشق لمستجدات جديدة على مجتمعها، لكن رحيله المبكر المفاجئ أبقى المجتمع الدمشقي على حاله.

(١) جورج عبد المسيح، رسالة من رسالة، بيت مري، بيروت ١٩٧٢، ص ٨٣-٨٤.

يتصف مجتمع دمشق بأنه مجتمع أسري، لأن معظم أسره كونت لنفسها نفوذاً سياسياً فرض نفوذه على المدينة، وأرغم الولاة على الاعتماد عليهم والأخذ بمشورتهم، وقد تزامنت مكانة بعض الأسر دينياً من خلال الطرق الصوفية التي وجدت في دمشق جواً ملائماً لمريديها، فهبت المدينة للالتحاق بدعاتها، ولا سيما بعدما سيطرت سيطرة إقطاعية اقتطعتها من الدولة أو أن الدولة منحها إياها، وهذا ما ساعدها على شراء المؤيدين من رجال السلطة في دمشق واستانبول، ولم تكن هذه الأسر تلتزم بالقاعدة القومية (العربية) فلقد تعاونت الأسر من أصول تركية وكردية مع الأسر العربية من خلال الطرق الصوفية، وتتالت قوة هذه الأسر تزداد نفوذاً، وقد انتهى هذا النفوذ بقضاء الدولة العثمانية على أقوى الأسر وهي أسرة آل العظم.

أما الأسر الذمية فلقد حظيت بثروة مالية لأنها لازمت الصيرفة والجمارك، وتعد أسرة آل فارحي اليهودية من أكثر أسر أهل النمة نفوذاً لأنها تولت مسؤولية الصيرفة والدفتردارية في ولايتي صيدا ودمشق^(١)، وتقيد المصادر أن الأموال كانت تصل إليها من أبناء جلدتهم في تركيا وبالتحديد من سالونيك^(٢).

إن الهجرات البشرية التي شهدتها دمشق في القرن الذي يلي فترة دراستنا حول معظم شوارعها وأزقتها إلى تعداد بشري متفاعل نهائياً ولبلاً، ويعدّ حي الميدان وحسب ما تذكر الوثائق من الأحياء الدمشقية الأكثر اكتظاظاً، وكذلك فإن بقية الأحياء شهدت هي الأخرى هجرة كردية تركزت في منطقة محيي الدين، أما الأتراك فقد تركزوا في منطقة الصالحية لمن كان ميسوراً منهم، ومنطقة الجامع الأموي وما جاورها لمن كان فقيراً^(٣)، وتقيد الوثائق أن الفوضى التي عمت استانبول في عهد السلطان أحمد الثاني (١٦٩١) دفعت بعض الأسر المنتفذة تركية أو كردية إلى الهجرة إلى دمشق لأسباب من أهمها سمعة دمشق ورونقها والأضرحة والصوفية التي تتباهى على أرضها، ويضيف أحمد باشا الاستانبولي التاجر الكبير: لقد كنا نتطلع إلى مناسبة تدفعنا للهجرة إلى دمشق التي تزدهر الأعياد الدينية بها، فلقد بارك الله

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ٢ ص ٤٢٧.

(٢) مهمة دفترية، رقم ٤٩٨، ص ٨٤.

(٣) مهمة دفترية، كتّبه (المهاجرون) رقم ٢٥١.

لنا في القروش التي دفعت لاتخاذ مركز تجاري للحبوب بالقرب من الجامع الأموي^(١)، فلقد كسبنا الدنيا وكسبنا الآخرة، وعمل وصلاة وإيمان وتعاون وتقوى قلما تتوافر في مدينة غير دمشق. وقد توافدنا إلى الحاكم الشرعي باستانبول وحصلنا على إذن بالهجرة إلى دمشق، وكان أقراننا قد هيئوا لنا الإقامة والمتجر قبل عدة شهور منذ قدومنا^(٢)، وتفيد وثائق المحكمة الشرعية في دمشق، أن عدد الذين وصلوا إلى دمشق سنة ١٦٩٧ قرابة سبعين شخصاً، من بينهم أطفال ونساء وشيوخ، بعضهم اتجه إلى الصالحية واشترى داراً، وبعضهم الآخر اتجه للسكن بالقرب من الجامع الأموي تبركاً، ومن أجل الحصول على عمل يؤمن له العيش^(٣)، وتفيد الوثائق أن الأغنياء الأتراك الذين قدموا كان غناهم كبيراً قياساً بأبناء دمشق، وهذا الحال الاقتصادي هياً لهم إقامة مريحة، وبعد فترة دونوا أسماءهم في سجلات المحاكم الشرعية التابعة لهم.

وتدل الوثائق على النساء الدمشقيات ولا سيما الغنيات منهن حضرن إلى المحكمة (من دون ألقاب) واستدن أملاكاً لهن في الوقف، وهذا يدل على قوة شخصية المرأة الدمشقية وتوليها قضاياها بنفسها، وتسرف الوثائق في الإيضاح بالقول: لقد بلغ مجموع الذين اتخذوا وكلاء (رجالاً ونساءً) ما يزيد عن ثمانية وعشرين واقفاً، وكان عدد الأشراف ٩/ والحجاج ٧/ وخمسة رجال عاديين، وأربعة من الشيوخ وثلاثة من الأغوات، هذه النسب تعطي صورة واضحة عن فعالة المجتمع الدمشقي ونسبة أملاك الوقف فيه^(٤).

لم يكن واقع المرأة في دمشق، ومن خلال الوثائق، واضحاً لأن المحاكم الشرعية لا تعالج أوضاع المرأة إلا من زاويتين زاوية وقفية وزاوية شرعية^(٥)، وسوف نبتعد عن

(١) سجلات المحكمة الشرعية الروميلي، سجل ١٧١، وثيقة ٨٩، ص ٤١٨.

(٢) السجل ١٥٣ وثيقة ٨٧ ص ٣٦، وتدل هذه الوثيقة إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه أن الوقف العائد للشيخ حسين بن طعمه... الدمشقي الميداني، القادري، الرفاعي، قد أسنده إلى متولي يعود بأصوله إلى أسرة دينية قادمة من استانبول، وذلك بموجب فتوى من أمين السر أو أمين الفتوى.

(٣) السجل ١٢٩، وثيقة ٥٧١.

(٤) السجل ١٧١ وثيقة ٦١٥ ص ٣١٧.

(٥) مقولة الشيخ أحمد زفر المالكي الشافعي، قام بتحقيق مخطوطه أحمد دهمان، دمشق ١٤٧٩ ص ١٥٣.

الزاويتين لأسباب كثيرة من أهمها وقوع تطرف في مسألة الدعاوى والشكاوى ومسألة الطلاق وما يقرب عنه، وقد تداخلت العلاقات الأسرية من خلال الزواج مع بعضها، فأقامت أولاً اعتبارات كبيرة للحالة الاجتماعية والوضع الاقتصادي والمكانة السياسية التي تتوافر للعروسين، ولم يقدّم الدمشقيون أية اعتبارات للطروحات التي وردت في سياق الأشعار من حب وغزل وهيام، لأنه مجتمع متفاعل والحركة فيه تقوم على المنفعة^(١)، ويورد يوسف نعيصة في مؤلفه حادثة بعد فترة دراستنا أن أسعد باشا العظم زوج ابنته من مملوكه، فعلق بعض خاصته وبعض رجال الدين في دمشق على تصرفه هذا قائلين فيما بينهم: (الله يرحم أيام الحسب والنسب فالى أين نحن صائرون)^(٢).

لم يكتف الدمشقيون باتخاذ الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتوافرة في العروسين، بل لجؤوا إلى اعتماد مهر الفتاة (صداقها) وقد اشترطوا فوق هذا وذلك تجهيزاً كاملاً وذهباً ولباساً بدن وغيرها من الأمور التي تتعلق بها^(٣). ثم تسجل في سجلات المحكمة بدمشق، وتفيد سجلات المحاكم الشرعية أن مهر الدمشقية كان كبيراً قياساً ببقية الفتيات في سائر الولايات الأخرى. وأضافت المحاكم أن نسبة الطلاق في المجتمع الدمشقي قياساً بالمدن الأخرى كان كبيراً، وكان يسفر عنه إفلاس أهل العريس، واتخذت بعض العائلات ممن اتخذت من الزواج وسيلة للغنى^(٤). وكان للطلاق أسباب أهمها العامل المادي، فضلاً عن العيوب الأخرى من عقم وغياب الزوج، وهذه الظاهرة كانت في العائلات الارستقراطية أكثر مما هي في العائلات الفقيرة، لكن هذا لا يعني بأن الطلاق كان وفقاً على الأغنياء وحدهم^(٥)، وتحظى فترة دراستنا بنسبة كبيرة من الطلاق مردّها سوء الأوضاع الاقتصادي، وإذا عمدنا إلى مقارنة الأوضاع الاجتماعية خلال القرن السابع عشر نجد ومن خلال سجلات المحاكم الشرعية أن النسبة تزيد عن ٩/ بالمئة، ويفيد نعيصة في مؤلفه أن نسبة الطلاق في المجتمع الدمشقي فترة

(١) ترجمان، يا مال الشام، مرجع سابق، ص ٣٥-٤٠ فضلاً عن المقدمة.

(٢) نعيصة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٣٠.

(٣) ترجمان، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية، سجل ٢٣١ وثيقة ٤٧٨ ص ١٣٨.

(٥) سجلات المحكمة الشرعية مشوش دفترى رقم ١٥٨ وثيقة ١٤٠ ص ٥٠.

١٨٣٣-١٨٤٠ كانت كبيرة نظراً لسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية^(١)، أما في فترة دراستنا فإضافة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية، فهناك اضطراب حبل الأمن وانتشار الفوضى أسهم في حدوث تنافر في بعض الأسر نتج عنه طلاق، وتقيد الوثائق أن حي الصالحية شهد خلال أقل من شهر عشر حالات طلاق سببها إما الزوج وإما تعنت الزوجة بالسكن في بيت خاص بها^(٢).

ومن العادات التي درج الدمشقيون على المواظبة عليها حجاب المرأة، ولم يكن الحجاب وفقاً على المرأة المسلمة بل النساء المسيحيات واليهوديات لبسن الحجاب، لكن حجاب المسلمة كان يشمل المرأة بالغالب من رأسها إلى قدميها، وقد وصفه أحد المستشرقين بالقول: (الحجاب عزل المرأة عن الطبيعة)^(٣)، وتقيد سجلات محكمة الميدان أن اليهودية التي سكنت الميدان فرض عليها الحجاب، ولكن حجابها وحجاب المسيحية يختلف اختلافاً كبيراً عن حجاب المسلمة، ولم يكن الحجاب الذي يضرب على المرأة وفقاً على الشارع، بل كان يضرب عليها إذا كانت تسكن في دار واسعة مع أخوة زوجها، لأنهم غير محرمين عليها^(٤).

وتقيد سجلات المحكمة الشرعية إذا توفى الزوج، وقام أبناء أهل الزوج بأخذ أولادها إذا كان لها أولاد، فتلجأ إلى المحكمة لأخذ النفقة عن طريق المحكمة الشرعية، وقد أفادت المحكمة بأن معظم النساء اللواتي طُلّقن في السنة ١٦٩٤ قرابة ٩ نساء ليس لهن معيل، وليس لديهن أي دخل. وبالمقايضة مع سجل آخر وجدنا أن النسبة تزيد وتنقص لكنها لا تقل عن ٨ إلى ٩ نساء^(٥).

وخلاصة ما يمكن قوله عن المرأة الدمشقية من ناحية الحجاب والطلاق وما شابهه، وبالاعتماد على الوثائق إن المهور اختلفت من حي لحي ومن عائلة لعائلة، لكن جميع

(١) نعيصة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٣١.

(٢) لم يقع في أيدينا وثائق عن حجاب المرأة، وبما أن المجتمع واحد في تكوينه الاجتماعي فلقد تم الاعتماد على مؤلفات عدة أبرزها نعيصة ومؤلفه الشهير مجتمع مدينة دمشق.

(٣) ترجمان، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

(٤) س ٤١٢، وثيقة ١٨٨، ص ٢٤٠.

(٥) س ٨٩٢ و ٢٥٣، وقد أجرينا عينة ما بين قرن من ١٦٩٤-١٧٩٤ وتبين العدد المذكور أعلاه.

الدراسات أجمعت على أن ملبوس الفتاة وتجهيزها أمر لم يحدث إن تتنازلت عنه امرأة مهما كان وضعها المادي حسناً أو سيئاً، وأن الحجاب فرض عليها وحسب المناطق، لكن بعض العائلات اللواتي خرجن خارج دمشق لفترات غير قصيرة، تصرفن من حيث الحجاب حسب الواقع، ففي داخل البيت مع أشقاء زوجها جلست سافرة، وما عدا ذلك كان محظوراً عليها ولا سيما في الخروج فقد التزمت بالحجاب، أما من حيث الطلاق فلقد حفلت سجلات المحاكم الشرعية بإيراد حالات طلاق متعددة ولأسباب مختلفة^(١)، ولكن المجتمع الدمشقي اختلف عن غيره من المجتمعات الأخرى، فلقد وجدت المرأة المطلقة قبولاً لا بأس به، ويرد دارسو تلك الحالة إلى قلة مهرها وتجهيزها وقبولها بواقع مردوده المالي دون الوسط، وبما أن مجتمع دمشق مجتمع اقتصادي^(٢)، فلقد أدت هذه الوضعية إلى الاقتناع بها رغبة وليس بعامل الإكراه، فضلاً عن ذلك، فقد تخلت عن عفوانها وغرورها، وغدت سهلة القيادة أكثر مما كانت سابقاً، بعكس المرأة خارج دمشق، فلقد لقيت ازدراءً من محيطها، لكن نسبة الطلاق في ريفها كانت محدودة، لأن المرأة تشارك الرجل في بعض الأعمال الزراعية.

إن معظم الدراسات وصفت مجتمع دمشق بالمجتمع المحافظ وأن نساءه بلغن درجة لا بأس بها من الاحتشام وقد كن يلتزم بالواقع الاجتماعي لمجتمعهن الذي يشهد خليطاً اجتماعياً متعدداً بهويات القومية والمذهبية واللغوية، هذا التنوع البشري أسهم في تنشيط الاقتصاد الدمشقي، وفي الوقت نفسه قضى على ظاهرة اجتماعية لا تزال الأرياف بخاصة تشكو منها، وهي ظاهرة العنوسة. وتفيد الدراسة التي أجرتها الباحثة التركية من أن نسبة عوانس استانبول لم تكن تتجاوز نسبة ٣% في حين كانت في إزمير ٩% ودمشق ٦% وحلب ١١% وحمص ١٣%، ويرد ارتفاع النسبة في حلب وحمص إلى وجود فتيات مسيحيات لا يرغبن بالزواج،

(١) س ٨٧١ وثيقة ٧٥، عينة من سجلات ١٣٠٢ هـ بفارق قدرة قرابة قرنين من الزمن، في حين أفادت سجلات ١١١٢ أن حالات السفور في دمشق نادرة جداً، وحالات الطلاق مشابهة لأحداث القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك الحال بالنسبة للنفقة والإعالة وما شابهها من حالات حفل المجتمع الدمشقي بها. وقد أجريت دراسات مقارنة ما بين حالات الزواج في دمشق وحالات الزواج في استانبول من قبل الباحثة نباهات هانم لسنة ١٧٥٠ م وقارئ الرسالة يصاب بالدهشة للتشابه القائم بين المدينتين.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٣.

أما في دمشق، فلم تذكر لنا الباحثة حالة واحدة عن مسيحية لم تتزوج، صحيح أن هناك فتيات قاصرات خلقياً، وهؤلاء الفتيات تدخلت الأقدار في عدم زواجهن، لكنهن من فئات المجتمع^(١).

إن المجتمع الدمشقي الذي ضم خليطاً غير متجانس، وواقع المدينة وما حولها فرض قبول هذا التنوع لأن القوة السياسية والعسكرية تركزت في دمشق، ولهذا فإن أي خلل قد يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، لأن السلطة الزمنية آنذاك لن تسمح بحدوث مشاغبات مهما كان نوعها ولهذا فعندما يضطرب حبل الأمن تتعرض دمشق إلى خسائر مادية كثيرة، ولا نريد أن نتعرض لذلك لكثرة الباحثين الذين عالجوا الواقع السياسي لدمشق^(٢).

٣- أهل الذمة :

إن الدراسات الوثائقية أشارت إلى واقع دمشق بمختلف طوائفه المسيحية واليهودية، فضلاً عن طائفته الرئيسية الإسلامية، ولكي لا تكون دراستنا أحادية الجانب، آثرنا أن نعطي لمحة مختصرة عن مسيحيي دمشق، في حين آثرنا التوسع في دراسة اليهود، والوثائق لم تقدم لنا معلومات عن حياة الطوائف التي سكنت دمشق إلا إذا ارتكبت مخالفات يعاقب عليها القانون أو قامت ببيع أملاك وعقارات أو أنها تزوجت أو طلقت، وبما أن هذه الوثائق لم تحدثنا عن أهل الذمة، فقد آثرنا دراستها من خلال المصادر والمراجع التي تناولت أهل الذمة، وما أكثر المصادر والمراجع والدراسات التي تناولت اليهود بالدراسة، وليس بدافع كشف تاريخهم الحافل فهم لم يشاركوا مشاركة وجدانية مع باقي طوائف المجتمع، ولم يقوموا يوماً بالدفاع عن الوطن الذي يسكنون فيه، وعدّوا أنفسهم غرباء عنه وعن أهله، من هذا المنطلق آثرنا التوسع في دراستهم.

(١) نباهات هانم، مصدر سابق، ص ٣٥٠.

(٢) الصيادي الشافعي، محمد عز الدين عربي كاتب، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، دمشق ١٣٣٠، ص ١٣-١٦.

١ - المسيحيون:

تفرع المسيحيون إلى طوائف متعددة تصارعت فيما بينها واختلفت، ولكنها عاشت في مجتمعاتها على الرغم من هذا الاختلاف دون تكلف أو اضطناع، ومارسوا طقوسهم الدينية، وقد فرضت على المسيحيين ضرائب مالية، ليس لأنهم مسيحيون بل لأنهم آثروا عدم الدخول في الخدمة أو مشاركة الجيوش الإسلامية الفتوحات، وهذه الضريبة هي ضريبة البذل، وقد ظلت مفروضة عليهم قرونًا، وقد تطلع معظم المسلمين في أثناء السيطرة العثمانية إلى دفع البذل بدلاً من الخدمة في البلقان، ولم يشعر المسيحيون بنعمة هذه الضريبة إلا في المرحلة العثمانية، وقد شعروا بالارتياح، ومن الجدير بالذكر أن هناك جهات مسيحية تحمل الدولة العثمانية عبئاً إنسانياً، فحواه أن الدولة العثمانية كانت تقوم بانتزاع الأطفال المسيحيين وتربيتهم وتدريبهم بعد أن تفرض عليهم اعتناق الإسلام، في الواقع أن المسلمين أينما كانوا قبل فتح استانبول وبعدها كانوا يتطلعون لنيل هذه الحظوة السياسية والإدارية التي تفرد بها أطفال المسيحيين آنذاك، فالأتراك كلهم عندما دخلوا الأناضول لم يكونوا بأطفالهم ونسائهم وشيوخهم وشبابهم يتجاوزون ألف إنسان، وقد حكموا العالم فيما بعد، الذي مثلّ العثمانيين في حكم الأتراك للعالم هم الشبان المسيحيون الذين انتزعوا من بين أهلهم، والعثمانيون لم يأخذوا الولد الوحيد إلى الدفشمرة ولم يأخذوا كل الأطفال، وأن النظام كان ينص على أن يؤخذ أولاد العائلات الراقية وأولاد الرهبان^(١).

إذاً فالضريبة كانت مقابل عدم الخدمة في القوات المحاربة، ولم يكن المسيحيون هدفاً عثمانياً، والعثمانيون لم يميزوا بين أي طائفة إلا بتوجيه من مخبول عقلياً^(٢)، وقد سكن دمشق مسيحيون بمختلف طوائفهم.

١ - طائفة الروم الأرثوذكس، ويتبعون الكنيسة الشرقية والطقوس البيزنطية، عرفوا في الدولة العثمانية باسم (روم ملتي) منح بطريركهم امتيازات واسعة منذ زمن

(١) إسماعيل أوزن، عثمانلي تاريخي، فضلنا عدم التوسع في ذلك تجنباً من الخروج عن الموضوع، وقد اضطررنا إلى ذلك لكثرة ما يردده البعض حتى العقلاء.

(٢) أجمعت المصادر التركية إن ما ارتكبه بعض السلاطين كان بتحريض مخبول كما سماه عدنان جاندار (تجاوزات السلاطين) استانبول ١٩٤٥ ص ١٧٨

الفتاح^(١)، وخصص لهم محكمة وسجن في القسم الغربي من استانبول يسمى حي الفنار، وكان لهم بطريركيتان الأولى في القدس، منحت حق الإشراف على كنائس الروم الأرثوذكس في فلسطين، وبسبب منع روسيا من الإشراف عليهم أسوة بالإشراف الفرنسي على الكاثوليك، نشبت حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦. أما الكنيسة الثانية فمقرها دمشق، وتشرف على مصالح المسيحيين وكنائسهم من صور حتى الأناضول^(٢).

لم يكن الولاة العثمانيون قادرين على ممارسة أية ضغوطات عليهم، وبالعكس فإن المسيحيين تولوا مناصب رفيعة ومهمة في الدولة العثمانية، فالشؤون الخارجية وشؤون الترجمة كانت وقفاً عليهم وأعمال الصيرفة والجمارك وقفاً على اليهود، والحمل والحراسة والدفاع والزراعة وقفاً على المسلمين^(٣).

لم تقم الدولة العثمانية ولا ولايتها في التضييق على المسيحيين، لأن الدول الأوروبية ولا سيما روسيا كانت تنقل شكواهم إلى السلطان فيتدخل شخصياً لحل الظلمة التي كانت تقع عليهم^(٤).

٢ - الروم الكاثوليك: وقد تمسك هؤلاء بالاتجاه الغربي وخضعت إدارتهم الدينية إلى بابا روما الذي قام برعايتهم والسهر على مصالحهم، ومن أشهر شخصياتهم الدينية المطران مكسيموس مظلوم ١٨٢٣-١٨٥٥م حيث بنى أكثر من أربعين كنيسة في دمشق ومحيطها، كما أقام بطريركية في حي الميدان، وتفيد الدراسات أن أعدادهم قرابة ١٢٠,٠٠٠ نسمة في دمشق وضواحيها^(٥).

٣ - السريان واليعاقبة: لقد عدّ الأرثوذكس كنائس السريان واليعاقبة هرطقة دينية ولهذا بدأ الطرفان يتبادلان التهم التكفيرية أسوة بالمسلمين، ويعود اليعاقبة إلى يعقوب

(١) عدنان جاندار، المسيحيون أحباء العثمانيين، استانبول ١٩٥١، ص ١٨٠.

(٢) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٠٣.

(٣) جاندار، المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ١ ص ٣٣٦.

(٥) كرد علي، خطط الشام، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢٩.

البرادي أسقف أوديسيا حيث نظم هذا المذهب مع مطلع القرن السادس عشر وكنيستهم قريبة من الكنيسة القبطية، وقد واجه أنصارها اضطهاداً كبيراً، لهذا اتخذ دعائه حلب مركزاً لهم بعدما اعترفت الدولة العثمانية بهم سنة ١٧٣٩م، والسريان اليعاقبة كالسريان الكاثوليك تعرضت كنائسهم للأذى نتيجة الحوادث الطائفية التي أسفر عنها تطبيق نظام القائمقامية في لبنان ١٨٤١-١٨٦٠ والسريان يعتمدون اللغة السريانية في اللاهوت والعبادات وعددهم في سورية قرابة ١٥٠,٠٠٠ نسمة^(١).

٤ - الأرمن: فرقة انبثقت من المسيحية وتسمت بالأرمن نسبة إلى موطنها الأصلي، اعترفت بهم الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية من قبل الفاتح ١٤٥٣، يطلق على رئيسهم الروحي اسم مطران، خصص له بناء خاص في استانبول في منطقة اسكودار، عرف عنهم تمسكهم بمعتقداتهم الدينية مع مرور الزمن انقسموا فيما بينهم إلى أرمن أرثوذكس وأرمن كاثوليك، تعدادهم قرابة ٨٠,٠٠٠ نسمة^(٢).

٥ - الموارنة: هم جماعة من السريان ينسبون إلى القديس مار مارون، هم من أكثر الطوائف المسيحية تعداداً ونفوذاً، ويتمتعون بقوة سياسية تحتضنهم فرنسا ويطلقون عليها الأم الحنون، تعدّ لبنان المركز الرئيس للتجمع الماروني في البلاد العربية، يقطنون في دمشق في باب توما وهم يتوزعون في حلب واللاذقية وقراها، لهم أسقفيتان واحدة في دمشق والثانية في بعلبك^(٣).

٦ - البروتستانت: هذه الطائفة ولدتها الانقسامات الدينية التي تزعمها مارتن لوثر كينغ سنة ١٥٤٠ وما بعد، نتيجة تصرف رهبان روما تصرفات أساءت للمسيحية، ولا سيما بيعهم لصكوك الغفران، ولهذا ارتبط اسمهم بحركة الإصلاح الديني، وبدؤوا يتسللون

(١) سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٦٧.

(٢) كرد علي، مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٢٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٣١.

إلى الشرق من خلال المبشرين من أمريكيان وبريطانيين^(١)، بدأ نشاطهم كبعثات منذ ١٨٢٠م وقد أسس الأمريكيان لهم أول مركز في بيروت، قرنت تحركاتهم بالغزو الاستعماري للوطن العربي، اتسعت دائرة نشاطاتهم الدينية فشملت دمشق وحلب وحمص وحماة، لم تعترف الدول العثمانية بهم إلا بعد سنة ١٨٥٠ وبالتحديد بعد صدور شريف همايون سنة ١٨٥٦م. علماً بأنهم أنشؤوا في لبنان وسورية عدة إرساليات وأقاموا مدارس وبنوا كنائس، ولهم في دمشق كنيسة عمان الأولى بنيت ١٨٦٤م والثانية ١٨٦٨م^(٢).

نخلص مما سبق إلى القول إن المسيحيين عاشوا في الوطن العربي كمواطنين أصليين، ولم يكن المسلمون يتميزون عنهم، إلا من قبل ضعاف النفوس، فالعروبة لم تكن وفقاً على المسلمين، ولهذا فإن الكتاب الذين جانبوا الحقيقة، لم ينصفوا لا الحقيقة ولا التاريخ، ولو كان المسيحيون مدللين في أوروبا، لكان قد اختارت أوروبا باباً عربياً واحداً، فلقد اختاروا باباوات من كل القوميات والأعراق، إلا من العرب، علماً أن السيد المسيح عليه السلام ولد في الأرض العربية، ومن القدس عرف العالم المسيحية وتعاليم المسيح عليه السلام.

٢- اليهود: لن نسرف كثيراً في التعريف باليهود، تلك الطائفة التي عرفها الطفل العربي أكثر من العالم الأوروبي، علماً بأنهم نزلوا دمشق من أمد بعيد، وأقاموا في كنيس في قرية جوبر التي تبعد عدة دقائق عن مدينة دمشق، وتقيدنا المصادر أن اليهود عبر تاريخهم لم ينقطعوا عن دمشق، وقد وجدوا أن قوتهم السياسية تنبع من دمشق، وفيها عاشوا عيشة هنية، انطلاقاً من تعاليم الإسلام وتوجيهات السيد المسيح، علماً أنهم أعداء للأنبياء.

(١) إبراهيم، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) عبد الكريم غرابية، سورية في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٢٧.

- الزواج والطلاق:

كان المجتمع اليهودي مجتمعاً مغلقاً على نفسه في سورية، حاله حال جميع مجتمعات اليهود في العالم. نادراً ما كان يتزوج الرجل اليهودي من غير طائفته أما نساؤهم فقد تزوج الكثير منهن من مسلمين ومسيحيين بعد أن ارتفعت نسبة الفتيات اليهوديات العازبات^(١).

الأب هو السيد المطلق، إرادته هي القانون، يأمر فيطاع، يزوج بناته وأبنائه بمحض إرادته فيدفع بابنته زوجة لمن يتراءى له من الرجال، ويختار أيضاً زوجة لابنه من دون استشارته، وقد ورد ما يظهر ذلك في سفر التكوين عندما انتقى النبي إبراهيم زوجة لابنه من دون أن يدري.

إذا مات رجل عن زوجته من دون أن ينجب منها فإنّ على أخيه أن يتزوج منها، ويحمل البكر اسم الأخ المتوفى، أي أن المولود لا يحمل اسم أبيه بل اسم عمه الذي مات، فالمرأة هنا كأى سلعة من تركة الميت فهي للأخ لا تستطيع الزواج من غيره إلا إذا أذن الأخ لها. وإلا بقيت بلا زواج، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأخ مجبور في الشريعة التوراتية على أن يتزوجها. ويعلق السموأل بن يحيى المغربي على هذه التشريعات فيقول: «ومن الفضائح التي عند مذهبهم في قصة اليتامى والحالوص وذلك أنهم أمروا أنه إذا قام أخوان في موضع واحد ومات أحدهما ولم يعقب ولداً^(٢)، لا يخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي بل ولد حميها ينكحها وأول ما يولدها ينسب إلى أخيه فإن أبى أن ينكحها خرجت متشكية منه إلى مشيخة قومها قائلة: هذا أخو زوجي رفض أن يستبقي اسماً لأخيه في (إسرائيل) ولم يرد نكاحي فيحضره الحاكم هنا ويكلف أن يقول: ما أردت نكاحها فتتناول المرأة نعله فيخرجها من رجله وتمسكها بيدها وتبصق في وجهه وتتاجي عليه: كذا فليضع الرجل الذي لا بيني بيت أخيه ويدعى فيما بعدها بالمخلوع النعل. وتنبذ ابنته بهذا اللقب (أعني بنت المخلوع النعل) هذا كله مفترض في التوراة».

(١) قساطلي، مصدر سابق، ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٩.

- أحكام زواج خاصة بالكهنة:

«لا يجوز للكاهن أن يتزوج أرملة أو مطلقة، بل لا بد أن يتزوج من عذراء من بيت إسرائيل ويجوز له أن يتزوج أرملة كاهن آخر، ولا أحد يعرف لماذا جعلوا هذه الميزة للكاهن، هل لأن الكهنة هم الذين عبثوا بالنص لمصلحتهم؟! ولماذا سمح للكاهن أن يتزوج أرملة كاهن آخر؟!.

- عقوبة الزنى:

«لا يعاقب الزاني وحده بل أبناؤه وأحفاده حتى الجيل العاشر» «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر»، فهذا عقاب جماعي ولكن بالوراثة^(١)، وفي مطلع القرن العشرين واجهت الطائفة اليهودية في سورية مشكلة تفشي الدعارة في المجتمع اليهودي، حيث كانت العاهرات اليهوديات مقربات من الشخصيات السياسية والعسكرية التركية، وأزعجت هذه الظاهرة القيادة اليهودية في دمشق والقسطنطينية، ومع هذا لم تنتج القيادات اليهودية في حل هذه المشكلة^(٢).

- لباس اليهود :

حافظ العثمانيون على ما كان سائداً قبل عهدهم من أزياء أهل الذمة تمييزاً لهم عن المسلمين وعن بعضهم. لذلك ألزموا أهل الذمة بأزياء متباينة.

وكان اليهود قبل ١٩٠٠م، يرتدون على رؤوسهم قبعات حمراء دون حواف، ولكن الصدر الأعظم أصدر أوامره بإجبارهم على ارتداء القبعات الزرقاء (التربانات) على أن يبقى الشاش أحمر.

وكان تربان اليهودي صغيراً، في حين تربان المسيحي أكبر منه وتربان المسلم أكبر منها جميعاً. وكان تربان اليهودي أزرق اللون ساذجاً أو مقلماً.

(١) مجهول، الشريعة اليهودية ، <http://www.truth.org.ye/F6/SAREA3.HTM>

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٠٦.

وعموماً فقد كانت ثياب اليهود كثياب المسلمين والنصارى وتختلف بين غنيهم وفقيرهم من حيث نوع القماش والفراء^(١).

أما لباس المرأة اليهودية فلم يختلف عن لباس المرأة المسيحية والمسلمة، إلا من حيث لونه ومظهره الخارجي، فكان الحجاب عاماً لدى نساء دمشق على اختلاف مذاهبهن، وتميز حجاب المرأة اليهودية بالإزار أو الملاءة التي كانت تضعها على رأسها دون أن تشف عن شيء من جسمها، وكان الإزار أبيض اللون بالنسبة للعازبات منهن، أما لدى المتزوجات فكان مصنوعاً من الشيت القطني، ساذجاً أو مخططاً. وكانت المرأة اليهودية تترك إحدى زراعيها حرة خارج إزارها. وكانت المرأة اليهودية ترتدي في بعض الأحيان إزاراً أصفر اللون، وكان لدى المرأة السامرية أحمر اللون، أما الحذاء فمن لونين متباينين ليميزن به عن المسلمات.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، بدأ اليهود يرتدون أزياء مشابهة للنصارى وأحياناً للمسلمين مستغلين تهاون السلطات العثمانية في دمشق إزاء ذلك^(٢). إذ كانوا يلبسون القنبار، وعليه معطف رقيق وعمائم مطرزة فوق الطرابيش ويلبسون السروال الإفرنجي وصغارهم السروال الإفرنجي القصير وجوارب طويلة للركبة.

وكانوا يطلقون اللحي ويمتنعون عن حلقها، وكانت طرابيشهم قصيرة يسترها منديل أو أكثر من منديل واحد، ويربطون في أعناقهم كيس الدراهم ويدخلونه في صدورهم داخل الصدرية وتحت الميتان والمحزوم خوفاً من الضياع^(٣). وما يسترعي انتباهنا في ثياب اليهود، طاقية الرأس، التي كانت متنوعة، ولقد امتاز اليهود بهذه الطاقية كتقليد موروث لديهم، وربما يعود ذلك إلى فترة التيه في صحراء سيناء عندما قادهم النبي موسى. فوضعوا ما يقيهم من حر الشمس، وأصبح ذلك تقليداً راسخاً لديهم إلى يومنا هذا^(٤).

(١) المرجع السابق.

(٢) نعيسه، مرجع سابق، ص ص ٢٩، ٣٠.

(٣) العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، ط ٢، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٣، ص ٣٢.

(٤) نعيسه، مرجع سابق، ص ٣٠.

- المآتم والقبور:

اعتاد اليهود عندما تحضر المنية أحدهم، أن يجلس اثنان منهم عند رجله ويقولان له: «شيماع إسرائيل أدوناي ايلو هيو إسرائيل أدوناي أحد» أي يا إسرائيل الديان، إلهنا الديان واحد، فإذا قضى نحبه وضعوه على «اللوحت» أي المغتسل، يغسلونه بالماء الفاتر، ثم يدرجونه في ثوب من الكتان ويعيبيونه بالتقريض والخروف كي لا يطمع به نباشو القبور، ثم يضعون الجثة في التابوت، فإذا وصل النعش إلى الكنيس قرأ عليه أحد اقربائه قداساً آخر، ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في التراب، ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها لهم أحد الحاضرين ويبارك لهم بقوله: «باروح مينا حيم ابيلين» أي تبارك الذي يسلي الحزين، وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعمون فيها مطلقاً، ويسمونها (التأبيل) أي الحداد وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء، وهكذا في اليوم الثلاثين للوفاة وبمرور تسعة أشهر ثم بمرور سنة^(١).

أما بالنسبة للمقابر فكانت معظمها خارج أسوار دمشق، كانت الأولى بالقرب من مقام سيدي بلال الحبشي وإلى الغرب من مقابر المسيحيين، أما الثانية فتقع إلى الجنوب الشرقي من المقبرة الأولى اليهودية وإلى الجنوب من نهاية مقابر المسيحية بحوالي ٥٠٠ كم^(٢). وفي حلب كانت مقابرهم تقع في السليمانية بالقرب من حي التل^(٣)، وعلى العموم كانت مقابر اليهود تقع دائماً خارج أسوار المدن لأن جثث الموتى هي أحد مصادر النجاسة، ويزور اليهود المقابر في الأعياد ليقدموا الصلوات أمام قبور الموتى حتى يشفعوا لهم عند الله ويجب على المرء ألا يأكل أو يشرب بجوار الموتى أو يلبس الطاليت أو يقرأ التوراة حتى لا يسبب العلاج لهم لأنهم لا يمكنهم تنفيذ هذه الأمور^(٤).

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) نعيسه، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٩٢.

(٣) عبده، مرجع سابق، ص ١٤.

(٤) السعدي، مرجع سابق، ص ص ٤٧-٤٨.

وكانت عادة اليهود كتابة بعض المعلومات على ضريح المتوفى، وكان يظهر من الضريح على وجه الأرض، عبارة عن قطعة واحدة من الصخر المزي الأبيض أو البازلتي الأسود بطول المتوفى تقريباً وعلى شكل متوازي مستطيلات مجوفة من أسفلها وبارزة قليلاً من أعلاها التي تقابل رأس المتوفى^(١).

استخدم اليهود اللغة العبرية في الكتابة على قبورهم بالإضافة على استخدامهم التقويم العبري في تأريخ سنة الوفاة، وأنزلوا الميت في لحد واحد، في حين قام المسلمون والمسيحيون بمخالفة هذه القاعدة فأنزلوا جثث الموتى على الرفاة مع مراعاة الفارق الزمني.

- النشاط العلمي:

أما فيما يتعلق بتعليم اليهود، فلم يتوفر لهم ذلك، كون التعليم في دمشق إسلامياً، وبقي الحال كذلك إلى دخول إبراهيم باشا إلى دمشق، فأدخل القناصل الأوربيين إلى دمشق وبدأ هؤلاء بإدخال المبشرين الذين بدؤوا بدورهم يقيمون المدارس خدمة لأغراضهم فدخل مدارسهم مسيحيون ومسلمون ويهود. ومن جهة أخرى أسهم احتماء اليهود بالغربيين في فترة مبكرة ومجيء بعض العناصر اليهودية التي عاشت في أوروبا، إلى نوع من الوعي بين أبناء اليهود، وخاصة فيما يتعلق بالطب الوقائي^(٢).

سادت حركة التنوير في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين معظم بلدان العالم، وهو ما أدى إلى ظهور فئة جديدة من الشباب اليهودي ابتعدت بالكامل عن التقاليد اليهودية. ومن الملاحظ أن حركة التنوير هذه لم تصب الطوائف اليهودية في سورية حيث كان وضعها مختلفاً بعض الشيء ولم تنتشر أفكار حركة التنوير في أوساطها إلا في مرحلة متأخرة نسبياً.

(١) نعيسة، يهود دمشق، مرجع سابق، ص ٤١.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ص ٣٣.

كانت أوائل الإرساليات البروتستانتية التي قدمت إلى دمشق أنشأت عام ١٨٤٠م مدرسة لبنات اليهود.

لقد تعلم اليهود السوريون في مدرس الإرساليات الأجنبية وهو ما يتضح من انتسابهم لها في مدارس حلب، حيث كان الإيطاليون اليهود لهم وزنهم المعنوي الكبير. ويذكر أنه تأسست في حلب عام ١٨٦٢م مطبعة قامت بإصدار التراث العبري.

وقد نشط اليهود لإقامة مدارس خاصة بهم، وتعد مدرسة (الإليانس) ^(١) في دمشق وحلب إحدى أهم المدارس التي حوت العديد من اليهود الذين تعلموا على مقاعدها ^(٢) وقد شكلت هيئة الإليانس في باريس عام ١٨٦٠م من أجل نشر فكر حركة التنوير الأوربية في أوساط يهود الشرق، والعمل على تقديم المساعدة لليهود هذه البلدان. وأقيمت في دمشق عام ١٨٦٥م أول مدرسة تابعة للإليانس، وأقيمت مدرسة أخرى في حلب عام ١٨٦٩م ^(٣).

- النشاط الديني :

عاش اليهود السوريون وفقاً لتقاليدهم ومعتقداتهم وعبادات ديانتهم من دون التدخل بها من قبل غيرهم، ومن أهم أركان العبادة في الديانة اليهودية (تابوت العهد - هياكل - كهنة) بعد اجتيازها مراحل متعددة إلى أن وصلت إلى الأزمنة المقدسة مثل (الأعياد - السبعوت)، والشعائر الدينية (التطهير - الختان - الذبائح - الصلوات) وأخيراً بالنسبة إلى فرائض التقوية مثل: (الصوم - المحرمات) ^(٤).

(١) هي المدارس التي أنشأها الاتحاد الإسرائيلي العالمي نهاية القرن التاسع عشر في العديد من الدول وهي مدارس خاصة باليهود عادة كان يوجد منها في دمشق وحلب حيث تواجد أكبر عدد من الطائفة اليهودية إلا أنها حالياً مغلقة بالكامل وذلك لهجرة معظم اليهود من سورية وكان آخرها مدرسة الأليانس في دمشق عام ١٩٤٨ وتشرف عليها وكالة الغوث. وكان الغرض منها مجابهة النشاط التبشيري الذي كان خطراً على فقراء اليهود.

(٢) عبده، مرجع سابق، ص ص ٧٢، ٧٣.

(٣) اتينجر، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٤) عبده، مرجع سابق، ص ٨٥.

أ - فرق اليهود الدينية:

كان يهود دمشق يقسمون أنفسهم إلى ثلاث فرق دينية رئيسة هي: (الربانيين وفرقة القرائين وفرقة السامرة). وإن أكثر طائفة يهودية عرفت في سورية كانت طائفة الفريسيين (الربانيين)، وأكثريتها عاشت في دمشق، وسميت بالعبرية ربانيم^(١). وهجر القراؤون دمشق قبل عام ١٨٣٢م، وبقي كنيسهم في حي (الزيتون) مهجوراً إلى أن جاء أحدهم وقام ببيعه للنصارى الكاثوليك في دمشق. أما طائفة السامرة فكانت قليلة العدد، وكان يرأسهم (الرئيس) ولم يعدّهم القراؤون والربانيون منهم. وأصل هذه الفقرة يعود إلى فترة تدمير مملكة إسرائيل في فلسطين، والتي انشقت عن سليمان بعد وفاته، على يد ملك آشور (تفلات فلاسر) عام ٧٣٨ ق.م.

كما قام الملك الآشوري بإجلاء اليهود عن فلسطين إلى نواحي شمال إيران الحالية، وأحل محلهم بعض القبائل في سكن عاصمة المملكة، وهي مدينة السامرة القديمة، التي بنيت على أنقاضها مدينة نابلس فيما بعد.

انقسم اليهود السامرة إلى طائفتين، إحداهما تعترف بنبوّة موسى وهارون ويوشع وتجحد من عداهم من النبيين، أما الطائفة الثانية منهم فتعتقد بنبوّة كل الأنبياء ما عدا عيسى ومحمد عليهما السلام.

سكن السامرة في دمشق في حي خاص بهم فوق العنابة بالقرب من برج الروس، ووجد في دمشق درب يسمى بدرب السامري. وكان لهم كنيسهم الخاص على المرجح في حارة العنابة^(٢).

وارتكزت الاختلافات بين الفرق اليهودية المتواجدة في سورية على إدعاء كل فرقة على أنها أكثر التزاماً بأصول الدين اليهودي، واختلفت حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود^(٣)، وسكنت كل طائفة من طوائف اليهود المذكورة في حي خاص في دمشق.

(1) المرجع السابق، ص ٩٨.

(2) نعيسة، مرجع سابق، ص ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥.

(3) التوراة، خمسة أسفار تنسب للأنبياء وهي: (سفر التكوين - سفر الخروج - سفر العدد - سفر التثنية - سفر اللاويين). التلمود: من «التلمذه» وهو تفسيرات وإيضاحات التوراة، كتبها الحاخامات، ومنزلته لدى اليهود أهم من منزلة التوراة: « ويحتل التلمود عند اليهود منزلة مهمة جداً تزيد منزلة التوراة ».

ب- العبادات :

١ - الصلاة :

ليس الهدف من الصلاة عند اليهود هو عبادة الله والتقرب إليه سبحانه بل إن الهدف الأساسي منها هو المصلحة الدنيوية وهو الخلاص، فالصلاة «تنبع انطلاقاً مما حدث أو يحدث أو لكي يحدث شيء ما، حتى يمنح الله خلاصه للأرض». والصلاة على نوعين: فردية، وجماعية» أما الفردية: فهي صلوات ارتجالية من أفراد، تتلى حسب الظروف والاحتياجات الشخصية، ومن أمثلتها صلاة إبراهيم لأجل خلاص سدوم، وصلاة يعقوب لأجل خلاصه من عيسو أخيه، وصلاة موسى لأجل بني إسرائيل. وهكذا صلاة الأنبياء يشوع وصموئيل وإيليا وإليشع وداود ويونان «يونس» ودانيال وعزرا، وهذا النوع من الصلاة يتلى في أي محل كان.

والصلاة المشتركة: هي صلوات تؤدي باشتراك جملة أشخاص علناً وعموماً، في أمكنة مخصوصة ومواعيد معلومة، حسب طقوس وقوانين مقررة من رؤساء الدين والكهنة. ولم توضع الصلوات الطقسية عند اليهود إلا بعد تأسيس أمكنة العبادة كخيمة الاجتماع والهيكل».

وتدلنا مزامير داود وسليمان أن الصلاة كانت ترافق بالغناء والموسيقى القانونية.

٢ - الصوم :

كان اليهود يصومون في العاشوراء فلما قدم النبي محمد ﷺ المدينة ورآهم يصومونه سأل ما هذا؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال أنا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً^(١). فرض أحبار اليهود نوعاً من الصيام على أتباع اليهودية، وذلك أيام السبي البابلي، فسنوا لهم صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره، وكذلك سنوا لهم صوم «كذاليا» وجعلوه فرضاً عليهم ومن المعروف أن النبي موسى صام أربعين يوماً وأربعين ليلة على

(١) ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧، ص ٢٢.

جبل سيناء وذلك لاستقبال كلمات الله تعالى ولم يرد الصوم لفظاً في أسفار موسى الخمسة، ولكن كان يوم واحد معين للصوم وهو يوم الكفارة، وهناك أصوام أخرى مفروضة مثل صيام ذكرى حصار أورشليم وسقوطها وخراب الهيكل وقتل جدليا ومن معه كما يزعمون.

٣ - الحج :

الحج عند اليهود هو القيام بزيارة بيت المقدس، تقول التوراة: «ثلاث مرات يعيد لي في السنة». أي أنه يجب على كل يهودي (ذكر) أن يزور بيت المقدس ثلاث مرات «ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل». وبما أنه لم يعد الهيكل ولا المعبد موجوداً فإنهم يحجون إلى حائط المبكى^(١)، كما أنهم لم يتقيدوا بتعاليم التوراة فاليهود ذكوراً وإناثاً يحجون.

٤ - الزكاة :

للصدقة مكانة سامية لدى اليهود. تقول التوراة: «طوبى للذي ينظر إلى المسكين». وتقول التوراة: «في آخر ثلاث سنين تخرج كل عشر محصولك في تلك السنة وتضعه في أبوابك، فيأتي اللاوي لأنه ليس له قسم ولا نصيب معك، والغريب واليتيم، والأرملة الذين في أبوابك ويأكلون ويشبعون لكي يباركك الرب إلهك في كل عمل يدك الذي تعمل».

والزكاة واجبة على من بلغ سن العشرين عاماً، وكان يعطى عشر العشر إلى رجال الدين «إلا أن نشاط اليهود وحماسهم لجمع أموال الزكاة اختلف قوة وضعفاً، وبمرور الزمن أخذ التهاون في دفع هذا الحق مأخذه في نفوسهم، مما أزعج رجال الدين وحدا بهم الأمر إلى إنذار أبناء دينهم بوقوع العذاب عليهم، وأن غضب الرب وسخطه سيحلان عليهم، ولكن العامة منهم لم يستجيبوا لنداء رجال الدين مما زاد في اكتناز الأموال فأصبحوا أثرياء بفحش كبير فمالوا إلى التأويل ليمنعهم عن الامتثال لهذه الفريضة^(٢).

(١) حائط المبكى، هو حائط البراق في المسجد الأقصى ولم تدل جميع الحفريات وبعثات الآثار على وجود للهيكل المزعوم أو لجداره.

(٢) الشريعة اليهودية، مرجع سابق، موقع الكتروني.

ج- أعيادهم :

من الملاحظ أن معظم الأعياد العبرية إن لم يكن جميعها هي أعياد حزينة بعيدة عن الفرح، والبهجة والسرور، إذ إن لكل عيد منها قصة خاصة به، وإن ميزات هذه الأعياد، الذهاب إلى الكنيس، لتأدية الصلاة والعبادة لساعات طويلة.

وتتقسم الأعياد اليهودية إلى قسمين: الأعياد التي جاء ذكرها في التوراة ومنها: عيد الفصح وعيد الأسابيع أو الشافوعوت، وعيد المظلة أو السوكوت، وعيد يوم الغفران أو يوم كيبور، عيد رأس السنة اليهودية أو روش هاشاناه.

أما القسم الثاني من الأعياد التي أضيفت بعد نزول التوراة فهي: عيد اليوريم وعيد الأنوار أو الحانوكاه، وعيد الاستقلال، وأيضاً يوم التاسع من آب الذي يصوم فيه اليهود حداداً على سقوط أورشليم، وأيضاً يوم التاسع من آب الذي يصوم فيه اليهود حداداً على سقوط أورشليم، وتخریب الهيكل ثم عيد الأشجار الذي يحتفل به في إسرائيل بغرس أشجاراً جديدة^(١).

أما يوم السبت فهو يوم مقدس لديهم، وتعدّ عطلة السبت فرضاً من فرائض التوراة، وهي من أهم الشعائر التي تميز اليهود عن غيرهم، حتى أنهم لقبوا بـ (أصحاب السبت) ويُعدّ الحفاظ على حرمة السبت من الوصايا العشر اليهودية، والتي يهدد خرقها بعقوبة مروعة^(٢). وكانت نساؤهم يقمن بإعداد البيوت لهذا اليوم بدءاً من ظهر يوم الجمعة، والرجال يركون أعمالهم قبل الوقت المحدد، ويرتدون أجمل ما لديهم من ثياب، ويعدون أنفسهم لأداء الفرائض منذ الصباح، وبعد الظهر يذهبون مع النساء إلى الكنيس للعبادة، وبعد الصلاة يتبادلون الزيارات، ويكون طعامهم معداً من اليوم السابق للسبت، ويمتنعون عن إضرار النار، انسجماً مع تقليد ديني قديم^(٣).

(١) غازي السعدي، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، ط١، دار الجليل، عمان ١٩٩٤، ص ٧.

(٢) سعدي، المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) نعيسه، مرجع سابق، ص ٣٩.

أهم أعياد اليهود :

١ - رأس السنة اليهودية - ראש חשוון - Rosh Hashanah

اليوم الأول والثاني من الشهر السابع Tishri من التقويم اليهودي وكان الربانيون يحتفلون به بنفخ الأبواق في أثناء الصلاة في معابدهم ويكون البوق مصنوعاً من قرن كبش ليذكر بظهور الله على جبل سيناء ويدعو إلى التوبة والدعاء لله أن يعطيهم في السنة الجديدة الصحة والنجاح^(١).

٢ - عيد الغفران (أقدس الأعياد وأهمها على الإطلاق لديهم) Yom Kippur: اليوم

العاشر من الشهر السابع Tishri من التقويم اليهودي. يوم الغفران ترجمة للاسم العبري «يوم كيפור» وكلمة كيפור من أصل بابلي ومعناها «يطهر» والترجمة الحرفية للعبارة العبرية هي «يوم الكفارة»، ويوم الغفران هو في الواقع يوم صوم^(٢) حيث يمتنع اليهود عن الشراب والأكل وارتداء الأحذية لمدة ٢٥ ساعة^(٣)، يطلق عليه اسم «سبت الأسبات» وهو اليوم الذي يطهر فيه اليهودي نفسه من كل ذنب وبحسب التراث الحاخامي، فإن يوم الغفران هو اليوم الذي نزل فيه موسى من سيناء، للمرة الثانية، ومعه لوحا الشريعة حيث أعلن أن الرب غفر لهم خطيئتهم في عبادة العجل الذهبي.

3 - عيد التدشين (حانوخة) (Hanukkah Chanukkah): والمناسبة التاريخية لهذا

العيد هي دخول يهودا الحشموني (أو المكابي) القدس وإعادته للشعائر اليهودية في الهيكل من هنا كانت تسميته بعيد التدشين. هو اليوم الخامس والعشرون من الشهر التاسع Kislev ويستمر ثماني أيام ولياليها، ويسمى أيضاً عيد الأضواء، يبدأ هذا العيد في الخامس عشر من الشهر السابع Tishri، بعد عيد الغفران بخمسة أيام ويستمر يوماً بليلتته^(٤).

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٩١.

(٢) مجهول، يهود، موسوعة ويكيبيديا ٢٠٠٧.

(٣) <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%8A%D9%87%D9%88%D6%AF>.

(٤) السعدي، مرجع سابق، ص ٦٣.

٤ - عيد المظال: ترجمة لكلمة «سوكوت» العبرية وتعني المظال وكلمة المظال العربية هي صفة الجمع لكل مظلة، وعيد المظال ثالث أعياد الحج عند اليهود إلى جانب عيد الفصح وعيد الأسابيع، وقد سمي هذا العيد على مدى التاريخ بعدة أسماء من بينها «عيد السلام» و «عيد البهجة» وهو يبدأ في الخامس عشر من شهر تشرين (أكتوبر)، ومدته سبعة أيام، بعد عيد يوم الغفران والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي إحياء ذكرى خيمة السعف التي آوت العبرانيين في العراء في أثناء الخروج من مصر، وكان هذا العيد في الأصل عيداً زراعياً للحصاد، وكان يحتفل فيه بتخزين المحاصيل الزراعية الغذائية للسنة كلها، ولذا فإنه يسمى بالعبرية «حج ها آسيف» أي «عيد الحصاد».

٥ - عيد الثامن الختامي (شميني عتسيريت): الثامن الختامي تطابق العبارة العبرية «شميني عتسيريت» وعيد الثامن الختامي عيد يهودي مستقل عن عيد المظال، ولكنه ضم إليه كيوم ثامن، ولا يعرف السبب في الاحتفال بهذا العيد، وإن كان من الواضح أنه عيد زراعي قديم، إذ يتم فيه ترديد دعاء خاص يطلب نزول المطر، وذلك في أثناء دعاء الصلاة الإضافية (موساف) فقد جاء في سفر اللاويين (٢٣/٣٦): «في اليوم الثامن يكون لكم محفل مقدس».

ويضاف يوم تابع للاحتفال خارج فلسطين، وهو يوم بهجة التوراة (سمحات تواره) أما في فلسطين، فإنهم يختلفون ببهجة التوراة وعيد الثامن الختامي في يوم واحد.

٦ - بهجة لتوراة: ترجمة لعبارة «سمحات تواره» العبرية، وهو عيد يلي اليوم الثامن الختامي (شميني عتسيديت) وهو اليوم الأخير من عيد المظال وداخل فلسطين يدمج العידان، ويحتفل بهما في يوم واحد وهو عيد ظهر متأخراً في العراق (في القرن التاسع والعاشر) وهو أيضاً اليوم الذي تختم فيه الدورة السنوية لقراءة أسفار موسى الخمسة في المعبد ويحتفل به داخل المعبد بأن تحمل لفائف الشريعة، ثم يتم الطواف بها سبع مرات (أما الأولاد، فإنهم يحملون الأعلام الصغيرة ويسيروا أمام الكبار)، ويسمى كل طواف باسم أحد الآباء، فالطواف الأول باسم إبراهيم، والثاني باسم إسحق، والثالث باسم يعقوب، والرابع باسم داود، ويقرأ في هذا الاحتفال آخر سفر من أسفار الخمسة، والمصلي الذي يقوم بالقراءة يطلق عليه اسم «عريس التوراة» ثم يدعى مصل آخر، ويسمى «عريس

سفر التكوين» ليبدأ الدورة السنوية لقراءة أسفار موسى الخمسة مرى أخرى، يسمى القارئ باسم العريس لأن التوراة عروس جماعة إسرائيل، وكل قراءة جديدة هي بمنزلة حفل عرس متجدد. وقد سمي هذا العيد بعدة تسميات، إلى أن استقر اسمه على ما هو عليه، ففي فترة التلمود، كان يسمى «آخر أيام العيد» وعلى أيام الفقهاء (جاء وينم) كان يسمى (يوم الكتاب) و (يوم النهاية) ولم يسم (سمحات تورا) إلا في آخر أيام هؤلاء الفقهاء.

يأتي في ٢٢ و ٢٣ من شهر Tishri أي بعد Sukkot بسبعة أيام يكون عيد Shemini Atzere وهو في الأراضي المحتلة نفس عيد Simchat Torah، وخارجها يكون Simchat Torah اليوم الثاني فقط من Shemini Atzeret أي يوم ٢٣ فقط.

٧ - عيد النصيب: هو الاسم العربي لعبد البوريم، و «بوريم» كلمة عبرية مشتقة من كلمة «بور» أو «نور» البابلية ومعناها «قرعة» أي نصيب.

وكان عيد النصيب يدعى أيضاً «يوم مسروخت» إشارة إلى «الباروكة» التي كان يرتديها الشخص في عيد النصيب في القرن الأول قبل الميلاد (وقد سمي العرب هذا العيد «عيد الشجرة» أو «عيد المساخر» وعيد النصيب يحتفل به في الرابع عشر من آذار «فبراير» وهو عيد بابلي، كانت الآلهة البابلية تقرر فيه مصير البشر.

ويوم الرابع عشر من آذار هو اليوم الذي أنقذت فيه إستير يهود فارس من المؤامرة التي دبرها هامان لذبحهم ولهذا ففي اليوم الذي يسبق العيد يصوم بعض اليهود ما يسمى «صوم (تعنيت) إستير» إحياء لذكرى الصوم الذي صامته إستير وكل اليهود في شوشانه قبل ذهابها إلى الملك تستعطفه لإلغاء قرارات هامان (حسب الرواية التوراتية المحرفة)، وكان قد تقرر بالقرعة (أي النصيب) أن يكون يوم الذبح في الثالث عشر من آذار ومن هنا التسمية^(١).

ويقال إن الرواية الحقيقية أن إستير كانت عاهرة أغوت ملك فارس وجعلت إنقاذ قومها شرطاً لتمنحه ما يريده!!! ومن الأعياد التي يتم فيها ذبح القرابين البشرية لدى اليهود عيد البوريم وعيد الفصح لكن نوعية الذبائح تختلف من عيد إلى عيد آخر: فالذبائح

(١) يهود، مرجع سابق، موقع إلكتروني.

في عيد البوريم «تنتقى عادة من الشباب البالغين، ويؤخذ دم الضحية ويجفف على شكل ذرات تمزج بعجين الفطائر ويحفظ ما تبقى للعيد المقبل»، أما ذبائح عيد الفصح فتكون عادة من الأولاد الذين لا تزيد أعمارهم كثيراً على عشر سنوات ويمزج دم الضحية بعجين الفطر قبل تجفيفه أو بعد تجفيفه^(١).

يحتفل به في ١٤ آذار^(٢) ويبدأ بصوم يسمونه صوم إستير ويستمر حتى الخامس عشر من آذار^(٣).

٨ - عيد الفصح «بيساح» Pesach: عيد الفصح أو «عيد المصطلح العربي المقابل للكلمة العبرية «بيساح» ويبدأ عيد الفصح في الخامس عشر من شهر نيسان ويستمر سبعة أيام في إسرائيل (وعند اليهود الإصلاحيين) وثمانية أيام عند اليهود المقيمين خارج فلسطين.

ويحرم العمل في اليومين الأول والأخير (وفي اليومين الأولين واليومين الأخيرين خارج فلسطين) وتقام الاحتفالات طوال الأيام السبعة أما الأيام الأربعة الوسطى فيلتزم فيها بتناول خبز الفطير من دون أن يقترن ذلك بطقوس احتفالية كبرى، والعيد في أصوله البعيدة موصل بموسم الربيع باعتباره فترة نمو وازدهار وحياة جديدة، ثم صار من بعد يرمز إلى خلاص بني إسرائيل من العبودية في مصر وخروجهم منها بقيادة موسى، وهارون ويوشع.

٩ - عيد الأسابيع: يُشار إليه بالعبرية بكلمة «شفوعوت» أي «الأسابيع»، وعيد الأسابيع أحد الأعياد اليهودية المهمة، فهو من أعياد الحج الثلاثة مع عيد الفصح وعيد المظال جنباً إلى جنب، ويأتي هذا العيد بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح، ومن هنا تأتي تسميته، ولهذا العيد مناسبة تاريخية، وهي نزول التوراة والوصايا العشر على موسى فوق جبل سيناء.

(١) كساب، أكرم، عيد الفصح ومصاصو الدماء البشرية

<http://www.islamweb.net/aqeda/big-religen/bibel2.htm>

(٢) يهود، مرجع سابق، موقع إلكتروني.

(٣) نعيسه، مرجع سابق، ص ٣٨.

١٠ - عيد التاسع من أف Tisha V'Av: وهو عادة ما يقع في شهر آب. التاسع من

أف «ترجمة لعبارة تشعاه بأف» العبرية وهو يوم صوم وحداد عند اليهود في ذكرى سقوط
أورشليم وهدم الهيكلين الأول والثاني (وهما واقعتان حدثتا في التاريخ نفسه تقريباً حسب
الزعم اليهودي) وتربط التقاليد بين هذا التاريخ وكوارث يهودية أخرى يقال إنها وقعت في
اليوم نفسه، حتى وإن كان الأمر ليس كذلك، مثل: سقوط قلعة بيتار (١٣٥م)، وطرد اليهود من
انجلترا (١٢٩٠م)، وطردهم من إسبانيا (١٤٦٢م). وفي التاسع من آب، يحرم الاستحمام
والأكل والشرب والضحك والتجمل، ولا يحيي المصلون بعضهم بعضاً في ذلك اليوم، وقد
اقترح مناحيم بيغن أن يحتفل بذكرى الإبادة في التاسع من آب، ولكن المؤسسة الدينية رفضت
اقتراحه بدعوى أن التاسع من آب مناسبة دينية، أما الإبادة فليست كذلك^(١).

(١) مجهول، يهود، موقع إلكتروني.

حارات اليهود وأهم العائلات اليهودية

التي سكنت سورية

- حارات اليهود :

توزع اليهود في دمشق على أحياء سكنية خاصة بهم شأنهم شأن الأقليات، وأطلق على كل حارة اسم الثلاث. وكان أكبر أحياء اليهود يقع في جنوب شرقي دمشق وخارج أسوارها حين قام نور الدين زنكي بتطويقه بسور المدينة بما فيها كنسهم، ولم يبق من كنسهم خارج هذا السور سوى كنيسهم الأهم في جوبر الذي كانوا يقيمون فيه صلواتهم^(١)، وكانت جوبر مسكناً خاصاً لليهود، وقد قام اليهود بإيهام المسلمين المتطرفين بأنهم سوف يموتون إن حاولوا سكن هذه القرية^(٢).

أما في حلب فنجد اليهود في منطقة (تادف) التي تقع قرب مدينة حلب خرجت منها أول نسخة من التوراة من قبل (عزرا عاسوفير) حيث تم أول تحرير للتوراة في التاريخ وكانت هناك محاولة لبناء كنيس في المكان الذي كتبت فيه التوراة لليهود السوريين^(٣). وكان لكل حارة من حارات اليهود شيخها من اليهود، الذي كان يمثل صلة الوصل بينهم وبين السلطات العثمانية، وقد حرص اليهود على شراء بيوتهم ومحلاتهم الحرفية والتجارية في حاراتهم المذكورة وعملية البيع كانت تتم فيها بينهم بالدرجة الأولى، أو مع مجاورهم من النصارى والمسلمين^(٤).

- العائلات اليهودية التي سكنت سورية:

من الملاحظ أن معظم العائلات اليهودية في سورية من أصول عربية، وما تبقى منها تعود في أصولها إلى مدن ومناطق عثمانية، أو نالت تسمياتها من الحرف التي عملت به، والقليل منها من أصول سفارديّة أو إشكنازية.

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ص ٨٩.

(٣) نيوف، مرجع سابق، موقع إلكتروني.

(٤) نعيسه، يهود دمشق، ص ١٣.

أهم الأسر اليهودية التي عاشت في سورية: هراري، أبو العافية، شناعة، اللاطي، لنداوا أو لينيوذة، الفتال، سلونيكى، لزبونا، فارحي، إسلامبولي، بيجوتو، نجماد، شمعة، الشلاح، كومان، شحادة، قوشة، كوارع، الأزمرلي، أوديك، خطوب، دويك، زقزوق، ميرو، مراد، اللاوي، الترك، الرمانة، الحلبي، سروكو، ساعاتي، قواص، كمخ جي، بغدادى، سلمون، خليفة، حمرة، شديد، حصوة، دكاش، عطار، آرازي، صايغ، بقاعي، أرليل، منة، داية، خالع، جرادة، سرور، شعليا، حاصباني، شما، دانيال، طوطح، قطش، كدع، سلامة، السكروجي، خمري، مبزبز، سعد، شامة، السمكة، داوود، يوسف، خضر، صبان، ميني، جرار، النجار، القبة، أوظن، حكيم، ندافيت، بخور، بازينة، أشكنازي^(١)، زلخة، عنبر، صفرا، موضب^(٢).

وأبرز الأسر اليهودية على الإطلاق، كانت أسرة فارحي أندلسية الأصل، هاجر أجدادها إلى الأناضول إثر حوادث التفتيش التي أقامها الإسبان المسلمين واليهود في الأندلس بعد عام ١٤٩٢م، مما دفع باليهود للهجرة من الأندلس إلى البلدان الإسلامية^(٣).

(١) نعيسه، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) عبده، مرجع سابق، ص ١٣.

(٣) نعيسه، المرجع السابق، ص ١٦.

الخاتمة

لقد بدت دمشق من خلال الوثائق أفضل مما دون أو قيل شعراً أو نثراً فيها، مع بعض الخلافات في الظاهر اللفظي، لكن المعاني وثائقياً وأدباً تحمل المعاني ذاتها، غير أن هذه الدراسة ترغم الباحث فيها على تتبع الحركة العمرانية حارة حارة، وداراً داراً، قلماً تتجاوز تلك الوثائق الجميل من النشاط العمراني، وقلماً ترحم أميراً أو فقيراً تتجاوز الحدود، ومارس ما هو مخالف لعادات دمشق، وما تحظى أرضها من توافد بشري تعددت مشاربه، يفرض ثقله الإداري على الأمر ذاته.

قرئ الكثير عن دمشق، وشهدت ساحاتها رجال إدارة وعلماء فقه ومعرفة، فبعضهم عبر هذه الساحة من دون ضجيج، فلم يسمع به الأهالي ولم تسمع به دمشق. وبعضهم الآخر أخرجته منها لتعالیه وتجبره.

لقد لامست الوثائق المنازل الدمشقية، فحددت موقعها واتساعها، وروادها وممن وقفوا على أبواب الحارات ناظرين إلى محلاتها التجارية فكيف تغدو الوفود وكيف تغادرها وقلوبها معلقة بحسن معاملة أهالي دمشق له، فبناؤوها كانوا على مدار حياتهم ينتقلون من حارة إلى أخرى سعياً لاكتمال الحياة العمرانية التي تزام عليها الشارون والباعه، بعضهم توطن واستأجر محلاً فعاش يمارس التجارة بيعاً وشراءً.

لقد عدت الوثائق كل ما لدمشق من أزقة ومحلات وخانات ومقاهٍ وجوامع وزوايا، وحددت هوية كل منها، دافعة بالباحث إلى السؤال والمساءلة، هذا أهم ما حضت عليه، ومن جانب آخر رحبت بولاية كلفوا بإدارة مدينة دمشق وريفها، وقد زودت الدولة العثمانية الولاية بقوات من الإنكشارية تولت مهمة المحافظة على الأمن وجباية الضرائب.

لقد قرأنا في الوثائق الجوانب الاقتصادية الشاملة لمختلف جوانب الحياة في دمشق، كما قرأنا سعت الدور ومكانتها الاجتماعية والأهمية الاقتصادية من خلال عاملين، أولهما الأشخاص الذين استأجروا تلك الدور التي اتسعت للقوى البشرية العاملة بأمرتهم، والعامل الثاني، وجود قوى حراسة حول هذه الدور، وميزنا من خلال الوثائق أماكن إقامة عناصر القابي قول بغير القلعة والقوى الاحتياطية التي كلفت بالقيام بجولات إطلاعية أو تفقدية، كما ميّزنا من خلال الوثائق الرجال العاديين لعدم وجود ألقاب لهم، والأشراف الذين حظوا باهتمام ولاية الأمر في دمشق واستانبول على حد سواء. وعلمتنا تلك الوثائق أن للمهن بمختلف أطيافها نظاماً يحافظ عليه الجميع، كما قرأنا عن المهور وجهاز العروس، ونسبة الطلاق وأسبابه، والمكانة التي بلغتها المرأة الدمشقية في مجتمعتها، وكيف عوملت في كثير من الحالات الاجتماعية وحتى السياسية، كما أطلعتنا على الأملاك ومشكلات الإرث والتركات وما ينجم عنها من صراعات تلامس الفقراء والأغنياء على حد سواء.

هذا ما أفادته الوثائق التي عشنا معها فترة من الزمن، شعرنا بعد سنوات من الصراع معها فشل الإحاطة بكل مدوناتها، فقفنا راجعين إلى الممارسة الميدانية للتأكد مما أوردته تلك الوثائق من معلومات اجتماعية واقتصادية وإدارية وعمرانية، وكانت النتيجة العامة لهذا الجهد أن الوثائق التي تتناول أبرز الأحداث في دمشق لا تمثل نصف الكأس لا الفارغ منه ولا المملوء، ولهذا نوجه نداء إلى كل الباحثين لاستمرار قراءة وثائق بقية المدن خلال العهد العثماني ليدركوا الفرق الشاسع الذي احتلته دمشق.

لقد قرأنا من خلال الوثائق أحداثاً كثيرة ومتنوعة في أسبابها ونتائجها، ورأينا أن الحكمة والعقلانية في إدارة الأمور صنعت لأصحابها مجداً، حتى المدينة كانت تبتهج لذكر أولئك الذين سجلت مدينة دمشق ذكراهم فخورة بهم، كما كانوا فخوريين بها، وتجاوزت ولاية لم يكونوا من الإدارة أو الإنسانية بشيء لدرجة أن الوثائق كانت خجلة من ذكرهم.

المصادر والمراجع

أ - المخطوطات:

- ١ - تحفة الأنام في فضائل الشام لمؤلفه بن الإمام البصري الدمشقي، مكتبة الأسد رقم ١٥٢٧٠.
- ٢ - تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر الهجري، لمؤلف مجهول، مكتبة الأسد رقم ٦٩٧٠.
- ٣ - نبذة في المزارات الشريفة لمؤلفه ياسين بن مصطفى الجعفر البقاعي الدمشقي، مكتبة الأسد، رقم ١١٥٨٠.

ب - المصادر :

- ٤ - ابن طولون الصالحي محمد:
 - أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
 - مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام حققه محمد مصطفى، جزآن، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
 - القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، تحقيق محمد أحمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق، سنة ١٩٤٩م، جزآن.
 - جودت أحمد باشا، تاريخ جودت، ٦ أجزاء، استانبول ١٣٠٩ هـ.
 - حارات دمشق القديمة، نشره حبيب الزيان في مجلة الشرق السنة الخامسة والثلاثون سنة ١٩٣٧م.

- قضاة دمشق، الثغر البسام في ذكر من ولى قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، ١٩٥٦م.

٥- ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد، وهو يتضمن ذيل ثمار المقاصد، المعهد الفرنسي بدمشق، وقد حقق الذيل أسعد طلس بيروت ١٩٤٣م.

٦- ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي، تاريخ دمشق، مطبوعات المجمع العربي بدمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

٧- ابن شداد، عز الدين محمد علي إبراهيم، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقق زكريا يحيى زكريا، دمشق ١٩٩١م.

٨- ابن كنان، محمد بن عيسى، المروج السندسية الفسيحة في تاريخ الصالحية تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبعة الترقى، دمشق ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

٩- بدران عبد القادر، منادمة الأطلال ومسيرة الخيال على نفقة حاكم قصر دمشق ١٩٥٩م.

١٠- البدرى، أبو البقاء عبد الله، نزهة الأنام في محاسن الشام، دمشق ١٩٨٠.

١١- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ بدمشق ٣/ أجزاء دمشق ١٩٢٧م.

١٢- الحلاق، أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١٣٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، طبعة أولى ١٩٥٩م.

١٣- الريحاوي، عبد القادر، قصور الحكام بدمشق، بحث نشر في مجلة الحوليات الأثرية، المجلد الثاني والعشرون والثالث والعشرون سنة ١٩٧٢م.

- مدينة دمشق، دمشق ١٩٦٩م.

١٤- زكريا، أحمد وصفي.

- جولة أثرية في بعض بلاد الشام، المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٣٤م.

- الريف السوري، محافظة دمشق، دار البيان بدمشق ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

١٥- العيادي الشافعي، محمد عز الدين عربي كاتب، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، مكتبة المقتبس بدمشق، ١٣٣٠هـ/١٩١٦م.

- ١٦ - علي، محمد كرد.
- خطط الشام، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٤٥هـ/١٩٣٦م ثم أعيد طبعه من قبل مكتبة النوري ١٩٨٣.
- غوطة دمشق، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٦٣هـ/١٩٤٩م.
- ١٧ - الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، لطف السمر وقطف الثمر، من تراجم أعيان القرن الحادي عشر، جزآن، تحقق محمود الشيخ، منشوران وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢م.
- ١٨ - قدامه أحمد، معالم وأعلام في بلاد العرب، القسم الأول القطر السوري، مطابع ألف وباء ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- ١٩ - قساطلي نعمان أحمد، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت ١٩٧٦م.
- ٢٠ - كنان الصالحي محمد، يوميات شامية من ١١١١-١١٥٣هـ/١٦٩٩-١٧٤٠م وصفحات نادرة من تاريخ دمشق في العصر العثماني، تحقيق أكرم العلبي، دمشق، ١٩٩٢م.
- ٢١ - المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر /٤/ أجزاء من دون تاريخ.
- ٢٢ - المرادي، محمد خليل أفندي.
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر /٤/ أجزاء بلا تاريخ.
- عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحي مراد، مطبعة زيد بن ثابت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٢٣ - المقار ابن جمعة، جمهرة المؤرخين عرفوه بابن جمعة، ولاية دمشق في العهد العثماني، تحقيق صلاح الدين المنجد، وهو يتضمن الوزراء الذين كلفوا بإدارة دمشق في العهد العثماني، دمشق ١٩٤٩م.

٢٤ - النعيمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد المتوفى ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، الدارس في تاريخ المدارس، جزآن، حققه جعفر الحسيني، مطبعة الترقى بدمشق، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

ج - المراجع العربية:

١ - أرسلان، الأمير شقيب، تاريخ الدولة العثمانية، علق عليه حسن السماح، دمشق ٢٠٠١م.

٢ - أوغلو، مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، استانبول ١٩٨٣م.

٣ - بريجيت مارينو، حي الميدان في العصر العثماني، ترجمة ماهر الشريف، دمشق بلا تاريخ.

٤ - بك حكيم، إبراهيم، تاريخ الدولة العلية العثمانية المعروف بكتاب التحفة الحليمية، القاهرة، ١٩٨٨م.

٥ - تشارشلي إسماعيل أوزون، عثمانلي تاريخي، أنقرة ١٩٨٣م.

٦ - بلك المحامي محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، القاهرة ١٩٩٣م.

٧ - ترجمان، سهام، يا مال الشام، دمشق ١٩٦٩م.

٨ - الحلو، عبد الله، تحقیقات تاریخیة لغویة فی الأسماء الجغرافية، دمشق ١٩٩٩م.

٩ - حقي، إسماعيل، لبنان مباحث علمية واجتماعية، بيروت ١٩٧٠م.

١٠ - الحر، خليل، لاروس المعجم العربي الحديثة، مكتبة لاروس ١٩٧٣م.

١١ - دارقيو الفارس، وصف دمشق، مذكرات رحالة فرنسي، ترجمة أحمد إيبش، دمشق، ١٩٨٢م.

١٢ - الديوان الدمشقي، شعر نظم في دمشق قديماً وحديثاً، جمعه وشرحه محمد المصري، دمشق ١٩٨٣م.

- ١٣ - دهمان، محمد أحمد، ولاية دمشق في عهد المماليك، دمشق ١٩٨٤م.
- ١٤ - الذيب، سامي، ختان الذكر والإناث، بيروت، ٢٠٠١م.
- ١٥ - رافق، عبد الكريم.
- العرب والعثمانيون، دار أطلس، دمشق ١٩٧٤م.
- المشرق العربي في العهد العثماني، دمشق ١٩٩٢م.
- البنية الاقتصادية والاجتماعية لمحلة باب المصلى، دمشق ١٩٨٥م.
- دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، دمشق ٢٠٠٢م.
- ١٦ - زهدي، بشير، دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية (سلسلة محاضرات).
- ١٧ - سرهنك، الميرالاي إسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، مراجعة حسن الزين، القاهرة ١٩٨٨م.
- ١٨ - سعد الدين، إبراهيم، الملل والنحل، القاهرة ١٩٤٥م.
- ١٩ - السعدي، غازي، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، عمان ١٩٩٤م.
- ٢٠ - سوفاجيه جان، لمحة تاريخية منذ أقدم العصور القديمة، حتى عهد الانتداب، دمشق ١٩٨٩م.
- ٢١ - السيد، محمود، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ٢٢ - العش، بسام، دمشق بين الماضي والحاضر، دمشق، ٢٠٠٦م.
- ٢٣ - ضاهر، مسعود، دمشق بين الماضي والحاضر، دمشق ٢٠٠٦م.
- لجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، بيروت ١٩٨١م.
- ٢٤ - الصباغ، ليلي، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق ١٩٩٢م.
- المجتمع العربي في العهد العثماني، دمشق ١٩٧٣م.
- ٢٥ - الصواف، حسن زكي، دمشق أقدم مدينة في العالم، ٢٠٠٤م.
- ٢٦ - عامر، محمود، المكايل والأوزان والنقود، دمشق ١٩٩٧م.

- ٢٧ - عبده، سمير، اليهود السوريون، دمشق ٢٠٠٣م.
- ٢٨ - العلبي، أكرم حسن: خطط دمشق، دراسة تاريخية شاملة، دمشق ١٩٨٩م.
- دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية، دمشق ١٩٨٢م.
- ٢٩ - غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ٣٠ - ف. فرستفالد، فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه، بيروت ١٩٨٦م.
- ٣١ - قنتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق ١٩٩٦م.
- معجم دمشق التاريخي للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها، دمشق ١٩٦٣م.
- ٣٢ - مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٣٣ - المنجد، صلاح الدين، خطط الشام، دمشق ١٩٨٤م.
- دمشق القديمة أسوارها أبراجها، أبوابها، دمشق ١٩٤٥م.
- ٣٤ - نعيسه، يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق، جزآن، دمشق ١٩٩٤م.
- ٣٥ - هاملتون جب وهارول بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسي، القاهرة ١٩٩٧م.
- ٣٦ - أوغلو خليل ساحلي، ميزانيات الشام في القرن السادس عشر، الأردن ١٩٧٤م.
- ٣٧ - ولتسنجر، كارل: الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، تعريب قاسم طوير، دمشق ١٩٨٧م.

ج - المراجع الأجنبية:

- 1 - Abdul Karim Rafeq, The Province of Damascus between 1723-1783, 1966
- Khayat Beirut.

- 2 - Abdul Karim Rafeq, Economic Relations between Damascus and the Dependent Countryside 1743-1771 In The Islamic Middle East 700-1900, Studies in Economic Social History, Edited by A. L. Udovitch, The Darwin Press Inc. Princeton, New Jersey.
- 3 - Abdul Karim Rafeq, The Local Forces in Syria in The Seventeenth and eighteenth Centuries in War Technology and Society in the Midle East, Edited by V. J. Parry and M. E. Yapp.
- 4 - Gabriel Baer, Jerusalem's Families of Notables and The Waqf in the Early 19th Century in Palestine in the Late Ottomen Period, Political, Social and Economic Transformation, Edited by David Kushner.
- 5 - Randi Degueilhem-Schoen, The Significance of the Awqaf Documents of the 19th – 20th Centuries Damascus to Current Research.
- 6 – Richard Thoumin, Docteur Es-Lettres, Geographie Humaine Dela Syrie Central Tours-Arrout et Cie Ma'itrea Imprimeurs 1936.
- 7 – Jean Paul Pscual, Damas, A La fn Du XVIe Siécle d'après Trois Actes De Waqf Ottomane, Tome 1, Damascus 1983.

د - الدوريات والمجلات:

١ - مجلة الحوليات الأثرية.

٢ - مجلة دراسات تاريخية.

٣ - مجلة الرابطة الأدبية.

٤ - مجلة الشرق.

٥ - مجلة العمران.

املا حق

[illegible][illegible]

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

۱۰
 ۱۱
 ۱۲
 ۱۳
 ۱۴
 ۱۵
 ۱۶
 ۱۷
 ۱۸
 ۱۹
 ۲۰
 ۲۱
 ۲۲
 ۲۳
 ۲۴
 ۲۵
 ۲۶
 ۲۷
 ۲۸
 ۲۹
 ۳۰
 ۳۱
 ۳۲
 ۳۳
 ۳۴
 ۳۵
 ۳۶
 ۳۷
 ۳۸
 ۳۹
 ۴۰
 ۴۱
 ۴۲
 ۴۳
 ۴۴
 ۴۵
 ۴۶
 ۴۷
 ۴۸
 ۴۹
 ۵۰
 ۵۱
 ۵۲
 ۵۳
 ۵۴
 ۵۵
 ۵۶
 ۵۷
 ۵۸
 ۵۹
 ۶۰
 ۶۱
 ۶۲
 ۶۳
 ۶۴
 ۶۵
 ۶۶
 ۶۷
 ۶۸
 ۶۹
 ۷۰
 ۷۱
 ۷۲
 ۷۳
 ۷۴
 ۷۵
 ۷۶
 ۷۷
 ۷۸
 ۷۹
 ۸۰
 ۸۱
 ۸۲
 ۸۳
 ۸۴
 ۸۵
 ۸۶
 ۸۷
 ۸۸
 ۸۹
 ۹۰
 ۹۱
 ۹۲
 ۹۳
 ۹۴
 ۹۵
 ۹۶
 ۹۷
 ۹۸
 ۹۹
 ۱۰۰

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

مجلس شورای ملی
شماره ۱۰۰
تاریخ ۱۳۰۲

[illegible][illegible]

12

113

✓ NC

52

مولانا ابوالحسن علی Nadwi مولانا ابوالحسن علی Nadwi مولانا ابوالحسن علی Nadwi مولانا ابوالحسن علی Nadwi مولانا ابوالحسن علی Nadwi

[illegible]

و طه ما هو ان في حاد من سبيله
 رة الله تعالى عليه السلام
 رة الله تعالى عليه السلام
 رة الله تعالى عليه السلام
 رة الله تعالى عليه السلام

وَأَمَّا مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ عَجَبٍ فَهُوَ لِلْعَالَمِينَ حَقٌّ

١٥
١٦
١٧

من قولنا ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم

فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم

٢٨٧

٢٢٢

فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم

فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم

٢٨٩

٢٢٢

فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم
فقد علم ان الله عز وجل قد علم ما في قلوبهم من السرور والفرح في ذلك اليوم

٢٢٢

[illegible][illegible]

